جانْ دوست

مهاباد

وطنٌ من ضَباب

رواية

مقام للنشر والتوزيع

مهاباد..وطن من ضباب
جان دوست
العنوان الأصلي باللغة الكردية:
Mijabad
تصميم الغلاف:
أحمد فرج
الطبعة العربية الأولى: يونيو ٢٠١٤م
الطبعة الأولى: دياربكر – تركيا
٢٠٠٤ دار Belkî
رقم الإيداع: 2014/10657
ISBN: 978-977-6463-06-6



مقام للنشر والتوزيع
هاتف جوال
01112750799
الإيميل
maqam.publisher@gmail.com

إهداء

إلى أختي روناك حسو
أمي في غربتي

هذه الرواية
تُقرأ على ضوء
أربعة مصابيح

المصباح الأول

الموت جرسٌ لا صوت له. ولا يسمع رنينَه إلا ذاك الذي دنت منيته. وأنا، مذ وطئت قدماي أرض مهاباد، لا يبارحني هذا الرنين. ولكي أقاوم موتي فأنا أكتب. فالكتابة وحدها تهزم الموت.

بادين الآميدي

مهاباد- شباط ١٩٤٦

أنا بادين، ريحٌ مجنونة أنا. روحي غدير ماء غطته الطحالب. رماد أثافي الرُّحَّل إذ يتركونها وراءهم. محاصر أنا بالأحلام، بالذكريات ومِزَق من قلب محطم. فخاخ الزمن تطبق على سنوات عمري الشبيهة بعصفور أعمى. وحيد أنا مثل شجرة الأماني ومسافر أنهكه التعب.

يزورني الموت. أشعر بدبيب أقدامه، تمامًا كما يشعر المرء بالنشوة بعد قدحين من الخمر. أليست الحياة خمرًا والموت سكرتها؟

إنني أعرف أن الموت ذو سطوة كبيرة ولا أحد يعيش خارج حياة محاصرة بالموت. لذلك أرغب في تحرير حياتي من قيوده. أريد أن أؤجل موتي عبر الكتابة فأعيش بين الصفحات. هذه الصفحات البيضاء التي تشبه أراض بيضًا تحط عليها الحروف سربًا وراء سرب مثل الطيور.

* * *

وُلدت في غرفة عارية. لم يكن معلقًا على الجدار حيث ولدت سوى مصحف وبندقية. كان منتصف الليل قد انقضى والنجوم مازالت في عراك صامت مع الظلام بينما ينثال من النجوم ضوء حزين.

تقسم جدتي وتقول « قسمًا برأس الشيخ بهاء الدين» كان المرء يظن أن القيامة قد قامت. لم تبرح أصوات البنادق آذاننا وما كان أحد ليعرف من أين تأتي كل تلك الأصوات؟ أمك هاميست كانت تنظر بعينين صامتتين إلى الجدران العارية.

كنت بين الفينة والآخرى أمسح شفتيها المتيبستين بملعقة من الشمع والسمن. كانت لا تقوى من التعب على فتح شفتيها. كان جفناها قد ازرقّا وجسمها قد تصلب، وكانت آلام المخاض تجعلها تعض على مخدتها من الأطلس وتصرخ بصوت أشبه ما يكون بنداء من قاع بئر مهجورة «ييس گميرنيمي، ييس گميرنيمي»(*)

كانت جبهتها المصفرّة كالزعفران مزينةً بنقاط من العرق وكان والدك في تلك الساعة يقاتل في دَرْبَنْدي بازيان.

القابلة التي كانت منهكة لحد الدُوار بسبب سهرها الطويل، صرخت فجأة « بشرى لك، لقد رزقك الله بوليد ذكر»

مع تلك البشرى لمعت نجمة الصباح ثم تلاشت وسط ضوء الشمس. نظرت إليك أمك بعينين دامعتين وقالت بصوت مكسور«دغاس»(**) وسالت الدماء....

خارت قوى القابلة. وصارت الوسائد والفرش تسبح في بركة من الدماء حتى بات وجهك أمك كالعُصْفر، كانت عيناها ترنوان إليك عندما خرجت منها الروح. أي ليلة كانت تلك يا بني؟ كانت ليلة حزينة لكأن الفرح قد فرَّ من الدنيا. لم يمض أسبوع حتى سقطت سُرَّتك، كانت أشبه ما تكون بقطعة حبل متسخ قذر فعلقتها في سبطانة البندقية المعلقة على الجدار. ولقد صادف في ذلك اليوم أن زارتنا في البيت عرّافة من جبال سنجار. فطلبت منها أن تبّصر لك. جلست العجوز البصَّارة عند رأسك وضربت أحجار المندل بعضها ببعض مرتين في يديها ورمتها أرضا ثم نظرت إليها، بعد ذلك شقت قطعة قماش من قماطك ثم مزقته

(*) بالأرمنية وتعني أنا أموت (أحتضر).

(**) بالأرمنية وتعني «يا بنى».

بأسنانها إلى ثلاث قطع ووضعتها في طاسة ماء، نزلت اثنتان من القطع الثلاث إلى الأسفل بينما طفت واحدة منها فوق الماء ثم ما لبثت أن لحقت بالقطعتين الأخريين. تمتمت العجوز السنجارية بكلام مبهم ثم توجهت إليّ وقالت: «هذا الصبي سيكون يتيم الأب والأم. إنه القدر يا أختي، وهو سوف يلحق بهما فيما بعد. وذات ليلة، حين يكون القمر بدرًا سوف يوّدع هذا الصبيُّ العالم، لست أنا من يقول، إنه المندل». ارتعشتُ كما لو أن أحدهم نثر علي ماء الثلج، فأسرعت إلى سرتك وأخرجتها من سبطانة البندقية ووضعتها بين دفتي القرآن. لم يكن لنا علم بمقتل أبيك. لقد تفحّم قلبي ذات صيف جهنمي يا ولدي.

* * *

مهاباد ١٠ شباط ١٩٤٦

نصبت عيناي مئات الفخاخ أمام عصافير النوم، ولكن ما إنْ يقترب عصفور من أحد الفخاخ حتى تنفجر إحدى الذكريات وتطيّره.

ذهبت اليوم واشتريت بعض الورق. لقد اشتقت للكتابة بل اشتقت إلى حبي كي أكون أكثر صراحة، ذلك الحب الذي لا يزول من قلبي. البرد ينخر في جسمي كالإبر. صباحًا، وعندما أستيقظ على صياح ديكة ثلاث، لا أكون قادرًا على الذهاب إلى المدرسة، ولكن مُجْدَه، زميلتي، سرعان ما تجرني إلى المدرسة مثل دوامة. إنها ربيع يمشي على قدمين، إنها تبعث الدفء في قلبي. هل أنا أحبها يا ترى؟ لا أعلم! نظراتها وضحكتها وكلامها كلها تبعث في الروح. هذا الصباح أهدتني وردة. لا أعلم من أين أتت في شهر شباط فبراير بهذه الوردة!

وأنا أشم تلك الوردة تذكرت العمادية كلها: جبل گاره في بروار

السفلي، متين، نهر العمادية، قلعة آشب، مدرسة قُبَّهان وأشجار البلوط وابنة عمتي ولقاءاتنا في الخلوات وفي الكهوف القريبة وقبلاتنا الحارة الخائفة، وجدتي ونحيبها وجلوسها كل صباح ومساء تحت شجرة التوت ودعواتها على العثمانيين والإنكليز والآشوريين تدفقت كلها في مخيلتي دفعة واحدة مثل وكر دبابير هائجة.

ها قد مضى نصف الليل وما زال يُسمع صياح ثلاث ديكة من ميدان چوارچرا. ترى ماذا تتذكر هذه الديكة في هذه الليلة الباردة؟ دالية العنب في وسط الفناء التي أشبه ما تكون بحُلم عارٍ تميل بأغصانها ذات اليمين وذات الشمال تجنبا لقبلات الريح الهوجاء.

في هذه الليلة يقتحم والدي خيالي. لم أكن قد رأيته قط، ولكنه كان يأتي دوماُ إلى البيت مع دموع جدتي: شاربان مفتولان وبندقية من نوع «مارتين» على كتفه ومن جبهته يسيل دم بلون االشفق، يتجه نحوي دومًا ويقول: «سوف نلتقي في جرح ما».

«ألا ليت تلك السنوات تمضي بلا رجعة»، كانت جدتي تقول، «فما من أحد رجع من سفربرلك، أنا أنا فكنت قد نفضت يدي من عودة أبيك ولكن»....

وبدأت جدتي تسرد قصة والدي.

* * *

أرجوكم اقتلوني.

كان الشاب الحلبي يقول لأصدقائه وهو يغص بآهاته.

كانت قنبلة قد انفجرت أمام خندقه في جبهة ساري قاميش بالقرب

من مدينة أرضروم شمالي تركيا وأصابته. في البداية لم يكن الجرح يؤلمه ولكن بعد ذلك المشي الطويل التهب جرحه وتعفن. كان يقول باستمرار:

«أتمنى لو لم أكن قد أطعتكم ولم أهرب. على الأقل كان الأطباء الألمان سيضعون السم على جرحي ولكنت الآن بجوار ربي.»

حاول يونس الآميدي ورمّو الدياربكري أن يخففا عنه، ولكن جرحه كان عميقًا.

اقتلوني. أرجوكم.

تبادل يونس ورمو النظرات وتجمد الدم في عروقهما. ثم نظرا إلى عيني الشاب الحلبي. الأزقة الضيقة والسوق المسقوف وساعة باب الفرج وأذان مسجد زكريا والقدود الحلبية كل ذلك كان يتأرجح في عينيه. كانت رائحة الموت تفوح من أنّاته.

كان ذلك في نهاية شهر أيار. والقمر الذي بدا مثل رغيف خبز ألقى بهالة نسجتها الأغاني الجبلية الحزينة على هؤلاء الشباب الفارين. كانت رائحة الجثث الممتدة على قارعة كل طريق وأمام باب كل كهف تفوح من المكان. مد رمو يده إلى البندقية التي كانت على كتف يونس وبصوت أقرب إلى البكاء قال:

أدر وجهك يونس، لم يعد هناك مجال.

* * *

مضت أشهر كثيرة وبات القتال أكثر ضراوة، صارت الحدود تتلاطم وكما الأمواج كانت القوات تتصادم بعضها ببعض على سائر الجبهات.

كان يونس ورمو يجرجران وراءهما آمالهما المجهَضة وذكريات

هزيمتهما في الحرب وجحيم ذلك اليوم البارد في ساري قاميش وآهات رفيقهم الحلبي الذي قتله رمّو في حين كانت الأودية والكهوف والصخور وسط الجبال وظلام الليل ستارًا لهم. لم يعرفا كم من الأيام أو الأشهر قد أمضياها في الطريق. لكنهما كانا منهَكين، شاحبين وبائسين. وبثياب ممزقة وشفاه مشققة كانا يقتربان من دياربكر. صاح رمو فجأة كطفل:

إنها ديار بكر.

سور أسود ومآذن رشيقة كانت في مرمى نظر الرفيقين ونهر كذراع أبيض يحتضن المدينة.

مثل كل بيوت ديار بكر، كان بيت والد رمو أيضًا قد استضاف بعض بنات الأرمن، وهناك وقعت عينا يونس على إحداهن حيث تذكر على الفور صديقه في السلاح أنترانيك. كان لتلك الفتاة نفس ضخامة الجسم والوجه الأشقر والذقن المستدق والعينين الجميلتين. في تلك الأيام التي مكث فيها يونس هناك، لم يرفع عينيه عن عينيها حيث رأى فيهما غابة من الخوف اللامرئي.

وعندما سألها يونس ذات يوم:

بالله عليك ألست ابنة انترانيك؟

تجمدت الفتاة في مكانها. لم تعد تعرف بماذا تجيب. كان فمها نصف مفتوح وكأنها تريد أن تقول شيئًا ما لكن يونس لم يمهلها وقال:

والدك انترانيك كان صديقي. هو أيضًا شهد ساري قاميش وجحيمها. إنه هو من ساعدني في الفرار. لقد سلم نفسه إلى الروس.

عندما سمعت هاميست ذلك الخبر انفرجت أسارير وجهها وبدلاً من أشجار الخوف التي كانت قد تيبست في عينيها نصب الربيع خيامه

مثل بدوي.

لم يكن يونس ورمو يتجرآن على الخروج من البيت وكانا يمضيان معظم وقتهما في القبو يلعبان الداما.كان والد رمو كل يوم يأتي بنبأ حتى قال ذات مرة: «إن العثمانيين يبحثون عن الفارين وأنهم سيذيقون من يقبضون عايه أشد العذاب فإما أن يقتلوه أو يعيدوه إلى الجبهة حيث لا مجال للفرار ثانية. ومن يحميهم في بيته سوف يُركبّونه بشكل مقلوب على الحمار ويدورون به من شارع إلى آخر بعد وضع السخام على وجهه وسيأخذون منه غرامة كبيرة. ولكن لا تخف يا بني يونس فأنا لا أقول ذلك لأنني سئمت استضافتك أو ضقت ذرعًا بك، ولكن كونا حذرين، ولا تدعا صوتكما يعلو ريثما يبعث الله فَرَجًا».

* * *

حينما يأتي الحب لا يبالي على أي قلب يحل ضيفًا. إنه كالمطر يهطل على أيما أرض، إنه جسر من الدموع والآمال ما بين قلبين. الحب نار تتقد من هشيم القلوب.

ولقد نصب الحب شباكه بين قلبي هاميست ويونس، شباك لم تكن خيوطه في البداية مرئية لكن ألوانه باتت مع مرور الزمن زاهية جميلة. شعر والد رمو أنهما يحبان بعضهما وكان يونس طبعًا قد فتح باب قلبه على مصراعيه أمام رمو. وذات يوم قال له والد رمو:

يابني إن هاميست بمثابة بنتي، فإن كنت تريدها على شرع الله، فسوف آتي بالمأذون ليكتب كتابكما، فمن جهة نستر على البنت ومن جهة أخرى تستقر أنت أيضًا، وإذا كنت تريد العودة إلى بلادك فهناك صاحب زورق سوف يوصلك وعروسك إلى نقطة فيش خابور بعشر ليرات رشادية.

هناك طريق من هكاري أيضًا ولكنه صعب قليلاً. قطاع الطرق من قبيلة التياري الآشورية متواجدون هناك. ليس هناك طريق أكثر أمانًا من النهر.

لم تتمالك هاميست نفسها من الفرح، ففتحت صرتها وأخرجت منه ليرة ذهبية وناولتها إلى والد رمو الذي نظر إليها وقال:

يا ابنتي مادمت تحبينه إلى هذا الحد، لتكن أجرتكما عليّ وسوف أدفع مهرك أيضًا.

في العمادية، بقيت هاميست ويونس بدون أولاد لمدة عامين. أقرباء يونس كانوا يقولون له: «إن هذه المرأة مسيحية وأن رحمها قد نشف منذ أيام مجازر الأرمن، طلّقها وتزوج من أخرى وليبق لعائلتك اسم في الدنيا». البعض الآخر كان يقول: « إن في الموصل أطباء إنكليز يداوون أي مرض» لكن أم يونس كانت ترد عليهم: «لا ينقصنا سوى طب الكفار! لمَ لا يذهب إلى بامرني؟ الشيخ بهاء الدين النقشبندي ولي من أولياء الله فليذهب مع هاميست ويقوم بخدمة تكيته لبعض الوقت ربما يرزقهما الله ابنًا ببركة الشيخ!».

في بامرني عقد الشيخ من جديد قرانهما. كانت هاميست ويونس يقومان بجميع أعمال التكية: إطعام المريدين في يوم التوجه، وتعليف أحصنة الشيخ، حراثة الحقول، رعي الأغنام ورش الماء على أرضية البيوت المبنية من اللِبن.

ذات يوم دعا الشيخ بهاء الدين يونس وقال له:

اذهب إلى ديارك وإن شاء الله سوف تُرزقون بولد، آمين.

في طريق العودة إلى العمادية توقف يونس وهاميست عند دير قديم

حيث دخلت هاميست وركعت أمام أيقونة مريم وابنها وأشعلت شمعة ثم خرجت بدمعتين ساختنين.

* * *

لبّادٌ خراساني، وشاح الموصل، كحل الحجاز، مكاحل الهند، مرايا العرائس، تبغ كويسنجق، سجاد حلبجة، شال دهوك، بضاعة جيدة ورخيصة.

كان صوت تاجر موصلي فرش بضاعته في أحد البسطات في قيصرية العمادية يصدح بينما كان الناس ينظرون بحسرة إلى تلك البضائع والنسوة يقفن أمام ها لبرهة ثم يذهبن.

أليس هذا جنونًا؟ هل من عاقل يأتي ببضاعة إلى العمادية في هذه السنوات العجاف!

انظروا إليه! ليس لدينا خبز نأكله وهو يبيع لباد خراسان!

والله لو رأته زوجتي، لسرقت منه سجادةً!

إنه جاسوس إنكليزي تنكر بزي تاجر.

سوف أشتري وشاحًا موصليًا لهاميست، بقي حتى ولادتها بضعة أشهر، سوف أسعد قلبها بهذا الوشاح.

اقترب يونس من التاجر ثم فتح محفظة نقوده واشترى وشاحًا.

لماذا لا، أليس هو يونس؟ يستطيع أن يشتري الموصل كلها.

سأل التاجر الموصلي وكأنه يعرفه: ألست ابن الملا قادر؟

- بلى، لماذا؟

- أنا أعرف والدك الملا قادر جيدًا، من كان معه في السجن

يمدحون شجاعته، يُقال أنه وضع بنفسه حبل المشنقة في عنقه وصرخ: «هذا الحبل القوي لن يُنقذ الأمبراطورية المهترئة.»

- نعم، مضى على هذه القصة خمس سنين، رحمهم الله جميعًا، ماذا يحصل الآن؟ يُقال أن السليمانية تغلي، هل هذا صحيح؟

- نعم إنها تغلي، الشيخ محمود أشعل النار إنه يحضّر لانتفاضة كبيرة، والإنكليز ليسوا راضين عن حكمه، والميجر سون يهدد كثيرًا لكن الشيخ يقول«لا يمكنني قبول حكم الكفار أبدًا».

بعد يومين أمّن يونس وصديق له من قبيلة كوليان بندقية من نوع مارتين وحضّرا نفسيهما للذهاب إلى السليمانية.

في ليلة دامسة الظلام ودّع يونس أمه ثم قبل جبين هاميست قائلاً «إذا لم أعد ورُزِقت بابن، سموه بادين، وإذا كانت فتاة سموها أي اسم يعجبكم.»

رافقت هاميست ببطنها المنتفخ زوجها يونس إلى الباب، وودعته قائلة:« تارتسير شوت»(*)

* * *

خلف الصخور تجمع أكثر من ألف مقاتل من عشائر الجاف وبيشدر وبلباس وهماوند وموكري وسندي ومزوري وهم يصيخون السمع بانتباه شديد لخطاب الشيخ ذي الثلاثة والثلاثين عامًا.

كان البعض قد جاؤوا ببنادقهم من نوع ماوزر وآخرون من نوع مارتيني وآخرون من نوع مانليشَر ووضعوها جميعًا على صدورهم.

(*) بالأرمنية وتعني عُد سريعًا.

وقعت عينا يونس على أحد المقاتلين، تذكّر فورًا التاجر الموصلي وسأله: «أخي هل مارست التجارة؟»

- ها، يونس أفندي هذا أنت؟ كنت أعرف أنك آتٍ.

- هذا أنت؟

- نعم. ولكن لم أكن تاجرًا، أنا من رجال الشيخ محمود، سافرت إلى كركوك وهولير وزاخو ودهوك وبعض البلدات الأخرى، كنت أُوصل صوت رفرفة هذه الراية إلى المدن.

ومد يده إلى راية خضراء في وسطها هلال أحمر ولوح بها.

ليس بعيدا عن الاثنين كان الشيخ محمود جالسًا في ظل أحد الصخور يداعب بأنامله الثخينة شاربيه حيث نظر إلى أعلى الممر الجبلي الضيق وبدا واثقًا فقال لنفسه«ما من قوة في العالم تستطيع هزيمتنا»

وصلته المساندة من كل حدب وصوب. ففي جَمجَمال انتفض محمد جباري، وعبدالله عسكري في قلعة سيوكي وشيخ أحمد في منطقة بارزان، وعشائر كويان في وسط زاخو والهوراميون من خلف الحدود أيضًا بقيادة محمودخان دزلي. وحينما انتصروا في بعض المناوشات، ذاب الخوف في قلوب هؤلاء المقاتلين كما يذوب الملح في الماء.

مضى الكثير من الليل، وبدت سماء الصيف التي تتلألا فيها النجوم كقطيع غنم لقبائل هَرْكي في سهل الموصل، كان الشيخ يحرض القادة والجند على القتال ويعدهم بالنصر قالاً:

«أيها الإخوة، اعتقدنا أن الإنكليز سوف يقدمون لنا مساندة مناسبة، ولكن يبدو أنهم يريدون أن يقيموا لنا كردستانًا مثل علبة التبغ وأن يلفوا منها من رويدًا رويدًا سجائرهم ولكنني أقسمت:

إما أن أبلغ بسفينة الكرد إلى ساحل النجاة، أو أجعل روحي جسرًا
أنا كردي وأقول لكم بالكردية أيها الإخوة:
مضى عهد الذل وجاء عهد سعادة الكرد.

وانطلق صوت ألف وثلاثمائة بندقية بعد سماع هذه الأبيات من شعر الشيخ.

مع بزوغ فجر الثامن عشر من حزيران عام ١٩١٩ جن جنون الإنكليز كما لو أنهم قفير دبابير اشتعلت به النار. تسلق الجنود البورميون مرتفعات دربندي بازيان كما لو أنهم وعول برية. كان يتقدم القوات الإنكليزية المشير حمه سليمان هماوند وتوجه مباشرة صوب الخندق الذي يتمترس فيه الشيخ محمود.

كان يونس، من وراء صخرة يحتمي بها وسيجارة ملفوفة بين شفتيه المتيبستين من العطش، يصطاد الوعول البرية البورمية. ومع كل طلقة كان جندي بورمي يتدحرج إلى أسفل الوادي. وحين اشتد أزيز الرصاص تناهى إلى سمعه صراخ طفل وليد. كانت رصاصة قد وجدت طريقها إلى صدره ذي الشعر الكثيف واخترقت القلب. نجمة الصباح كانت تتلألأ مثل قلب عاشق خجول، نظر يونس إلى أطراف العمادية وبدا صراخ الطفل الوليد أكثر وضوحًا، ارتسمت ابتسامة رضا على شفتيه ثم أغمض عينيه.

في الحال بزغت الشمس وبدت قمم جبل قره داغ صفراء كوجه امرأة أتاها المخاض. كانت الدماء لا تزال تسيل من جراح المصابين وعلبة تبغ يونس غارقة في الدماء والدخان يتصاعد من فوهات بنادق الجرحى. سحب الشيخ محمود خنجره المعقوف من غمده ومرّره على النار التي

أوقدها الشيخ غريب حتى احمرّ وكوى به الجرح الذي في قدمه. رأى من حوله جثث ٤٨ قتيلاً. قاومت الدموع في عينيه ولكنها لم تنهمر. وفجأة رأى كلاً من النقيب الإنكليزي السير بوند والمشير حمه سليمان هماوند فوق رأسه.

هذا هو الشيخ محمود، قال المشير.

.I know that

قال النقيب الإنكليزي ذلك وأمسك بيد أسيره، نظر الشيخ إلى المشير حمه سليمان، أراد أن يقول شيئًا لكنه لم يتكلم.

* * *

مهاباد ١٢ شباط ١٩٤٦

الغيوم تغني أغنية المطر، مثل ذكريات السنين الغابرة التي كلما ابتعدت عنا زادت حلاوتها. إنها تمطر بعشق، تمطر بغزارة وبدون خجل. إنها الغيوم تسكب قصائدها الوحشية على صفحات الأرض العطشى.

ترى ماذا تتذكر هذه الغيوم حتى تبوح بأسرارها في أذن هذا المدينة الناعسة؟ هاهي دالية العنب التي أوشكت على النوم تهتز مثل شخص محموم، إنها شجرة عارية مثل ليلتي هذه، شجرة يابسة مثل روحي، شجرة يتيمة مثل قلبي، شجرة قصيرة مثل قصص حبي.

منذ الصباح وهذا الزخ من المطر لم يتوقف. من النافذة لم يعد يُرى شيء سوى خيوط المطر. ذكرياتي تهطل مع تلك الخيوط، دروسي في الفقه في اسبيندار وبامرني ومدرسة الملا يحيى المزوري، ودراستي في مدارس دهوك وهولير ودراستي في الموصل. صاحبي صادق بهاء الدين

عاشق خانزاد الهوليرية، كل هذه الأشياء تتوافد إلى ذاكرتي هذا المساء مثل شجرة توت حين تتساقط أوراقها في بركة ماء راكد.

كانت سنة كالجحيم، وسجن عُقرة لم يعد يتسع للمزيد من السجناء. كان شعبان آغا قد انتفض في العمادية، وكان أهالي برواری بالا ودوسكي وسندي وكولي وقفوا في وجه مؤيدي الإنكليز ومعظمهم من عشائر تياري وباز وجيلو وتخوما المسيحية. كانت قبيلة تياري تقوم بالهجوم على القرى الكردية ويحرق أفرادها المساجد ويرمون الكتب في آبارها. فرّ الآلاف إلى هكاري والبعض الآخر توجهوا إلى أورمية. كنت حينها في الشهر الثالث أو الرابع من العمر. نزحت أسرتنا إلى تكية بامرني بعد أن كانت كل أملاكنا وممتلكتنا قد نُهبت. أصبح الناس يتحسّرون على أيام سفربرلك.

ها هي أصابعي تتيبس من الكتابة وعيناي تكادان لا تنفتحان من قلة النوم بينما يرتسم خيال مُجْدَه على الأوراق. هذه الفتاة باتت مثل قطاة تلتقط الحب في قلبي. وعندما صافحتني هذا الصباح، تحولت إلى طائر وطارت في آفاق غير مرئية، تدفق دفء يديها إلى دمي، تُرى هل أنا أحبها؟ لا أعرف لغاية الآن.

* * *

إنه الضباب، والضباب حلم الجبال وأنفاس الشتاء. إنه السر الذي يبوح به الليل في أذن الصباح، إنه توأم المطر. الضباب أصابع الغيوم إذ تعزف على أوتار الشتاء. ومهاباد تبدو كما لو أنها فتاة عارية تعرض جسدها للشلال وسط ذلك الضباب. يُقال أن «مهاباد مدينة الضباب»! إنها مدينة الضباب حقًا إنها مژآباد، والضباب هنا ليس فقط ضباب

الطبيعة لكن الجمهورية التي تأسست تتقلب وسط أمواج من ضباب أحمر.

المصابيح المتدلية من الأعمدة على ناصية كل شارع تُلقي بضوء خافت على ذلك الضباب. يقاوم الضوء وتقاوم مصابيح الأعمدة في نواصي الشوارع.

قبل أن تغرب الشمس خلف جبال لندي شيخان، ذهبنا أنا وصديقي كريم الشكاكي إلى مقهى (لاس وغزال)، كان شابان لطيفان جالسين على الطاولة القريبة منا وكان أحدهما يتصفح جريدة كردستان فسألت كريم:

- من هو ذلك الشاب الذي بيده صحيفة كردستان؟

- إنه مناف كريمي وهو صديقي في الكوملة(*). ثمة إشاعات أن البيشوا(**) سوف يعينه وزيرًا للتعليم.

قال كريم ثم توجه بالكلام إلى مناف وقال: «خودا پەرەستى شتيكى باشه»(***) فرد عليه مناف بمثل كلامه ثم سأل «هل هذا الأخ من البرزانيين؟» مددت يدي قائلاً: «أنا بادين الآميدي»

- أهلا وسهلاً أخ بادين، تفضل بالجلوس.

صخب المقهى لم يكن يدعنا نسمع بعضنا بعضًا وكان ضباب أكثف من ضباب هذه الليلة قد تشكل من دخان السجائر. لم أعرف ماذا قال لي مناف فقرَّبت رأسي منه قائلاً «عفوًا سيد مناف، لم أسمعك»

(*) حزب كردي تأسس في إيران قبل قيام الجمهورية الكردية في مهاباد سنة ١٩٤٦.

(**) لقب القاضي محمد وهو رئيس جمهورية مهاباد الكردية. معناه القائد.

(***) معنى العبارة هو: عبادة الله شيء طيب. وهي كلمة السر التي كان يتعارف بها أعضاء حزب كوملة.

قال كريم «الكُرد لا يسمعون أصوات بعضهم بعضًا».

- لماذا؟ سأل مناف.

- لأنهم قد ختموا آذانهم بالشمع! أجبت أنا.

- لا والله ليس بسبب ذلك بل لأن حلوقهم قد انسدت. قال كريم بعصبية

كنا منخرطين في ذلك النقاش عندما تناهى إلى سمعي صوت رجل عجوز متهدج: البحر، إذا لم يكن هناك بحر فإن الجمهورية هراء.

التفت جميع مَن في المقهى إلى الصوت المتهدج، سألت كريم «من هذا»؟

- أنا أميرال آغا، أنا مصرٌّ على رأيي فما لم تكن مهاباد على شاطئ بحر أو ما لم تُوجدوا بحرًا في هذه الجمهورية فإنها ستنهار!

كان عجوزًا نحيلاً ضعيفًا وفي يده سطلٌ من النحاس يدور من طاولة إلى أخرى ويصب ماء الكؤوس التي على الطاولات في سطله.

نهر سابلاخ لا يستوعب السفن الكبيرة. قولوا للبيشوا « لا يتم الأمر بدون بحر». ولما وصل إلى طاولتنا غرز نظرات عينيه اللتين كانتا تشبهان الخنجر في عيني وقال:

أيها الغريب، هل تعرف لماذا لم ينتصر الشيخ محمود؟ لم يكن في السليمانية ميناء. دعك من الجبال، لا جدوى منها. وبغضب حمل الكأس الذي أمامي وصبَّه في السطل النحاسي:

«سأخدم ملك كردستان حتى الموت مثل العبيد

وأدع حياتي فداء لكل أمر وفرمان منه».

كانت تلك الأغنية تنساب من غراموفون المقهى مثل نهر هادر.

- علي أصغر كردستاني يعرف كيف يختار الأشعار، قال كريم.

- نعم وهذه القصيدة لأحمد مختار جاف خير مثال على ذلك، ردَّ مناف.

- وهل يمكن نسيان ذلك اليوم! كنا نحفر قبره عندما عثرنا على آلة سيتار ورغم محاولاتنا الكثيرة لم نستطع إخراجها فقمنا بدفنه معها.

- قادر عَوْلا أيضًا عازف سيتار لا مثيل له. كان دومًا يرافق علي أصغر. كانا كتوأمين لا يفترقان.

- بادين، ماذا تعرف عن علي؟

- عندما كنا في السليمانية، كنا نستمع إليه كل ليلة. يُقال أنه سجّل عدة أغاني مع شركة بيضافون وجاء مرة إلى السليمانية وغنى للشيخ محمود.

افترقنا نحن الثلاثة على أنغام تلك الأغنية، ثم علا صوت الآذان من جامع عباس آغا. في الطريق مررت على خمارة آكوب الأرمني وأشتريت زجاجة فودكا. كنت أمشي وسط الضباب وأتذكر كلمات أميرال آغا الغامضة مثل هذا الضباب. وقلت لنفسي «لو كانت مهاباد حقًا أحد الموانئ البحرية، مالذي كان سيصير؟».

* * *

أنا وأنت يا مهاباد
لا النوم يعرف طريقه إليك
ولا أعرف أنا نهاية لعدد نجومك
تفوح رائحة القرنفل من مساءاتك الندية

تفوح رائحتك من القرنفل
شوارعك تُغسل بدموع الصباحات
هل تعرفين بكاء الصباح، يا مهاباد؟
ترى ماذا تقولين لسابلاخ في هذا الصباح الأصم؟
أيتها المدينة الناعسة
أحلامك تمر عبر حلقات الحبال
والضباب يقبّلك من شارع إلى آخر
ومن قمة إلى أخرى
ويئن
فمن يقبل ضبابك؟
أستمع إلى أنين ضبابك آتيًا عبر النوافذ.
هذه الليلة يطرق أبوابك
ربيعٌ ضمخته دماء نسيم السحر وعبيره.
أيتها الجمهورية اليتيمة
من نسج لك هذا الحزن؟
من غزل لك ليالي الأرق هذه كضفائر؟
من زرع القرفة والقرنفل في عينيك؟
من ذبح الربيع في عينيك؟
من الذي عرّضك لمطر الحبال؟
ذكرياتي في شوارعك

تُطحن مثل بلوط العمادية
شوارعك ترميني بلا وعي إلى كل ميدان
غريب أنا في هذه الشوارع
مثل هذه الجمهورية بين الجمهوريات
فلتحصدي نجوم ذكرياتي بمناجل الليالي المؤرِّقة
ولتجعلي روحي سجادة
يسير عليها مشرّدوك.
لقد نُسجت روحي من الضباب
وضبابك أنت يا مهاباد نسجته روحي.

* * *

اليوم فقط أدركت لماذا كان الضباط الروس في القفقاس أثناء الحرب العالمية يبيعون بنادقهم بالفودكا. فالبنادق تقتل الناس بينما الفودكا تقتل الهموم، الفودكا تحيي الذكريات، الفودكا صنعتها دموع الله.

لقد شربت كأسين فقط ويُخال إلي أن ضباب مهاباد كله يتراقص في رأسي، وذكرياتي في السليمانية تتراكض مثل المجانين في الأزقة. إنها كالخيول الجامحة التي أفلتت رسنها وتعدو، إنها كالمصابيح تشع على نواصي الشوارع. أتذكر هذه الليلة جاله ولكن مواء قطط مهاباد لا يدعني أكتب، ترى لماذا تجن القطط هكذا في شهر شباط؟

رأسي بات أثقل من جبل متين حيث الضباب والذكريات والفودكا تتصيد مثل النمور في هذا الرأس الثمِل.

كان نهارًا جميلاً سبق الربيع وجاء ليزور شباط البارد هذا. لاح الثلج مثل ذكرياتي متقطعًا على جبال خَزايي، داشا مجيد وقول قولاغ. رفعتْ بضعة أزهار هَله كوك رؤوسها من تحت الثلج الذائب لتعلن بشرى قدوم الربيع. تلك الأزهار رسائل بعثها ربيعٌ مبكر.

خرج التلاميذ في كل مدرسة يخرجون متقافزين من البوابات مثل خراف عائدة من الرعي، وتماوجت الأعلام الملونة على أسطح البيوت مع الريح الرخية. وكان شارعا شاهپوور و پهلوى ضاجين بحركة صاخبة:

المقاهي تغصُّ بروادها، يتحلق بضعة شباب حول طاولة، تلوح في يد أحدهم جريدة كردستان ويقرأ فيها بخفوت، يدور حديث كالتالي:

- مناف كريمي أصبح وزيرًا للتربية.
- والله العظيم إنه يستحق هذا المنصب.
- كريم أحمديان أيضًا صار وزيرًا!
- ولماذا لا؟ إنه من أقرباء مينا خانم.

أبٌ يمسك بيد ابنه ويأخذه إلى الحلاق، أحد الآباء يدخل محلاً للخياطة مع ولده، كثيرون يمرون بجانب خمارة آكوپ، ينظرون شزرًا إلى تلك القناني المليئة بالثورة والجنون، يمتعضون، ثم يغذون السير مبتعدين، فارس معتد بنفسه يمر من ميدان چوارچرا: وقع سنابك حصانه، سرواله وسترته، الشراشيب المتدلية من عمامته وشواربه المفتولة كل ذلك تشير إلى أنه ابن أحد الآغوات. قروي يسير مع حماره ينظر إلى قناني الخمارة، يقلب وجهه ويتمتم بكلمات غير مفهومة، لا بل كلامه مفهوم، إنه يقول: أستغفر الله ثم يضرب جنبي الحمار بأخمصي قدميه

المتشققتين ويحث الحمار على السير. في عتمة دكانة صغيرة يجلس عجوز أمام بكرات الحبال، تتدلى من سقف الدكانة حبال من جميع الأنواع، بعض من النسوة ينسجون البسط على الأنوال أمام بيوتهن، يفصلن الخيوط عن بعضها بقرون الغزلان. عدد من البارزانيين يمشون متبخترين ببنادق على الأكتاف، جيب عسكري بلون التراب يتهادى ببطء، بعض من طلبة العلم يتجهون إلى مسجد بازار القريب من تلك الأنحاء، يبدو جليًا أنهم يسرعون لئلا تفوتهم صلاة العصر، فتاة في مقتبل العمر تراقب رقصة فراشتين وحينما تلمحنا أنا ومُجْدَه تغلق النافذة.

- هذه جارتي. قلت مشيرًا إليها.
- من؟ سألت مُجْدَه.
- هذه الفتاة التي أغلقت النافذة لتوها.
- وبدون أن تحول نظرها عن النافذة سألتني مُجْدَه :
- إنها جميلة أليس كذلك؟
- لم تتركي الجمال لأحد يا مُجْدَه ؟
- لماذا تحدثت عنها؟
- لأنها تترنم كل صباح بهذا البيت:
- چندان كه گفتم غم با طبيبان
- درمان نكردند مسكين غريبان(*)

أكملت مُجْدَه غزلية حافظ شيرازي هذه بنغمة حزينة وصوت خافت:

(*) من قصيدة لحافظ الشيرازي، ومعنى البيتين:
كم قلت للأطباء عن همومي
لكنم لم يداووا المساكين الغرباء

حافظ نه گەشتی شیداي گیتی
گر مي شنيدي پندی أديبان(*)

ولمعت في عينيها العبرات.

- لماذا تبكين يا مُجْدَه ؟

- ستفهم كل شيء فيما بعد يا بادين. ودفنت رأسها في صدري. خطفتُ قبلة سريعة كالبرق من شفتيها الشبيهتين بحبتي عنب وقلت لها: الجو ربيعي هذا اليوم!

- هذه مهاباد يا بادين. ربيعها أشد نضارة من ربيع شيراز.

- فلنقم بنزهة.

- إلى أين؟

- إلى ضفاف سابلاخ.

- هيا بنا.

ابتعدنا عن عيون الناس، لا نعرف كيف سرقنا أنفسنا من المدينة. الناس كانوا مشغولين بالجمهورية الوليدة لتوها أما أنا فقد شغلني الحب: أنتِ جمهورية قلبي التعيس يا مُجْدَه.

جلست مُجْدَه بقرب صفصافة وأسندت ظهرها لجذع الشجرة ثم قالت برقة: «تعال واجلس بجانبي». جلست بالقرب منها وتأملت ماء النهر بصمت. سألتني: أين سافر خيالك؟

- ها..أنا هنا معك.

(*) لن تصبح يا حافظ مجنون العالم
إن استمعت إلى مواعظ الأدباء

وانهمرت عليها قبلاتي. أبعدتني عنها بلطف وقالت مبتسمة: «اخجل يا أستاذ».

العاشق لا يعرف الخجل.

وغرقنا في موجة صمت.

سألتُها فجأة: «كيف تتصورين حال مهاباد لو كان سابلاخ بحرًا؟»

- كنت سأسافر إلى آغري بالسفينة.

تركت هذا الجواب معلقًا ونزعت ورقة من دفتر كان في يدي، صنعت منها زورقًا صغيرًا وأطلقته في الماء. رمت مُجْدَه الزورق التائه ببضع حصوات صغيرة بينما كانت عيناها تستحمان بالدموع. حملتُ يدها الشبيهة بفرخ حمامة وطبعت عليها قبلة خاطفة (كل القبلات بين العشاق في هذه المدينة هي هكذا).

الحب الخفي كان يطرح لثامه الآن. كان القلبان يتفتحاناً وبصمت بدأت الحرب بين الشفاه. طأطأت الصفصافة أغصانها وأرختهما فصارت تبدو مثل خيمة خضراء تستر الإثنين. الشفاه كانت تحط على الشفاه كأنهما قبيلتان من الُرحَّل وقد بدأتا بالنهب. الأنامل تتنزه على النهدين بعد أن تركت غابة الشعر. توقفت قليلاً عند منحدر العنق ثم توجهت لتكمل نزهتها على الظهر الناعم والرقبة الملساء والصدر الجميل الدافئ. كانت أزهار التفاح تتناثر من أنفاس مُجْدَه. النهدان اللذان لم تمسسهما الأيدي انتصبا كأرنبين مختبئين وراء أكمة. آهات الشهوة هزت الجسدين الظامئين. نزع بادين بأسنانه أقراط مُجْدَه وجعلها تسكر بعد عضتين خفيفتين. تقلب الإثنان مثل غيوم نيسان. ومن قال إن الحب ليس رعدًا! «أحبك» خاطب كلٌّ منهما الآخر بعينين نصف مغمضتين وانخرطا من جديد في رقصة العسل.

كان الجنون قد استبد بالجسدين: جُنَّ البطنان وجُنَّت الأفخاذ، الشفاه والأسنان، اللسانان والأنامل. كادت مُجْدَه تقطع شفتها السفلى من الشبق فتأوهت من اللذة العارمة في تلك اللحظة. أما بادين الظامئ فقد أرسل دلوه إلى أعماق البئر ولما أطفأ ظمأه أطلق صرخة وقال «أواااه» كأنه جريح.

استلقت مُجْدَه نائمة بجانبه فلمع جسدها العاري المغطى بحبات العرق مثل شلال. ومن بإمكانه أن يحضن شلالاً؟. استلقى بادين بدوره مثل فلاح أتعبته الحراثة. وضع يديه تحت رأسه وصار يتأمل غرفته الخالية. لم يكن هناك أثر لنهر سابلاخ، ولا مُجْدَه ولا تلك الصفصافة الحنون.

ما عاد بادين يعرف أكان ما رآه أضغاث أحلام أم أنه عاش الحقيقة.

***

إنها نهاية شهر شباط. ها هي الطبيعة تنسج للشتاء كفنًا. منذ المساء لم يتوقف هطول الثلج. من خلال زجاج النافذة أرنو إلى مصابيح الشوارع. نتف من الثلج تحاصر الأنوار وكأنها نحلات تحوم حول الأزاهير. إنها تهاجم تلك المصابيح الكئيبة. والمصابيح بدورها تقاوم من خلال أضوائها الذبيحة. ترى هل يستطيع هذا الثلج أن يطفئ تلك المصابيح؟

ها أنذا أسمع من النافذة صوت جارتي تترنم بأغنيتها المعتادة كل مساء:

يا رب أمان دى تا باز بيند
چشم محبان روى حبيبان(*)

(*) اللهم أعط الفرصة حتى ترى عيونُ المحبين وجوهَ الحبيبات مرة أخرى.

يتبادل الناس كثيرًا هذه الأيام في المدرسة، في المقاهي، في السربازخانه وفي المجالس أحاديث حول المساعدات الروسية. قبل يومين وصلت خمسة آلاف رشاش من نوع المتراليوز، وبنادق ومسدسات كولت وبرنو إلى معسكر السربازخانه. لكن الأسلحة الثقيلة لم تصل بعد. يقول المهاباديون:«ثمة خمسون دبابة وعشر مدافع ثقيلة في الطريق». ويقسم بعضهم أغلظ الأيمان قائلين: « هناك قافلة عسكرية متوقفة عند مدينة خوي». أما أميرال آغا فهو يجول في الشوارع، يضحك بشكل هستيري ويصيح: « وحده البحر سيحمي مهاباد وليس الحديد البارد القادم من بلاد الصقيع».

يشتد هطول الثلج فيغطي رويدًا رويدًا أغصان الكرمة المنتصبة مثل أرملة في وسط باحة الدار.

الأشجار حكايات الحقول.

يقولها كريم شكاكي.

أحيانًا كثيرة أصغي السمع إلى الأغصان فأسمع صوت مرور النسغ في عروقها مثل أنغام آلة سيتار. أما من باحة منزلي فيعلو أنين الكروم.

الأشجار لا تنام.

يقولها كريم شكاكي ويواصل: حينما قتلوا سمكو آغا، سمع الناس أنينًا يشبه ثغاء الجداء الوليدة في شنو وأورمية وسلماس وخوي. سمع الجميع بكاء شجر الحور، لم تثمر أشجار الرمان والتفاح تلك السنة، وانفجرت ثمار البلوط على أغصانها. أرأيت دموع الأشجار يا بادين؟ اذهب ذات فجر وتوقف عند شجرة ثم دندن بلحن أغنية. سترى الشجرة وهي ترخي أغصانها وسترى أوراقها تتبلل بالدمع كعيون الأطفال.

لقد أقسم الثلج أن يستمر في الهطول إلى الفجر وكأن الشتاء لا ينوي الرحيل. تعوي ريح الشمال. تعوي ممتزجة بالأنين كأنها أغنية يترنم بها مطرب أعمى.

« الريح شكوى الجبال. فحينما تشكو الجبال وحدتها للأفق، تهب الريح». هكذا يقول كريم ويواصل:«حينما قتلوا سمكو صمتت الجبال. كانت تتأمل بعضها وتبكي. لقد نسيت الجبال وحدتها. كانت تلك السنة سنة بلا ريح. حدث ذلك في شهر حزيران. قبل ستة عشر عامًا. كنت في العاشرة من عمري حين لوى أبي عنان فرسه مع سمكو آغا وبضعة فرسان متجهين إلى شنو.

الشاه رضا خان بذاته ينتظرني.

قال سمكو آغا لأصحابه وهو يفتل شاربيه الأسودين المدببين المدهونين بشحم الخراف. كان التاريخ قد نصب فخاخه الذهبية التي يتعثر بها الكرد في الأوقات الظالمة.

سأدع الشاه رضا خان بذاته يملأ غليوني بالتبغ وأنا ما أزال على صهوة جوادي.

وعد سمكو رفاقه بذلك. ولكن قبل أن يجتمع بالشاه رضاخان انهمر الرصاص من كل صوب. قبض سمكو على الخنجر بيد وبقيت يده الأخرى داخل جيب سترته. لم يعرف الفرسان مالذي يحصل. لم يكن أحد يفهم ما يقوله أولئك الفرسان المندهشون. تقدم جنديان إيرانيان صوب القتلى ليحملا جثة سمكو فوجدا في كفه النازفة غليونًا فضيًا فارغًا.

اجتمعت النسوة والعرائس من قبيلة الشكاك حول قبر سمكو

ورمين على شاهدتيه جدائلهن المقصوصة حتى غمرت الشاهدتين. إن الشكاكيات ما زلن إلى الآن مقصوصات الجدائل».

بعد مقتل أبيه بسنوات، خرج كريم بصحبة أمه وجُدْه واتجهوا إلى مهاباد. وهناك وعند تلة خوداپَرَسْت أصبح مع مناف كريمي عضوًا في جمعية ژي كاف(*).

بأية سواحل وشطآن سيحلم المرء على متن سفينة مهترئة وفي خضم بحر مائج؟ إنها تبدو كالأحلام من خلال الأمواج المجنونة. سواحل من أحلام مجهضة. أحلام من ضباب مجنون بلا ضفاف. ترى كم من المرات هدهدت الحلقاتُ الضيقة من حبال المشانق المعلقة الأحلامَ؟ أو ليست الأحلام أكاذيب الليل؟

قبل ثلاث سنوات كنت أنا بادين بن يونس الآميدي مقاتلاً من مقاتلي ملا مصطفى البارزاني. كانت تلك الحرب جحيمًا. والقلوب تصقل في أتون الحرب العنيفة تمامًا كما يصقل الحديد في النار. كنت أقول:« سنسيطر حتى على بغداد». لست أنا فقط لكن أولئك المقاتلون الحطب كلهم كانوا يرددون هذا الكلام. ومع ذلك فقد كنت على علم بأن هذه الحرية العنيدة التي تزغرد لها عشرة آلاف بندقية سكرى لن تزيح الحجاب عن وجهها بسهولة. كنت أعرف أن عجينتنا لم تختمر بعد ولكننا أوقدنا التنور. كنت أعرف أن الحطب يشتعل فلا يضيء إلا ما حوله. لم يكن عندي أمل في أن أتناول رغيفًا طازجًا لكنني كنت أقاتل بحمية. النضال مشروع من أجل الأهداف الكبرى حتى لو عرف المرء أن تلك الأهداف لن تتحقق.

(*) هي جمعية J.K أو زيانه وي كرد ومعناها إحياء الكرد. جمعية سياسية نشأت في إيران أيام الحرب العالمية الثانية.

الوضع في هذه الجمهورية أيضًا يشبه ذاك الوضع فأنا أعرف أنها ستنسحق بين أصابع الزمن وتصبح مجرد ذكرى. فهاهي هذه الجمهورية لم يمض عليها شهران حتى نكث الروس بوعودهم. وليس من المستبعد أن ترقص طهران مع الروس في حلقة رقص واحدة. من ذا الذي يعلم كيف تدور رحى الأقدار من أين تأتي وإلى أين ستمضي بنا؟

ريح الشمال تمد أصابعها إلى كرمة العنب، تعري أغصانها الجرداء من ثوبها الثلجي،. إنها تعريها بوحشية، تزني بها. تلك الريح الزانية تشهق. أحيانًا تصبح الثورات أيضًا ريحًا زانية.

غدًا سيأتي مصور إلى المدرسة ليقوم بالتقاط صور للتلاميذ والمدرسين.

* * *

كان ذلك في العام ١٩٣٩، في العمادية.

لم تكن حوريات الفردوس في مثل جمالها. كنت أروِّضُ قلبي في حضنها. و اعتادت روحي الباردة دفءَ صدرها. كانت جدتي قد عملت لنا أرجوحة من بساط قديم وعلقتها بشجرة التوت (كان توتها أبيض اللون حلو المذاق). لم نكن نغادر الأرجوحة. كان نعاس لذيذ يرتاد أعيننا في المساءات حين تهب الأنسام الندية.

- انهضا انهضا فقد ذرقت عليكما الطيور.

كانت جدتي توقظنا. كنا صغارًا وما كنا نعرف لماذا ينام الرجل مع المرأة في فراش واحد، يئنان ويتأوهان ثم يغادران الفراش بسرور. ما كنا نعرف سر هذا الأمر، لكن نيرانًا خفية التفت على قلبينا كاللبلاب. وذات يوم، كانت سنوات عمرنا قد ازدادت قليلاً، كنا في أرجوحتنا وكانت جدتي تعلف بقرتها، مدت ابنة عمتي يدها مثل قطاة إلى صدري، فتحت

سترتي الكلدانية وانحدرت القطاة رويدًا رويدًا إلى الأسفل ومن تحت الحزام استقرت القطاة بين فخذي وصارت ترعى هناك. سرى خدر لذيذ في بدني. ومنذ ذلك اليوم اكتشفت أنني ذَكَرٌ.

تدحرجت السنوات وما عادت الأرجوحة تلك تتسع لألعابنا الحلوة. فكنا نذهب إلى مخزن التبن أحيانًا، وأحيانًا إلى الاسطبل. كان جسدانا الشبيهان بصباحين ينفضان عنهما ضباب الثياب. وكانت ابنة عمتي تزداد جمالاً كلما تقدم الزمن. نبتت، عقب رعود ذكورتي، في صدرها كمأتان. وكم كانت تلكما التلتان الناريتان اللتان نهضتا في برية صدرها ناعمتين. أما عيناها فكانتا تهزأان بليالي الربيع.

- سأتزوج يا جدتي.
- الحمد لله فقد أصبح حفيدي بادين رجلاً.
- أتعرفين من هي حبيبتي؟
- الله وحده يعرف أسرار القلوب.
- إنها ابنة عمي.

تحولت جدتي في مكانها إلى أطلال صامتة. ثم وضعت يدها على فمها وقالت:«يامقصوف العمر، أيها الخائب. إنها أختك من الرضاعة. لقد رضعتها من ثدي واحد لمدة عام ونصف».

أصبحت كمن أريقت عليه مياه مثلجة. أصبحت حائرًا خائبًا مجنونًا هائمًا على وجهي. لكنني لم أحرم نفسي من تلك اللحظات القدسية، ولم أحترز من ذاك الحب الحرام. قلت في نفسي:«حتى لو كانت هذه الحال روث بقرة جدتي فسأمرغ نفسي فيها».

إلى أن جاء يوم أرسلتني فيه جدتي إلى بلدة دهوك:

«يا بادين لقد شاخت هذه البقرة مثلي ولم نعد نرى منها سوى الروث. لقد جفّت ضروعها. انظر إليها..تستطيع أن تعد أضلاعها. خذها إلى دهوك فلعلك تخلصنا منها. يقولون إن تجار الموصل هناك يشترون الحيوانات ليبيعوها للإنكليز.»

لم أكن على علم بما يخططه لي القدر العجوز.

كان ذلك في بداية الخريف. وعلى ضفاف الأنهار وأطراف الدروب كان الصيف ملقى كجثة هامدة. كنا نسير فقط أنا وبقرة جدتي ومن فوقنا طائرتا لانكاستر Lancaster إنكليزيتان. بقيت أكثر من أسبوع لكنني عدت دون أن أنجز المهمة.

هل بعت البقرة؟

لقد بدأت حرب شعواء.

وما دخل بقرتي بحروب العالم؟

يقال إن دائرة الحرب ستتسع، وإن أسعار الحطب ومواد التدفئة سترتفع. حينها سنبيع روث هذه البقرة.

لا أدري لماذا لم يكن قلبي ليهدأ وصورة ابنة عمتي لم يكن يفارق خيالي! كان الوقت مساء، جلست قرب شجرة التوت، كان ثمة عصفور حزين يحط لوحده على غصن الشجرة العارية مثل روحي المحطمة. سألت جدتي:«أين عصافير شجرتنا؟» رمت جدتي أنظارها صوب سماء فارغة وقالت:« يا بني إنها حيوانات الله تحط حيثما تشاء وترغب».

وابنة عمتي؟

سارت دمعتان في تجاعيد وجه جدتي وقالت لي بصوت لا يشبه الصوت: لقد جُنَّت.

غاص الألم في أحشائي وكأن شريانًا تقطع من قلبي. ابتلعتُ المرارة التي كانت قد تجمعت على لساني فانحدرت إلى روحي وبدون أن أسأل: «كيف؟» خرجتُ.

أجهشت جدتي بالبكاء وصاحت ورائي:«إنها في بامرني. ستشفى يا ولدي. لا أحد يعرف مالذي جرى لها. لقد استيقظت ذات مرة في منتصف الليل وصارت تصرخ. كانت تسأل باستمرار: ماذا فعلت يا بادو؟»

في تلك الليلة الخريفية أضاع النوم طريقه إلى عيني. جنرالات الحرب الإنكليز والفرنسيون والألمان أيضًا لم يذوقوا طعم النوم في تلك الليلة. كانوا يخططون لاحتلال مدن جديدة بينما كنت أنا حائرًا فيما سأفعله وإلى أية مدينة سأتجه! أي مكان سيضمني ويضم جراحي! كنت جنرال الحب اليتيم في تلك الليلة.

انكشفت السماء رويدًا رويدًا. مهدت العصافير التي باتت ليلتها على أغصان شجرة التوت ليوم جديد. خرجتُ من البيت دون أن أنتظر شروق الشمس. كانت النجوم تتناثر من السماء كحبات التوت نجمة نجمة. وما إن طلعت الشمس حتى صارت السماء مثل شجرة بلا ثمار. تركت العمادية وراء ظهري. غابت عن بصري مثل حلم. الهواء العليل الذي كان يهدهد الوديان، الطيور التي كانت تحوم في ذلك الصباح الحزين، النهر السكران، ضحكات ابنة عمتي تحت أشجار البلوط حينما كنت أدغدغها، ظلال الصخور الأسطورية، الشلال الذي لم يكن يملُّ من سرد حكاياته، تلك الصور والنقوش المرسومة على الصخور وعلى أبواب الكهوف، الآبار السبعة العتيقة، حفرة الثلج الذي لم يكن يذوب حتى قدوم الصيف، مصيف أُمراء بهدينان وعاصمتهم الشامخة، أشجار

الحور واللوز والجوز، جبال متين و گاره، بقرة جدتي، كتبي، الأبواب المغبرة، واللغات المتعددة التي كانت تتلاطم (العبرانية، العربية، السريانية، التركية والكرمانجية)، كل ذلك تركته ورائي. كنت أنا جنرال الحب المحرم ذلك الصباح ولم يكن بمعيتي سوى جراحي وانكساراتي وأحلامي المجهضة أجرجرها من خلفي. عقدت العزم على أن أتوجه إلى بامرني لكن خطواتي وجهتني إلى مكان آخر.

* * *

في نهاية الخريف من عام ١٩٣٩ كانت السليمانية مثل قدر تغلي على نيران الفكر القومي. وكانت رائحة البارود ما تزال تفوح من حجارة طاسلوجة ودربندي بازيان. ولم تكن الدماء قد جفت بعد هناك. كان صدى صرخة أبي قبيل مقتله يتردد مع نسمات كل فجر وكان الناس يقولون:

لقد شرب الشيخ محمود من هذا النهر.

حينما تم أسره أحضروه أولاً إلى هذا المنزل.

هذه رايته التي كان يلفها على ذراعه.

هذا الحرف من مطبعة كهف جاسَنه.

يوجد لدي طابع من أيام مملكته.

ريشة صقر من صقور صيده موجودة في جيبي.

وكان بعضهم يقول إنه وضع حذاء الشيخ أمام قدميه، كان لكل واحد من الناس ذكرى معه يرددها على مسامع الآخرين.

صديقي صادق بهاء الدين آميدي الذي كان مدرسًا لمادة الجغرافيا في

حلبجة، ساعدني كثيرًا. استأجرت بيتًا في وسط المدينة وصرت أبحث عن العمل. أصبحت عامل مقهى. كنت بهدينيًا وسط السوران وما كان الناس يتقبلونني سريعًا. هنا ضحى أبي بدمه أما أنا فأغسل الأقداح! كنت أذهب من طاولة إلى أخرى. وكانت المقاهي تنقل أخبار الحرب. أصوات جهورية تصدح بها الغرامو فونات تتحدث عن سير الحرب كل ساعة.

ذات يوم طلب شخصان شايًا حلوًا. كنت بالكاد أسمع صوتهما وسط ضوضاء المقهى. نظر أحدهما إلي مدهوشًا وسألني:

من أين أنت يا أخ؟

من العمادية.

ماذا يقربك يونس المزوري؟

إنه أبي.

رحم الله عظامه، لقد كان رجلاً نبيلاً. إنك تشبهه تمامًا.

كيف تعرفه؟

قبل عشرين عامًا ذهبت إلى العمادية في هيئة تاجر موصلي. اشترى أبوك عند قيصرية المدينة منديلاً، رأيت فيه سيماء بطل نبيل. حدثته عن الشيخ محمود. وفي صيف ذلك العام رأيته في دربندي بازيان أيضًا. كم كانت دماؤه التي نزفت قانية ذلك الفجر.

في تلك الأعوام لم يكن أحد يثق بالناس بسبب كثرة الجواسيس الألمان والإنكليز. وما إن يلقى القبض على جاسوس حتى كان يزج في السجون ويفقد كل أثر. كانت غالبية الكرد مناصرين لهتلر. كان الكرد يحبون الألمان نكاية بالإنكليز.

اسمي صائب هَوليري وهذا صديقي حَمه رَشيد.

وأنا بادين الآميدي.

هكذا تعارفنا.

كان تبغ سجائر الجالسين يحترق مثلما تحترق المدن والقرى الأوربية، مثلما كان قلبي يحترق. تصاعد الدخان كالأحلام فوق تلك الرؤوس المليئة بأفكار وتصورات متناقضة. أصبحنا أنا وذانك الرجلان أصدقاء. كنت ألتقي نادرًا بصديقي صادق بهاء الدين. حينما كانت حركة المقهى تخف ويقل عدد روادها كنا نجتمع لنتحدث عن البارزاني والشيخ محمود والحرب الكونية الكبرى. لم يكن ثمة سلكٌ جامع لخرز أحاديثنا. مضت عشرة أيام وجاء حمه رشيد لوحده. أمعنت النظر فيه فرأيت السيجارة في فمه وهي مطفأة، يحدق بصمت في كأس الشاي البارد أمامه:

- ما بك؟

- لقد اعتقلوا صائب هوليري.

- من اعتقله ؟

ومن يعتقل الناس في هذه البلاد سوى الإنكليز؟ قبل أن تأتي أنت للعمل في هذا المقهى جلسنا ذات مرة إلى هذه الطاولة فعمد صائب إلى نحت صليب معقوف على الطاولة. أنظر..

رأيت أثر صليب، لكن بدا أن هناك من حاول محو أثره. حاولت أن أواسي حمه رشيد فقلت بنبرة غضب:

ليت دبابات هتلر تدخل المدينة هذا اليوم.

* * *

أنا من ديرسم يا أخي. هل سمعت بهذا الاسم؟ إنه يعني باب الفضة

لكن الأوغاد غيروا الاسم وحولوه إلى تونجَلي. انظر كيف حولوا الفضة بحقدهم إلى نحاس! لكن دماءها لم تتغير. مازال الناس يحلفون بماء وضوء الشيخ سيد رضا. مازالت الحناء التي أعدتها العرائس لصبغ شعورهن في مواعينها لم تيبس. كان ذلك قبل عامين يا أخي. ثملت ديرسم وعقد الدم حلقات رقص في شرايين شبابها. كانت الجبال توقظ الجبال من النوم الأزلي. أما التاريخ فلقد نصب فخاخه وتعثرت به آلاف الأقدام العمياء. آه يا أخي كم كانت جميلة تلك الفخاخ! احترقت معًا الغابات والأدغال، الوديان، والقلوب والأحشاء. شبت النار في جبال ديرسم. أتعرف علي شير يا أخ؟ قطع ريبر رأسه كما يقطف المرء بطيخة. تأبط ريبر ذلك الرأس وذهب إلى الضابط التركي ليضعه أمامه. يقولون إن الرأس المقطوف - صدقني- بصق على وجه ريبر فامتلأت الغرفة بالبصاق، وقد باءت كل محاولاتهم لحفر سواقٍ ومدها إلى نهر مُنزور بالفشل. احتاروا في كيفية التخلص من ذلك البصاق حتى غرق فيه ريبر.

كان خريفًا بليلاً قبل عامين. وكان ثمة مطر لطيف كأحاسيس سيد رضا يهطل في ذلك الفجر. لم يستطع المطر أن يبلل حبل المشنقة المزيت. أدخل الشيخ سيد رضا رأسه المعمم في حلقةِ الحبل وهتف: إيييه يا جبال ديرسم وداعًا.

- رافقتك السلامة.

تردد صدى الأصوات الجريحة وتدلى جسد سيد رضا كعمود من نور.

قالت النساء والعرائس الديرسميات اللواتي وضعن الحناء على شعورهن: «لن نغسل رؤوسنا ما لم يعط سيد رضا الإذن لنا». لكنه لم يعطهن الإذن.

ألقوا بالمئات من الفتيات في نهر منزور. اصطبغ النهر بلون الحناء على مدى شهر كامل. كانت مناديل العرائس تطير في الوديان مع ريح الشمال كاللقالق ثم تلتف على الأشجار وتتمزق. إلى الآن تفوح رائحة الحناء كلما هبت الريح من جهة ديرسم. أنا اسمي ليس حمه رشيد. أنا حسين كانزاده. أتعرف ماذا تعني كنية كانزاده يا أخي؟ أنا سليل الدم. لقد حلفت أنا أيضًا في يوم الخضر(*) بين يدي شاهان آغا بَختيار. تناولنا لحم القربان هناك وغمسنا أيدينا في الدم ولطخنا به وجوهنا. آه يا أخي آه. إن انتفاضاتنا تشبه أشجارًا تظلل تحتها فقط. إنها حلقات رقص لعميان لا يعرف حتى الله من علمهم تلك الرقصات الطائشة.

الترك يلاحقونني. لقد أطلقوا كلابهم في بلاد الله ليتبعوا أثر رائحة الحناء. لقد قتلت ضابطًا وجنديين تركيين: كنت نازلاً من الجبل حين شاهدت أختي عارية تحت شجرة الرمان وقد انحنى عليها ضابط تركي وهو يخور مثل ثور عجوز. لا أدري كيف خطفت بندقية جندي وقتلته ثم صرعت الآخرين بها. كانت أختي غارقة في دمها. غسل الدم حناء شعرها.

كان حسين يحدثني كل ليلة عن مدينته ديرسم. كان يضع قليلاً من الحناء على تبغ سيجارته ويدخن فتفوح منها رائحة عجيبة. كان يحتسي الخمرة أكثر من الماء: «فلتفح رائحة الخمر. قتلني الحناء».

وعندما كنت أقرأ له قصائدي، كان يهز رأسه قائلاً: «دعها.. الانتفاضات والدماء لم تفعل شيئًا فما الذي ستفعله أقاويلك؟» ثم يجرع كأسه بجرعة واحدة.

(*) من أعياد الكرد الزازية.

أتعرف ما هي الخمر؟ إنها أنين الكروم، ودموع العناقيد.

كان يقول ذلك وينخرط في البكاء.

هل رأيت كيف يتناثر الحناء عن ضفائر العرائس؟ إنه يتساقط نتفة نتفة. ولقد رأيت بعيني هاتين اللتين لم تريا السرور ثلاث فتيات في نهر منزور وقد علت مناديلهن الماءَ. كانت تلك المناديل ملطخة بالأحمر. أكان ذلك دمًا أم حناء؟ لا فرق.

كان يقول ذلك ويترنم بأغنية لم أكن أفهمها:

لقد تناولت معك قربان يوم الخضر

فلا تقلل مروءتك يا صاحبي

لقد رضعنا سوِّيةً من ثدي تلك المرأة.

لقد كان سيد رضا ذاتًا قدسية يا أخي. وحين وقف أمام المشنقة، توجه للسماء الصماء ونادى: «إلهي فلتحضر إليك مصطفى كمال أتاتورك سريعًا حتى أحاكمه». ولم تمض سنة حتى مات أتاتورك.

ذات مساء لم يعد صديقي الديرسمي إلى البيت. لم يكن له أثر في المقهى أيضًا. بحثت عنه في الأزقة وتتبعت أثر الحناء. كنت أصادف فتيات برؤوس ملفوفة بمناديل محناة، كنت أصادف حقائب ممزقة وألتقي برياح ديرسم. فقدت الأمل في العثور عليه إلى أن دخلت المقهى عرافةٌ عجوز. جلست أمامها وقلت :« افتحي لي فألاً». حملت العجوز فنجاني المقلوب، تأملته ثم قالت:« امنح العجوز قليلاً من المال حتى تبين لك الفال». منحتها فلسين فحدقت في قعر الفنجان وصارت تقول:«كل مدينة تقيم فيها تكون مقبرة لحبك. آه لقد اشتعل قلبك. واحترقت ثلاثة أرباع شمعتك. صاحبك العزيز هارب، سيكون موتك في الجبال.

انظر فإن فألك واضح كالفجر. إخشَ البدر إذا اكتمل. وإن كنت لا تصدقني فاسأل عرافة أخرى».

ثم أدنت العجوز الفنجان من وجهها وصاحت فجأة:

ماذا تفعل الحناء في قعر فنجانك؟

* * *

كان عام ألف وتسعمائة وتسعة وثلاثين ينحدر نحو القبر وبولونيا تُسحق بين أنياب النازيين. كان هتلر يهيء نفسه لاحتلال باريس وجعلها في جيبه. وكان الناس في السليمانية يقولون:« سيأتي الألمان إلى العراق. لقد نبعت آبار البترول في أحلام هتلر». ازداد معارفي يومًا بعد يوم وكانت العمادية تلمع في خيالي مثل جمرة ثم تتحول رويدًا رويدًا إلى رماد.

وذات مساء جاء صادق بهاء الدين إلى البيت يزورني، شكوت له قلة تردده علي فتحجج بتدريسه ثم فرش أمامي جريدة:

أنت تكتب الشعر. ها هي جريدة ژين فاكتب فيها.

كانت سعادتي كبيرة تلك الليلة. قلبت صفحات تلك الجريدة بحماس. لم أكن أفهم كثيرًا لكنني قرأت بشغف مقالاتها وقصائدها. كنت أحب جريدة هاوار أكثر.

* * *

كان المقهى يعج بالرواد. وبسبب الدخان لم يكن أحد يرى أحداً. كانت الضوضاء كثيرة وكأن ما يجري هناك حرب الصحراء المصرية أو خلية نحل. لمحت في إحدى الزوايا صادق بهاء الدين: بادو، بادو.

وضعت الطبق من يدي وذهبت لأجلس بجانبه. كان معه رجل في أواسط العمر، عرَّفه علي وهو يضرب يده على صدري:«هذا بادين الآميدي» ثم أشار إلى الجالس معه وقال:« وهذا هو الأستاذ نوري أمين مسؤول جريدة ژين».

تصافحنا ثم تجاذبنا أطراف حديث متقطع. أتذكر أن نوري أمين سألني:«ماذا تعمل هنا؟» فأجبته:« أنا عامل مقهى يا أخي. وماذا بوسع بهديني أن يعمل بين السوران؟»

ذلك اليوم دعاني نوري مع صادق إلى إحياء ليلة رأس السنة فقلت لهما إنني أسكن وحدي ومن الأفضل أن تأتيا إلي واتفقنا على ذلك.

شهدتْ ليلة رأس السنة هطول ثلج خجول. كانت شوارع السليمانية صامتة وكنت جالسًا في غرفتي الصغيرة أنتظر ضيوفي وأترقب الشارع الذي كان يبدو مثل صفحة بيضاء أمام كاتب مهمل. كانت ساعة أبي من نوع سركيسوف والتي أحضرها معه من قارص تشير إلى التاسعة تمامًا. سمعت طرقًا خفيفًا على الباب ولما فتحته وجدت مجموعة من الشباب بصحبة فتاة. بادر صادق بهاء الدين بعد أن دخل الجميع إلى تعريفي بالضيوف. كدت أن أغيب عن الوعي، أصبحت أخرس. أيمكن لفتاة أن تكون بهذا الجمال؟ يا إلهي من أية خيوط نورانية نسجت يشرة هذه الحورية الرقيقة؟

– هذه جاله، موزعة جريدة ژين. قال نوري.

– موزعة ژين(*) وتقتل المرء! قلت بصوت نصف مسموع، لكن نوري كان ينصت إلي فقال: «وحده الله قادر على ذلك».

قالت جاله وهي تبتسم وتمشط جدران غرفتي بنظراتها الإلهية:«تفوح

(*) ژين: تعني بالكردية الحياة.

من غرفتك رائحة الحناء».

- هذه رائحة ديرسم. أجبتها

كيف سأنسى تلك الليلة؟ فتاة بذلك الحسن لا ينساها الحمير أيضًا. كانت جاله في خضم ذلك الظمأ جرعةً من ماء، كانت في أتون تلك النار مصيفًا باردًا، لقد كانت في ذلك التيه نجمة ساطعة. تركت عملي بعد أن حصلت منه على بضعة دنانير وأصبحت أنا أيضًا من موزعي ژين.

بادين أنت تكتب شعرًا جميلاً، لكن للأسف أُلْغِيتْ جائزة نوبل لهذه السنة.

الحرب الكونية أنست الناسَ فعلاً الأنشطة الرياضية وجائزة نوبل واحتساء خمرة بوردو، لكنني لا أعلم هل كانت جاله تسخر مني أم أنها كانت فعلاً معجبة بقصائدي! كانت تقول: «إنني أحب هذا النوع من القصائد، إنها طليقة حرة تطير كيفما تشاء، لكنك تكتبها للأسف بالكرمانجية والأحرف اللاتينية».

سأكتب لأجلك بالسورانية أيضًا، سأكتب حتى بلغة الغيوم والأنهار والطيور. أنا وقصائدي تحت أمرك. سأكتب قصيدة بدمي أيضًا.

لم أضعف أمام أي إنسان ولم أبق حائرًا كما كنت معها. إنها لم تكن بشرًا فهل كانت جنية، حورية، أم ملاكًا؟ لا أعرف. كانت شفاهها تهزأ من القرنفل الأحمر، ضحكتها رقص الياسمين، ولأنفاسها رائحة زهور التفاح، أما عيناها...لا..قلمي أخرس أمام تينك الجرتين من العسل، ونهداها....

رويدًا رويدًا كان حبها ينمو في صحراء قلبي مثل عشب عقب مطر ربيعي. نسيت العمادية وغاصت ابنة عمتي إلى أعماق بئر الذاكرة.

ذات يوم، بعد أن نال التعب منا نحن الإثنين، وبعد أن وزعنا خمسين جريدة، قادتنا خطواتنا الخائفة إلى غرفتي الباردة بينما كانت الريح التي تهب من جهة پيرمگرون تشلُّ وجهينا كوخز الإبر.

- ابقي الليلة عندي. قلت لها برجاء.

- هل سنشرب. سألت.

- نعم.

- ماذا؟

- الويسكي.

تلك الليلة طرت في سماء حمراء. سبحت في عسل جسدها الناعم. جُنَّت شفاهي وأصابعي ليلتئذ.

- يكفي بادين. لقد قتلتني.

- لا يكفي.

- ألى هذا الحد أنت ظامئ؟

- لست ظامئًا، بل أنا الظمأ ذاته.

حضنتني وقالت:« أنت لي».

- نعم. «أنا لك ما حييت وإذا مت فللأرض الباردة» كما تقول الأغاني.

نامت جاله على وقع قراءتي لقصائدي. كان لأنفاسها رائحة أزهار الكرز والكمثرى، شعرها كان كنزًا من الذهب منثورًا على الوسادة، أما جسدها فكان نهرًا من الحليب سال في فراشي. دفنت مرارة أيامي في حضنها. اشتعلت الجدران من قبلاتنا الحرّى. كانت تلك الليلة جحيمًا

من نار ألذ من الفردوس.

كانت شفتاي حجلين ينقران ذلك الجسد الشبق وأصابعي ثيرانًا مجنونة تحرث صدرها الناصع كثلوج قره داغ.

رددت على مسامعها:

يسيل الربيع تحت قدميك

حتى إذا دخلت قاموسًا

فإن الكلمات تطير كالعصافير

في المساء

وتحط سربًا وراء سرب على روحي

لتصبح قصيدة.

قل يا بادين فكلماتك ألذ من مناغاة الأمهات.

لا يا جاله. كلماتي عقيمة أمام حسنك. وحتى پيرميرد لا يمكنه وصف جمالك.

صباحًا، حين استيقظنا من النوم، بكيت من فرحتي: أن تزورني في السليمانية فتاة حرة وتشرب معي الويسكي ثم تشعل ثورة على سريري! شيء لا يصدق ولا يحدث حتى في الروايات. عانقتني جاله وسألتني: «لم تبكي؟»

– أخشى أن يكون ما حصل منامًا.

– وحتى لو كان منامًا لن تندم. أنا لك يا كُرمانجي. ثم قرصتني من فخذي فقفزت من الألم. أطلقتْ ضحكة مجلجلة وقالت: « أرأيت؟ لم يكن حلمًا ».

* * *

الليل خنجر أسود يغوص بوحشية، يغوص بلطف في هذا القلب النائم. ضوء جريح تنزفه النجوم الناعسة، ودرب التبانة

يلوح مثل حلم مرمي في السماء. الفجر يئن معلقًا وأنا أعصر النجوم بعيوني التي تتدلى منهما عناقيد كروم النعاس لكي أضيء أحلامي المجهضة. هاهو قلمي يغالبه النعاس فينام في أحضان أناملي.

.كلما تستضيف أصابعي القلمَ، تسيل منه إحدى الذكريات المشتعلة فيحترق القلب مثل حبة كستناء. لا تسألوني إذًا لماذا تفوح رائحة الرماد من صفحاتي؟ ها قد بلغت ليلتي اليتيمة منتصفها. ذكرياتي لا تفسح مجالاً لعيني كي تناما بهدوء. موتي يقترب. إن عرافات جبل سنجار لا يكذبن. إنهن يرين المستقبل بمنظار الله. إنهن يرين المستقبل وكأنهن ينظرن في مرآة أو في كأس جمشيد. أريد أن أبسط حياتي على هذه الصفحات السكرى تمامًا مثلما ينشرون عنب الخريف في ساحة كرم.

بادين هل مازلت تحب جاله؟ سألتني مُجْدَه هذا السؤال صباح اليوم، فأجبتها:

لا أحد يحب الجراح.

لكن يبدو أنك ترى لذة في هذا الجرح.

لا تسألي يا مُجْدَه عن ألم الجراح من الخنجر بل اسألي الجرح كم الخنجر مؤلم.

إنني أسرد حكاية جاله على مسامع مُجْدَه قليلاً قليلاً. علي أن أزيح هذه الصخرة الثقيلة عن قلبي. سبع سنين والقلب يحترق، سبع سنين والجرح مشتعل، سبع سنين وهذا الحب لا ينام والحكاية تختمر. سوف أطفئ هذا اللظى بمطر الكتابة.

ذات يوم كنت واقفًا أما باب المدرسة الابتدائية وفي يدي نسخة ملفوفة من جريدة ژين حين صادفت شابًا ابتسم في وجهي وقال: «مرحبا بادين».

أهلاً وسهلاً. من أين تعرفني؟

- أنا شوكت الجاف. صديقك حسين أخبرني عنك.

- حسين الديرسمي؟

- أجل. رأيته قبل يومين في الموصل. كان يحمل حقيبة من الحناء ويتهيأ للسفر إلى ديرسم. كان يقول« ديرسم بقيت بلا حناء».

وقد دعاني شوكت الجاف هذا إلى اجتماع من اجتماعات «هيوا» ذات ليلة.

قال حسين الديرسمي ذات مرة:« السياسة كالمرأة لن تفهمها إلا إذا عريتها». وليلة دعاني شوكت إلى الاجتماع شعرت بنفسي عاريًا. «كيف تعيش بدون تنظيم؟» سألني المجتمعون. بعد ذلك أصبحت عضوًا في حزب هيوا وانضممت إلى الصراعات المحتدمة بين هيوا و منظمة براتي. كنا نسخر من بطن الشيخ لطيف البرزنجي، بينما كان أعضاء منظمة براتي يسخرون منا جميعًا وينعتون حزبنا بأنه حزب الأفندية. جرت مشادات مريرة جدًا بيننا وبين الشيوعيين أيضًا. كان ثمة شيوعي يقول لي دائمًا:«أنت لم تقرأ أفكار ستالين. أنت بحاجة إلى ألف سنة ليشتغل دماغك». كانوا يقولون لنا:«أنتم شوفينيست». لم يكن البعض قد سمعوا هذه الكلمة، فكانوا يغضبون ويقولون:«كفارٌ قذرون ويقولون لنا شوربه نيسك(*)! أي روث أنتم إذًا؟».

(*) بالكردية يعني حساء العدس.

في حزب هيوا نفسه كان ثمة تياران مختلفان وكنت أنا مع التيار اليساري. لكن «هيواي» الحقيقية كانت جاله. كنت عضوًا في عشق غادرٍ في السليمانية. كانت جاله تغيب عني لأيام عديدة وكان قلبي يتألم مثل سمكة خارج الماء. كنت أبحث عنها في كل مكان وأسأل الشوارع عنها، والقمر والنجوم الناعسة، كنت أسأل عنها أسراب الكراكي المهاجرة في عتمة الليل، ونظرات الناس. كنت أتحرق شوقًا لأعرف في أي برية ترعى هذه الغزالة. كان ذلك الحب الذي أصاب قلبي مثل صاعقة شيئًا لا يصدق. كانت جاله تظهر فجأة وتمطر علي مثل غيمة ربيعية فأسألها في انكسار: «أين كنت يا جاله؟».

- في قلبك.

- يا قرنفلتي، أنت لا تغادرين قلبي. لكنني أريدك أمام ناظري. عيناي لا تشبعان منك.

- ستبقى في جوعك الأبدي.

- أتحبينني يا جاله؟

- كيف ترى؟

لم تكن تقول أبدًا: «أنا أحبك»، بل كان جوابها دائمًا: «كيف ترى؟». لكنها حين كنا نلتقي، كانت تزرع جسدي بالقبلات وتعضني إلى حد الجنون، كانت تكاد تأكلني نيئًا وكنت أقول لنفسي: «إن لم يكن هذا حبًا فماذا يكون إذًا؟».

* * *

في شهر حزيران من عام ١٩٤٠، كنت في السليمانية وكانت جهنم تتثاءب في ذلك الشهر حتى أن الطيور كانت تتساقط من السماء لشدة

الحر. لم تكن وحدها ثمار التين والتوت قد نضجت، بل القلوب أيضًا. أما أوربا فقد سُحِقَتْ مثل إجاصة في يد هتلر. وكانت الخلافات الناشبة بين جناحي هيوا قد تعمقت أكثر:

- في هذه الظروف لا يمكننا معاداة الإنكليز.

- لن تأتي ظروف أفضل من هذه. الإنكليز مشغولون بهتلر. إنها فرصتنا.

وحين دخل النازيون باريس تبادل الناس التهاني بذلك. صادفتُ جاله حزينة:

- مالذي جرى يا حبيبتي؟

- ألم تسمع؟ لقد ذهبت باريس.

- فلتذهب لندن أيضًا معها. حبنا عاصمتنا.

- أنت مجنون يا بادين. إذا جاء الألمان إلى هذه البلاد فلن يبقوا حجرًا على حجر.

- وكم حجرًا بقي على حاله بفضل الإنكليز؟

- الإنكليز يحمون العراق.

أدركت أننا نكاد نتشاجر في سبيل الإنكليز والألمان، فقلت: «ما رأيك أن نذهب إلى دربندي بازيان؟».

- وماذا نفعل هناك؟

- أريد أن أشاهد الأرض التي شهدت مقتل أبي فربما أصادف روحه هناك.

بعد ساعات وصلنا إلى هناك. كانت أزاهير الأقحوان والبابونج

والحندقوق قد عقدت حلقة رقص. بينما أطلت كثير من الأزاهير برؤوسها من شقوق الصخور وكأنها تسترق النظرات في ما حولها. كانت رائحة البارود ما تزال تفوح من الصخور. بينما كانت رائحة التبغ الذي استهلك في تلك المعركة تفوح من التراب. جلسنا أنا وجاله في ظلال صخرة وقطفتُ زهرة أقحوان. أشارت جاله بيدها إلى صخرة في الأسفل وقالت: «أتعرف ماذا تسمى تلك الصخرة يا بادين؟ إنها بَرْدي قارَمان أي صخرة البطل، فهناك أصيب الشيخ محمود بالجراح ثم تم أسره. يقولون إنه دخن ثلاث لفافات من تبغ كويسنجق وهو يغالب ألم جراحه دون أن يسمع أحد ولو أنة واحدة منه».

- هل فهمت الآن لماذا أكره الإنكليز؟
- زعيمك رفيق حلمي يحبهم.
- وأنت؟
- أنا لا أكرههم.

عانقتني فجأة من الخلف وقالت بدلال: «أنت حزبي الذي أنتمي إليه». التفتت ورائي فتصادم أنفانا والتقت شفتاي بشفتيها السكريتين، أنفاسها التفاحية قادت خيالي إلى جنة خرافية، نظرات عينيها دوختني فتدحرجنا سوية حتى أسفل تلك الصخرة الصماء. هبت علينا عاصفة الشهوة فصارت أزاهير الله تئن تحتنا وانقذفت زهرة الأقحوان التي كانت في يدي بعيدًا عنا. كنا عاريين في ذلك المضيق العاري تحت سماء عارية.

هبت نسمة رخية من الغرب فخلدت جاله إلى النوم. ارتديت ثيابي وحملت تلك الأقحوانة: «تحبني. لا تحبني. نعم. لا. نعم. لا. نعم. لا..» سقطت الورقة الأخيرة مع كلمة «لا». كانت جاله مغمورة بالأزاهير.

تجولت قليلاً فلمحت شيئًا يلمع هناك.

علبة فضية! انحنيت عليها. كانت سيجارة بقربها. نصفها كان رمادًا ونصفها ورقة ملفوفة. حملت العلبة التي كانت ممتلئة بالتبغ فوجدت عليها كتابة تشبه السريانية. رأيت داخل العلبة سيجارة لطيفة ممددة كجثة على التبغ، فأشعلتها ثم ألقيت بالعلبة في جيبي.

في مجالس الرجال في العمادية كانوا يتحدثون عن تبغ أتروش، لكن بعض الرجال كان يحتد ويقول:« التبغ تبغ كويسنجق. ماعداه روثٌ». خلال الحديث كان يتناهى صوت عجوز مصفر الشاربين:«تبغ الدنيا في خُرس(*)، هناك ينبت التبغ في كف المرء وينمو على وقع الآهات ثم تتيبس أوراقه على وقع تنهدات العشاق وتحت حرارة الشمس. سيجارة ملفوفة من ذلك التبغ نار تشعل هشيم الهموم. ما هو التبغ أصلاً؟ إنه أنفاس الله بلا شك».

حين دنوت من جاله دهشت لمرأى آلاف الفراشات الملونة وهي تغطي جسدها. وما إن شعرتْ بدبيب خطواتي طارت ثم حطت على الأزهار القريبة. قالت جاله مبتسمة:«بادو. لقد رأيت في المنام أنني نرجسة وأن النحلات يمتصن رحيقي». قلت لها:« لا يوجد نحل سواي ولن أسمح أن يكون». وعندما لمحت الأقحوانة المتوفة في يدي سألت ضاحكة:«ماذا قالت أقحوانتك؟».

- قالت لا.
- وأنت صدقتها؟

هكذا أخبرتني الأقحوانة. أزاهير الله لا تكذب.

(*) قرية مشهورة بجودة تبغها في كردستان تركيا.

وماذا تسمي الذي فعلناه قبل قليل يا بن هيوا؟

* * *

لم أكن أريد لأحد من الرفاق أن يعلم بقصة حبي. كنت أتحاشى النظرات. لكن محاولتك أن تخفي الحب تشبه أن يمد لص يده إلى دجاجة ويخرجها من القن دون أن تقأقئ. يُمكن إخفاء قاتل عن أعين الحكومة لكن الحب لا. إنه يُزرع في القلوب وينبت في الأعين. وفي عيني لم ينبت فقط الحب، بل عقدت غابة من الحب حلقة رقص في قلبي.

ذات مرة، أعطيت نوري أمين هذه القصيدة لنشرها في جريدة ژين:

صدرها البض مثل كرم عنب

دخلته مثل لص

سرقت عناقيد كثيرة

وعضضتها حبة حبة

ضحك نوري وردد« مثل لص» ثلاث مرات ثم قال: « العشاق أصلاً لصوص يا أيها المتيم».

- ماذا؟
- اعترف يا بادين. أنا على علم بكل شيء.
- ماذا؟
- جاله!

* * *

بان الفجر وتوضحت ملامح السماء. بضعة عصافير تزقزق بخفوت

على الجدران العارية الواطئة للمنزل. ريح الشمال التي كانت تزأر طوال الليل لم تُبقِ على غيمة واحدة في السماء. في منفضتي تصطف عشر لفافات مطفأة. لم أنتهِ بعد من قصة جاله. أيمكن للشمس أن تنتهي من الشروق؟

أشرقت الشمس.

* * *

الأول من آذار ١٩٤٦. مهاباد

المصور الذي جاء اليوم إلى المدرسة، عجوز أرمني. اسمه نوبار نالبنديان. لا أدري لماذا كان يحدق في كثيرًا! وكأنه يبحث في أزقة وجهي وشوارعه عن أحد أقربائه الضائعين. لم يزغ بصره عني وسأل من بين كل المدرسين عن اسمي أنا حتى أنني شككت في أمره. ترى أليس هذا جاسوسًا؟ كان يحدق في باستمرار إلى أن قال لي:« إن كان لديك وقت فأرجو أن تزورني غدًا في الاستوديو». أعطاني عنوانه ثم حمل كاميرته ال«كوداك» وخرج من غرفة المدرسين حزينًا.

* * *

يقع ستوديو نوبار نالبنديان في القيصرية بعد ميدان آسنكَران. عليها لوحة سوداء صدئة مكتوب عليها بأحرف فارسية وأرمنية عبارة «عكاسي وان». في واجهة الاستوديو صورة لقاضي محمد بلحيته الخفيفة. كنت قد مررت عدة مرات بجانب الواجهة دون أن تلفت الصورة نظري كما لم يخطر على بالي أن ألتقط صورة. كانت بجانب الاستوديو حانوت يشبه القبر يجلس فيه عجوز قصير القامة بلحية مدورة وعينين صغيرتين يعتمر قبعة. كانت أمامه بكرات من حبال مختلفة: من النايلون، من القنب

والقطن، حبال رفيعة، غليظة، قصيرة، طويلة، بلون واحد، بلونين إلخ.

اليوم وخلال ذهابي إلى الاستوديو توقفت قليلاً في الحانوت وسألت البائع العجوز: «ماهذه الحبال يا حجي؟»

إنها تصلح لتصبح رسنًا، كذلك فهي تصلح لربط أحمال الحطب ولتقييد حمير القرويين بأعمدة الشوارع، إنها تصلح أيضًا لأجل مهود الأطفال وأراجيحهم، وكذلك لتقييد المجانين وإخراج المياه من الآبار وكذلك لأجل.....

شنق المجرمين!

أنت ما تزال غرًا يا عزيزي. أنت لا تعرف أنه يمكن للأوطان أيضًا أن تُعَلَّقَ بثلاثة أذرع من الحبال!

كان نوبار جالسًا خلف طاولة واطئة مغطاة بالزجاج. تحت لوح الزجاج كان ثمة صور لأناس كثيرين أصادفهم في الشوارع والأزقة. حينما لمحني انتصب واقفًا ثم أجلسني بجانبه. ارتسمت على وجهه الأشقر ملامح ابتسامة عجوز وقال:

- أنت لست من مهاباد أليس كذلك؟

- وكيف تعرف؟

- صار لي خمسة وعشرون عامًا في مهاباد. لقد حفظت وجوه المهاباديين وجهًا وجهًا عن ظهر قلب. حتى أنني لو رأيت أحدهم يوم الحشر فسأعرفه. يأتيني يوميًا بضعة أشخاص منهم لألتقط لهم بهذه الكاميرا صورًا. آغوات، طلاب مدرسة، ملالي، وفقهاء. وحدهن النساء لا يأتين إلى هنا لأن الكاميرا ستفترسهن.

ضحك قليلاً ثم أردف قائلاً:

يبدو أن وجهك لم يرتوِ جيدًا من ماء مهاباد. وحين رأيتك بدأ دمي يغلي. لا أدري ما الذي جرى لي أيها الأستاذ العزيز؟

أخرجت علبة تبغي واستفسرت:« هل تدخن؟ هل ألف لك سيجارة؟». حين لمحت عيناه العلبة الفضية فغر فاه دهشة ثم خطف العلبة من يدي فتناثر التبغ على الطاولة واختفت الصور تحت منثور التبغ وسأل بعصبية:

- من أين أتيت بهذه العلبة؟
- اشتريتها من السليمانية.
- هذه علبتي.

قالها وأخرج نظارته من جيب سترته بسرعة ودقق النظر في الكتابة التي على العلبة وهو يقول:« كانت هذه علبتي. أهديتها لأحد أصدقائي قبل اثنين وثلاثين عامًا. كنا سوية في جبهة ساري قاميش. لقد حفرت اسمه بالحربة وبالأحرف الأرمنية هنا. أنظر! أنا هربت والتحقت بالروس أما صديقي المسكين فقد قتل. آه كم كان المرحوم يونس الآميدي يدخن».

صعقتني المفاجأة! أيعقل أن تكون هذه العلبة علبة أبي؟ قلت له.«اسم أبي يونس. وهو أيضًا من العمادية وكان في جبهة ساري قاميش. لكنه لم يقتل هناك».

- وماذا جرى له؟
- هرب من العسكرية.

جمع نوبار ما تناثر من تبغ على الطاولة بيد مرتجفة، لف سيجارة وبلل أطراف الورقة البيضاء ثم قصقص ما تبلل بعضات خفيفة. وبعد أن سحب نفسًا طويلاً قال دون أن يخرج الدخان من صدره:«حتى الورق

هو نفس الورق. والتبغ هو هو. إنه تبغ خُرْس. أعرفه».

رويت له قصة أبي من بدايتها إلى النهاية.وحينما عرف أن اسم أمي هاميست انخرط في بكاء لا أقدر على وصفه. لم يكن ذلك بكاء بقدر ما كان خوار ثور عند ذبحه. اجتمع علينا أصحاب الدكاكين المجاورة ودخل بائع الحبال قبل الجميع ثم أسرع آكوب صاحب محل الخمر بالدخول وسأل:«ماذا جرى؟». قلت بلا مبالاة:« لقد التقى جدٌّ بحفيده». لم يفهم آكوب عبارتي فتوجه إلى نوبار -لأقل إلى جدي- وتحادثا بالأرمنية. كان جدي يمسك برأسي ويقبلها ويقول من خلال موجة البكاء:« بادين حفيدي يا آكوب! إنه ابن هاميست!».

تركنا العجوز بائع الحبال وغادر الاستوديو ويده وراء ظهره وهو يتمتم:

لقد جُنَّ نوبار الأرمني. ولو أردتم تقييده فتعالوا وخذوا له حبلاً.

* * *

جدي أنترانيك -الذي كان قد اتخذ لنفسه اسم نوبار- سرد حكايته بهذا الشكل:

حينما انهزم الجنرال العثماني أنور باشا في معركة ساري قاميش، هرب جنوده في كل الاتجاهات واختفوا مثل النجوم حين تشرق الشمس. قبل ذلك كان الجنود الأرمن قد هربوا جميعًا وانضموا إلى القوات الروسية. كان العثمانيون يتعمدون إرسال الجنود الأرمن إلى الجبهات الساخنة والبعيدة. كانوا يفصلونهم كقطيع أجرب عن بقية جيشهم. كان أنترانيك واحدًا من أولئك العساكر الذين سلموا أنفسهم للجيش الروسي وشارك الروس في الهجوم على القرى والبلدات الكردية وهم يقتلون

المدنيين بحقد أعمى. قتلنا في رواندوز خمسة آلاف. كنا نستخسر الطلقات في قتل الكرد فصرنا نرميهم أحياء في نهر رواندوز. كنا نقتل الناس بحراب البنادق.

زحف الجيش الروسي من الشمال مثل نمل يخرج من مساكنه بعد هطول المطر. كان جنوده متجهين صوب أرضروم بينما كان الجنود العثمانيون ينتظرون أقدارهم السوداء عن ساري قاميش. كانت أسنانهم تصطك من البرد بينما كانت الثلوج تهطل بغزارة شديدة وكأن لها ثارات مع الأرض. إنها لم تكن ثلوجًا بل إن الطبيعة كانت قد أصيبت بالجنون وصارت مسعورة. بدت السماء وكأنها تريد الانتقام من تلك الحرب وتسعى لكي تطفئ نيران المدافع بنتف الثلج. أخفى الجنود رؤوسهم مثل اللقالق بين أكتافهم. لم يكن بإمكانهم وهم خلف تلك المدافع والمتراليوزات، في تلك الخنادق ووراء تلك المتاريس الرملية، أن يمسحوا العرق المتصبب منهم. لم يكن ثلجًا ذاك الذي كان يهطل بقدر ما كان لوحة رسام مجنون رشق القماشة البيضاء بيد مرتعشة وبفرشاة مشبعة بلون الدم. لا لم يكن ثلجًا ذاك الذي كان يهطل يومذاك.

تساقط الجنود كأوراق بائسة من أشجار الجيوش. الأرجل المقطوعة والأيدي والأشلاء والرؤوس الطائرة تناثرت على الثلوج وبدت مثل جذوع أشجار محترقة. مات الآلاف بردًا وتجمدت أوصالهم.

هناك كان جنديان يسند أحدهما الآخر بظهره، الأول كان يلف لنفسه سيجارة والثاني يترنم بأغنية أرمنية:

عالية هي جبال مَرَتو

يعلو الثلج ذراها

قلبي ممتلئ دمًا

آه ليتني طرت ووصلت إلى حبيبتي

حبيبتي.. حبيبتي

لي فاتنة وحيدة

ما به خيجو غاضبًا؟

وقد انتفخت أوداجه

وامتلأ صدره

وانتصبت شواربه؟

ذانك الجنديان كانا يونس الآميدي وأنا أنترانيك جدك ووالد أمك يا بادين.

* * *

يونس: (يمد سيجارة لأنترانيك) تفضل يا كريف. هذا تبغ أرتوش. أدفئ عظامك به.

انترانيك: (يقطع أغنيته) دعك مني يا إبن أخي. ألا ترى أننا نحن أصبحنا تبغًا في غليون أنور باشا!

يونس:(ينفث سحابة مديدة من الدخان) وما دخل أنور باشا؟

أنترانيك:(يقوم ويشحم بندقيته) أريد القول أننا أصبحنا وقودًا في هذه الحرب. نحن نحترق وغيرنا يتدفأ.

يونس: (فاغرًا فمه) كيف؟

أنترانيك: سأسألك سؤالاً: لماذا أنت هنا؟

يونس: لقد جئت من تلقاء نفسي. كنت طالب علم. والدولة لا ترسل طلاب العلم إلى الحرب. لكن جهاد الكفار فرض.

أنترانيك: أنت مسلم أليس كذلك؟ القضية ليس قضية جهاد يابن أخي. ها أنذا مسيحي وأحارب إلى جانبك. لماذا؟ نحن الأرمن ندفع الضرائب والمكوس للدولة. أليس من المفروض ألا يزجوا بنا في الحرب؟ ألا ترى العثمانيين وكيف أن الألمان يدعمونهم؟ أنظر كم من الأطباء الألمان يعملون في فيلقنا هذا؟ ماذا يفعل برونس آرت شيلندورف هنا مع العثمانيين؟ أليس الألمان كفارًا أيضًا مثل الروس؟ «يتنهد طويلاً» هات تبغك هات. لقد أثرت شجوني.

يونس: أقسم بنبينا محمد ومسيحكم أنني سألف لك سيجارة.(يلف السيجارة ويغني):

هذا التبغ الفاخر كالمسك

يدخنه الأمراء والملالي

والذي يقول إن التبغ بلاء

لا يعرف معنى اللذة

انترانيك: «ينظر إلى جهة وان»: آآآآه يا ابن أخي آه. لقد فعل هؤلاء الترك بنا الأفاعيل. يقال إن بحيرة وان تشكلت من دموع العشاق أما أنا فأقول لا بل إن البحيرة تشكلت من دماء الأبرياء. لقد رأيت الرؤوس المقطوعة بعيني. هل الإسلام دين متعطش للدم إلى هذا الحد؟

يونس: ومن قال ذلك؟ لقد سمعت بأذني الشيخ بهاء الدين في بامرني يقول إن قتل إنسان بريء مثل قتل الناس جميعًا. كان يقول إن الله تكلم بهذا القول في القرآن.

أنترانيك: فلتقس بهذا الميزان إسلام تركيا الفتاة وعمك أنور باشا!

سافر يونس بخياله إلى سنواته الماضية حين كان واحدًا من فرسان مير رشيد البرواري. شارك في ثلاثة عشر معركة شرسة مع التياريين وكانت كراهية المسيحيين قد تغلغلت في قلبه وعششت فيه. لكنه بتعرفه على أنترانيك استيقظ من غفوته وفتح عينيه على حقائق جديدة. كان أنترانيك يقول له.« يا كريفي. العثمانيون يريدون ترقيع ثياب امبراطوريتهم المهترئة بإبرة من عظامكم وخيوط من لحومنا. لكن هيهات هيهات. إن هذه الإمبراطورية قد أضحت ثورًا عجوزًا يترقب الأوربيون الحصول على جلده». أحب يونس أنترانيك كثيرًا. ويومًا بعد يوم ذابت الكراهية المعششة في قلبه مثل قطع الثلج التي تتعرض لشمس نيسان. أنترانيك بدوره أحب يونس فأهداه علبة تبغه الألمانية وحفر بحربته عليها اسم رفيقه الكردي المسلم: «يونس الآميدي».

* * *

«لم نُبق حجرًا على حجر في تلك المدينة»

هكذا يسرد جدي أنترانيك الوانلي (نوبار نالبنديان) حكايته، هكذا يريق ثلاثين عامًا من حياته كالفودكا:

«بعد أن التحقت بالقوات الروسية كنت متلهفًا لدخول مدينة وان. كانت أضلاع البلدات والقرى تتحطم تحت وطأة الجيوش الروسية (إن كان العثمانيون تركوا لها أضلاعًا): قارص، طرابزون، أرزنجان، موش، بدليس وقرى هذه البلدات كانت تتساقط مثل ثمار ناضجة. كان الحقد قد أعمانا. الحقد الذي زرعوه وسقوه في قلوبنا أثمر ضحايا وقرابين. سالت الدماء في السواقي والأنهار، تناثرت عظام البشر على قارعة كل

طريق كالحطب. كنت أفكر في صديقي يونس الآميدي وأقول ترى في أي مذبحة سنلتقي؟ أليس من الممكن أن أقتله بلا قصد أو يقتلني هو؟

تقدمنا صوب وان بشراسة وكانت رائحة الجثث تفوح. كانت أسراب النسور تحوم فوقنا. أي سماء قبيحة كانت تلك السماء! تعفنت بحيرة وان من الجثث المتفسخة. كان الناس يتدلون من الأشجار مشنوقين. ماذا نفعل! صدقني كان بعض الجنود يتراكضون ويسرعون لنهب جوارب القتلى! كنت قد نذرت أنني لو رأيت ابنتي هاميست حية فسأعتكف سبعة أعوام في دير آختمارا.

أعطى الجنرال نيكولاييف الإذن للجنود الوانيين بالبحث عن منازلهم وتفقدها. كنت خائفًا وجلاً أقول في نفسي: «سأظل وفيًا مع نذري الذي نذرته حتى لو لقيت ابنتي هاميست مقتولة». كان منزلنا عند الحي المسوَّر قريبًا من القنصلية الإنكليزية. آه يا بادين كم كنا نشد ظهورنا بتلك القنصلية الحمراء. ما كنا نعلم أن تلك الراية التي تحمل الصليب ترفرف بلا فائدة. بحثت مثل غريب عن منزلي وكأن أحذيتي لم تهترئ في شوارع تلك المدينة وأزقتها. ماذا فعل أولئك الأوغاد بمدينة وان الجميلة! لقد قلبوا عاليها سافلها. تهدمت الجدران واسودت من السخام والرماد. كانت الدماء وبقايا الأدمغة البشرية على الجدران تروي الحكاية بتفاصيلها. لكنني لم أجد ابنتي هاميست. لا رأيت جثتها ولا أي أثر منها. تصور يا ولدي حتى بيتي لم أتعرف عليه! ذهبت إلى آرام مانكويان وشكوت له أمري. أنت لا تعرفه. إنه من أبطالنا. ألقى علي نظرات كلها عتاب وقال: «يا أنترانيك لقد اختفت عشرات الألوف من بناتنا ولا يعلم إلا الله أين هنَّ الآن وأنت تبحث عن هاميست؟».

خجلت. لكن ماذا أفعل يا بادين؟ لقد كنت أبًا. أنت لا تعرف معنى

الأبوة. كل واحد يشعر بألم جرحه. لقد التحقت بالروس من أجل هاميست. لكن أين كنت سأرى كرة الثلج تلك في ذلك الأتون المشتعل؟ كان ذلك قبل ثلاثين عامًا بالضبط. توجهت مع الروس نحو هذه البلدة سابلاخ، صرت أبحث عن الموت والموت يهرب مني. كنت أرمي بنفسي في كل حرب تتوقد نارها. كنت أرتمي فيها دون أن أحترق. كثيرًا ما يتكبر الموت ولا ينقاد للمرء يا أستاذ.

في ذلك العام نهب الكرد الشكاك والهركيون والمكريون كفايتهم. كان الخليفة بذاته قد منحهم الإذن بذلك وأباح لهم مال المسيحيين. زعيمكم سمكو بذاته قتل النازحين منا في مضيق قوتور. كانوا يا ولدي يفكون حواشي ثياب النساء، بدعوى بحثهم عن الذهب، ويتركونهن عاريات في الدروب. في نهاية الأمر دفعنا سمكو هذا الشهير إلى الفخ مثل فأر وأرسلناه إلى تبليسي. لم يكن أحد على حق في تلك الحرب. لا توجد حرب على حق أبدًا. كان كل واحد يشحذ سكينه لأجل ذبح الأضعف منه. كانت السكاكين ألمانية، روسية وسمًا زعافًا. كانت أحزابنا الأرمنية تزيد النار ضرامًا. الطاشناق والهنجاق والقوى الأخرى. لم يعرفوا كيف يخرجوننا من تلك الدوامة. كانت قلوبنا مليئة بحقد هائل. كنت أقول: «لو أصل إلى الكعبة في مكة فسأهدمها على رؤوس المسلمين في موسم الحج».ضاعت هاميست ولم يعد يهمني شيء. صرت أكره روسيا الكذابة أيضًا. كيف لم تحسن أن تعيد لي ابنتي؟ ثار لينين وقضى على حكم القيصر. أصبح الجيش الروسي مثل حفنة من حبات الحمّص إذ تقع على صخرة. باع الجنود بنادقهم مقابل الفودكا، مقابل لحظة في حضن غانية سواء كانت فاتنة أم قبيحة. هرب الجميع من جبهات القتال وكنت واحدًا من هؤلاء الهاربين وبعت بندقيتي لأحد المهربين الشكاك

بأربعين قرانًا(*) لأتوجه إلى كرمانشاه. كنا نقول في تلك السنين أنه لا توجد أبعد من كرمانشاه! تشتت الأرمن تلك السنين في جميع الأصقاع حتى لو أنك رفعت حجرًا لوجدت تحته أرمنيًا خائفًا مترقبًا. في كرمانشاه تعرفت على مصور أرمني من بلدة خربوط. كان اسمه نوبار نالبنديان. كان رجلاً ذا تجارب حياتية وعلمني كل شيء. هو لم يعلمني فن التصوير فقط، بل علمني كيف أعيش أيضًا. كان يقول: «أرمينيا هي هذا الاستوديو، وخربوط هي هذه الفودكا التي أحتسيها كل ليلة. أنظر ماذا فعل بنا حب الوطن؟» ثم كان يبكي.

كان نوبار يقول لي: «إن آلة التصوير تضع الزمن في الأسر أما الفودكا فتحررنا من الزمن». كان يقول ذلك ويمزق صورة له أمام باب الكنيسة. كان قد فقد إيمانه بالله ويقول: «حتى لو كان ثمة إله فإنه لا بدَّ إله جبان».

أخيرًا اصطحبني جدي الجديد إلى بيته، والأصح إلى حجرته في حارة الأرمن. كانت صورة كبيرة لنوبار الخربوطي معلقة على أحد جدران الحجرة:

«لقد منحني اسمه أيضًا» قال جدي متنهدًا وهو ينظر إلى الصورة المعلقة على الجدار.

* * *

٨ آذار ١٩٤٦

مهاباد

ينساب الربيع إلى هذه المدينة المضطربة تمامًا كما يتدفق حب مُجْدَه

(*) قران عملة إيرانية

إلى قلبي. هاهو الطقس يعتدل وتذوب الثلوج وتصبح الأنهار صاخبة كقلوب العشاق، تهيم على وجهها. لقد اشتقت إليها، اشتقت إلى شعرها القصير كليالي الصيف، اشتقت إلى شفتيها الشبيهتين بزورقين من سكر. ها قد مر يومان دون أن أراها. مشغول أنا بزيارة جدي. فهو يريدني أن أكون بجانبه.

يا ولدي ها أنذا تلوح أمام ناظري حافة القبر. الموت مرٌّ بطبيعته فكيف إذا مات الإنسان وحيدًا.

وهل هناك موت لذيذ يا جدي؟

نعم يا ولدي. نعم. الموت في الخمارة أو في حضن دافئ وناعم.

حسب الاتفاقية الروسية الإنكليزية، يجب أن يغادر الجنود الروس الأراضي الإيرانية. اليوم هو الثامن من آذار لكن الروس عززوا مواقعهم أكثر. قبل يومين اصطفت المئات من دبابات تي ٣٤ على الحدود المشتركة بين العراق وإيران من جهة وبين إيران وتركيا من جهة أخرى. الإنكليز والأمريكيون يندددون بهذه الخطوة.

اليوم جاء أميرال آغا إلى باب بيتي وقال دون أن يلقي التحية علي: أستاذ هات كأسًا من الماء.

ما أحوال البحر؟

قريبًا ستسمع هدير أمواجه.

هاهم الروس يحوطوننا ببحر من حديد.

ليس لأجل المهاباديين. ستالين يفعل هذا ليحصل على تبغ من أجل غليونه. دالية العنب ما تزال عارية. وكأن الربيع على خصام معها أو هي تخاصمه. ما تزال غارقة في سباتها الشتوي.

وضع جدي صورة أمي في إطار فضي وقال: «انظر كم كانت أمك جميلة! ذقنك يشبه ذقن أمك. ما عدا ذلك فأنت نسخة من أبيك».

يقال إن البارزاني والعائلات التي تسكن في قومقوله سيتوزعون في مهاباد. إنهم يجهزون خان سيد علي مقابل مدرسة السعادة لأجل إيوائهم.

«القاضي محمد ليس راضيًا»، يقول كريم الشكاكي.

* * *

حياتي في مهاباد تشبه حلمًا طويلاً، أشعر فيها وكأنني أعيش في رواية روسية أو فيلم أمريكي. إن كل يوم من حياتي في هذه المدينة المحاصرة بالجبال وفخاخ التاريخ قصة بحالها. وأنا أرمي بتلك القصص في هذه الزنازين البيضاء بحيث لم تعد تكفيني الأوراق التي أشتريها. أول أمس سألني صاحب القرطاسية: «عزيزي الأستاذ بالله عليك هل تأكل هذه الأوراق أم تحرقها؟ ماذا تفعل بها؟». حملت رزمة الأوراق من كفة الميزان وقلت له: «هذه الأوراق برية من الثلج أطفئ فيها نيران الذاكرة». ووضعت بضعة شاهيات في كفة الميزان(*).

ككل مرة كان المقهى يعج بالرواد حيث يُستهلك يوميًا ما لا يقل عن كيس من تبغ قرية شاوَر وتخرج آهات كثيرة كأسراب من اللقالق من الأفواه الصامتة وتصبح على شكل حلقات تصعد للسقف. كل منفضة كانت تضم جثامين بضعة سجائر. توجهت إلى طاولة فارغة في زاوية مظلمة وارتميت على كرسي. سمعت صوتًا أعرفه:

بادين.

(*) شاهي: عملة إيرانية

حين التفتُّ إلى جهة الصوت التقت عيناي برفيق النضال نوري. فصرختُ:

نوري!

تعانقنا فحاصرتنا أعين الجالسين وتوقفت بالعشرات كؤوس الشاي وفناجين القهوة أمام الشفاه المتشققة.

قبل ثلاث سنوات وحين اتجهت من السليمانية صوب منطقة بارزان، كان نوري أمين أصبح عضوًا في الهيئة القيادية في حزب شورش الشيوعي الذي انضم العديد من كوادره إلى قوات البارزاني. حينذاك قال لي نوري أمين: « أينما تشتعل النار فسأكون حطبًا فيها». وهاهو اليوم وقد أصبح حطبًا في جمهورية مشتعلة، أصبح ضابطًا. عندما دعوته إلى زيارتي اعتذر قائلاً: « البارزاني أمر ألا نبتعد عن معسكرنا».

- وأين صائب الهوليري الآن؟
- نفاه الإنكليز بعد تعذيب وحشي إلى مصر.
- وحسين الديرسمي؟
- تقصد حمه رشيد؟
- نعم.
- وجدوا جثته في ديرسم في كيس حناء.

سألت عن أصحابي ومعارفي في تلك السنوات الغابرة واحدًا واحدًا، قال نوري بصوت سمعته وحدي:

هل نسيت جاله يا بادين؟

- لا..وهل ينسى الجرح سكينه؟

- لقد سافرت إلى لندن. هربت مع سائق الكابتن ماك كاي.

قلت وأنا أتنهد بعمق:

أعتقد أنها الآن تضيء كشمعة على نهر التايمز.

* * *

ذات يوم، قبل ستة أعوام في السليمانية، زارني نوري أمين:

لا تنكر يا بادين فعيناك تصيحان بأصوات سبعة نحن عاشقان.

قال وهو يحدق في عيني. الحب الذي كنت أود إخفاءه كما حاول مم أن يخفي حبيبته زين تحت عباءته كان أكبر من أن أخفيه. أما عيناي فكانتا مثل بكر المفسد وسردتا حكاية العشق لنوري أمين بحذافيرها فاعترفت مضطرًا:

- أنا أحبها.
- من زمان؟
- من رأس السنة الماضية.
- إنها لا تناسبك يا بادين.
- لماذا؟
- إنها بنت كاولى خانم.
- ومن هي كاولى خانم؟
- اسمع.
- وسرد على مسامعي حكاية أم جاله

كانت امرأة فاتنة، نُسجت بشرتها من ضوء القمر وخيوط الفجر.

وحسبما يروي الناس فإن أصابعها كانت أرق من الشموع، وأما قامتها فأين منها منارات المساجد! كانت قامتها برقًا يصيب الشباب فيصعقهم فيغيبون عن الوعي. أما نساء السليمانية فقد جعلنها مثالاً للجمال. لم تكن قصائد الغزل بقادرة على أن تفي جمالها حقه. وما كان أحد يعرف من أي فردوس هربت تلك الحورية. لقد أصابت شعراء المنطقة بما يشبه الجنون. كان اسمها هادلة ولفرط جمالها لم يكن أحد يجرؤ على الزواج منها فتزوجها حمزة الباشتمالي من قبيلة الجاف. تبرأ منه الباشتماليون لكنه لم يهتم لهم. يقولون إنه لما تزوج بها بقي أربعين يومًا لا يغادر بيته. لم يكن ذلك خجلاً من الناس بل لأنه ما كان يشبع من هادلة.

وجاءت سنة ١٩١٤ وبدأت الحرب العظمى. كان الجندرمة العثمانيون يقفون على رأس كل شارع. كان الوقت صيفًا والمئات من الشباب والصبايا يعودون من حصاد القمح والشعير. اعتقل أولئك الجندرمة الشباب بالمئات كأنهم حطابون يجمعون الحطب، كانوا يضعون رؤوس الحراب في خصورهم ويدفعونهم إلى جبهات الموت. ولما وقع حمزة في أيديهم صرخ مثل ثور يساق للذبح. كان يعلم عن أي نعيم يبعدونه. بقيت هادلة مثل النساء الوفيات بضعة شهور حزينة بينما كان الأمل بعودة زوجها يتلاشى كالملح في مياه شهوتها الحامية. في ذلك الزمان لم تكن أية عائلة تعلم في أي جبهة يقاتل ابنها!

لن أوجع لك رأسك يا بادين، المهم أن عامًا كاملاً مضى ولم يعد حمزة.

كانت تلك السنوات سنوات شدة وبؤس وفاقة حتى أن الأم كانت تهجر رضيعها. كانت هادلة تعرف جمالها. والجمال فخ لصاحبته قبل أن يكون فخًا للمجانين أمثالك يا بادين. وغاصت هادلة في وحل الآثام. صار بإمكان أي جندي عثماني أن يطفئ نار شهوته في ثلوج جسدها

بمجيدي واحد. دعمها الضباط الترك ولم يعد أحد يستطيع الاقتراب منها أو النظر إليها. سماها الناس فيما بينهم «كاولى خانم» أي الست العاهرة. وحين جاء الإنكليز استشرت أكثر. فالميجر سون بذاته أصبح عشيقًا لها. الجنود الإنكليز، قوات الليفي والشبانه الآشورية والبدو صاروا يرعون قطعان شهواتهم بين برية فخذيها. لم يبق أحد لم يسق حصانه إلى ذلك الاسطبل. ذات يوم أراد رجل من عشيرة باشتماله أن يقتلها فذهب إليها لكن جنديين هنديين أمسكوا به وضربوه على رجليه حتى تورمتا ثم نفي الرجل إلى البصرة. ما عاد أحد يجرؤ حتى على ذكر اسمها بلسانه.

سنة أصبح الشيخ محمود ملكًا قتلت كاولى خانم. لا أحد يدري من أين جاء حمزة ومن حكى له قصة زوجته. في وضح النهار وضع فوهة بندقيته بين فخذيها وأفرغ ثلاث رصاصات في جوفها.

- هل شبعت الآن؟

قال حمزة بنبرة جنون ورمى بندقيته على جثتها ثم هام على وجهه في سهل شهرزور. بعد مدة لقي الناس جثته أيضًا في نهر سيروان وكانت آثار دماء كاولى خانم ما تزال على ثيابه. كانت جاله وقتها طفلة رضيعة. وعندما علم الشيخ محمود بالقضية أمر بتسليم الطفلة إلى عائلة هورامية. حتى قبل ثلاثة أعوام كانت جاله ما تزال في حلبجة.

- إلى أين تريد أن تصل بالحكاية يا نوري؟

- أريد أن أقول إن أصل جاله خبيث.

- ما لي ولأصلها؟

- إن العِرْق دسّاس.

غضبت وقلت له:« أنت رجل شيوعي!! كيف لك أن تفكر بذهنية القرويين؟ أليس علينا أن نطهر المجتمع من صدأ الأفكار البالية؟ إن لم نبدأ من أنفسنا فمن سيجعل نفسه قربانًا يا نوري؟»

بقي نوري صامتًا لبرهة لكنه أردف وكأنه قد هيأ الجواب سلفًا:« يا بادين أنا أقول هذا الكلام لأجل مصلحتك. القضية ليست قضية ذهنية قروية أو قضية تقدمية ورجعية. هذه الفتاة فلتانة وستصبح لطخة عار لك وللحزب. أنت لست ملك نفسك يا بادين».

لم أهتم بما قاله نوري: فليصبح ألف حزب ومليون من الأعضاء فداء لحبي. هكذا كنت أقول لقلبي الحمار. كانت فخاخ حب غادر قد أنشبت أنيابها في قلبي الغض. كنت سمكة عشقت الصنارة.

ذات يوم جاءتني جاله وهي تبكي. كان رئيس التحرير الشاعر پيرميرد قد فصلها عن الجريدة. لم أصبر حتى تغرب الشمس وألتقي بنوري في المقهى، لم أتمالك نفسي فأسرعت إليه في بيته. وأنا ما أزال عند الباب قال لي:« هل سمعت أن هتلر دخل باريس؟ الآن يسبح الجنود الألمان في نهر السين».

- يا ليتهم احتلوا بغداد أيضًا. قلت محتدًا. أدخلني نوري إلى المنزل وسألني: «ما بك يا بادو؟ مالذي جرى؟ تبدو مضطربًا؟»

- لماذا فصلوا جاله من الجريدة؟

- هكذا إذًا يا بادو أفندي! لم أكن أعلم أن جاله أهم من باريس.

- أرجو أن تجيبني يا نوري بدون استهزاء.

- رفيقي العزيز، جاله لها علاقات بالإنكليز. لقد شوهدت في نادي الضباط.

- ليس صحيحًا.

لكنها كانت الحقيقة، وكانت حقيقة مثل حد الخنجر بلعتها. قال نوري:« تعال فلنراقبها». وذات ليلة حالكة من ليالي السليمانية سرنا أنا ونوري في الشوارع والأزقة الضيقة حتى وصلنا إلى نادي الضباط بجانب المدرسة الابتدائية لليهود. كان صوت فرانك سيناترا يصدح من أعماق النادي. كاد قلبي يقفز من صدري. وفجأة لمحت عيناي سيارة الهامر للكابتن ماك كاي. كانت جاله جالسة بجانب السائق الهندي تلمع مثل جوهرة. لا أدري ماذا حل بي، لا أدري ماذا قلت ولا أدري كيف عدنا إلى البيت. أي جراح كانت ترقص في قلبي؟ لم تكن هناك مراهم لأداوي تلك الجراح، كانت جراحًا أكبر من قلبي. لم أعد أتحمل. حاولت مرارًا أن أقصر ليلتي بالخمر فلم أستطع. شعرت بشوكة غارزة في سويداء قلبي. حدثني نوري عن علاقتها بالشاعر عبد الله كوران وقال:«لقد هام هو أيضًا بحبها. كانت جاله طالبة في مدرسة يدرس فيها كوران في حلبجة. سماها كوران باسم عشتار هورامان. كان يكتب فيها القصائد يوميًا. لكن جاله تركت حلبجة وكوران وراء ظهرها. الشاعر الرقيق لم يجد لقلبه السجين سبيلاً إلى التحرر من حبها سوى السفر إلى فلسطين. أصبح كوران مذيعًا في إذاعة الشرق الأدنى. ألم تصغِ يومًا إلى نبرة صوته الحزينة وهو يقرأ الأخبار؟ ألا تسمع أغاني فرانك سيناترا من تلك الإذاعة كل يوم؟».

لا أدري هل نمت تلك الليلة على وقع صوت نوري الحنون أم من ثقل رأسي بسبب الخمر. صباحًا استيقظت على صوت أطفال الحي. أرشدني قلبي إلى حيث كان صحفيو الجريدة يجتمعون. كانت جاله هناك محمرة العينين، وقد ترك محراث السهر آثاره على ذلك الوجه الهادئ الحريري.

وقبل أن أقول لها «صباح الخير» قلت بحدة: «أين كنت ليلة البارحة؟»

كانت تحمل حقيبة الأكاذيب دائمًا على ظهرها. كنت أحبها وأحب أكاذيبها. وكان قلبي طفلاً حافيًا يركض في دروب أكاذيبها الشائكة ومازال هذا القلب حتى اليوم ينزف دمًا. لكنني في تلك المرةِ دفعتها إلى فخ الاعتراف فاعترفت:

- كنت في نادي الضباط.

- وأي عمل لك هناك؟ هل كنت تجمعين خرز قلادة أمك؟

- بادو..يا روحي لا تغضب. إياك أن يذهب خيالك بعيدًا. لقد طلبت من الكابتن ماك كاي أن يعيدني إلى الجريدة.

- ماشاء الله! أفلا يستطيع كابتنك أن يعيد باريس إلى ديغول؟ ألا يستطيع أن يمنع القنابل عن لندن؟ ألم تجدي أحدًا يساعدك سوى هذا الفيل الإنكليزي!

كنت غاضبًا جدًا لكن ماذا أفعل. سامحتها. لم أكن أريد أن تهرب تلك الحمامة مني. كنت أدجنها حتى تبقى دائمًا على أغصان قلبي الغبي.

* * *

سأسافر إلى بغداد.

فجرت جاله هذه القنبلة في وجهي بداية الخريف.

صرت أكره العيش هنا وأنت تراقبني باستمرار. لا ثقة لك بي. السليمانية بدأت تخنقني. سأدرس الأدب الإنكليزي في بغداد، لكن لا تظن أنني أهرب منك..لا.. سأكتب لك الرسائل باستمرار.

مضت بضعة أشهر ثم جاءتني الرسالة التي كنت أنتظرها.

(مرحبا بادين....انظر كم أنا وفية وما نسيتك. لكن اعذرني فالدراسة قد أخذت كل وقتي. واللغة الإنكليزية صعبة بقدر ما هي جميلة. لكنني كنت ألم بها قبلاً، لذلك لا أجدها صعبة جدًا. لو كنت تعرف الإنكليزية لكتبت رسائلي بها. لقد اشتقت إليك لكنني لا أرغب في المجيء إلى السليمانية لأنها مقبرة لمشاعري. بغداد مدينة كبيرة يعيش فيها أكراد كثيرون لكن لا علاقة لي بهم. إنهم قرويون متخلفون يسببون وجع الرأس. رسائلي ستصلك متأخرة فلا تنتظرها. لكن إذا أردت أن تكتب لي قليكن على هذا العنوان:

بغداد- دار المعلمين.(

قسم اللغة الإنكليزية... جاله).

متعب أنا. أصابعي تؤلمني من الكتابة. أشعر وكأن مفاصلها ستتفكك. السماء تخلع ثوبها الحالك المرصع بالنجوم وترتدي فستانًا لازورديًا. الألوان تتبدل كما السياسة في هذا الفجر. من قال إن السماء لا تمارس السياسة؟ قصة جاله لن تنتهي بسهولة. وهل يستطيع أحد سرد حرائق القلب؟

* * *

عام ١٩٤١ كان قد مر عامان والحرب لم تتوقف، في السماء كانت طائرات ستوكا الألمانية، B١٧ أB٢٥ الأمريكية، لانكستر البريطانية وزيرو اليابانية تزرع الأرض بملايين الأرامل والثكالى والأيتام. قسمت كل من روسيا وإنكلترا إيران فيما بينهما مثل بطيخة. كان الألمان يفكرون في نفط الشرق ولعابهم يسيل. كانت آذان الناس مخيطة مثل خرق إلى أجهزة الراديو أما قلبي فكان يهتز لكل ريح قادمة من بغداد.

في اجتماعات هيوا كان الحديث يطول عن «الفرص التاريخية» وقد قال رفيق حلمي في أحد الاجتماعات:« حينما تنتهي الأسود والنمور من نهش فرائسها، يتبقى بعض العظام للحيوانات الأخرى».

كان الزمن يمر بطيئًا مثل نهر من القطران، وكنت أمضي أوقاتي بقراءة الجرائد وارتياد المقهى واجتماعات هيوا. لكنني كنت كالدائخين. انقطعت عني رسائل جاله فجأة وصرت أترقب الأيام وأسقي قلبي المتيبس بالأمل.

برزت الخلافات داخل هيوا مثل كمأ يظهر عقب مطر الربيع. كان هناك بعض الناس يحاولون ضم رؤساء العشائر والأعيان إلى الحزب، لكن رفيق حلمي لم يقبل وقال:

«فليتفضلوا وينضموا إلى منظمة براتي (الأخوة). الشيخ لطيف يعرف التعامل معهم. حزبنا هو حزب الموظفين والمثقفين والضباط. أما رؤساء العشائر فإنهم لو دخلوا إلى الجنة لأفسدوها. ولو أتوا وانضموا إلينا فإنهم سيجلبون معهم صراعاتهم. هؤلاء لا يتفقون على المراعي فكيفون سيتفقون في السياسة!».

اشتقت إلى جاله لكنني كنت أفتقد الدنانير التي بإمكانها أن توصلني إلى بغداد. أرسلت لها أكثر من عشر رسائل لكنها كانت كمن يلقيها في بئر.

كم يومًا تستغرق الرسائل لتصل من بغداد إلى السليمانية؟

كيف يمكن لرسالة أن تصل أسرع إلى بغداد؟

ماذا يحدث لو غير أحدهم عنوانه؟

إن لم تصل الرسالة إلى المرسل إليه، فهل تعود للمرسل؟

أضجرت بأسئلتي ساعي البريد المسكين، حتى أنه عندما كان يلمحني صار يتحاشاني ولا يدري أين يختبئ، إلى أن صرخ ذات يوم في وجهي:

هل رأيت خصيتيَّ هاتين؟

ومد يده إلى مابين فخذيه. لم أعرف كيف أجيبه، قلت دون أن أعي ما أقول: «لا».

إذًا لن ترى الرسائل التي تنتظرها أيضًا.

نهاية شهر نيسان، وذات مساء ساكن، جاءني شاب قادم من بغداد وسلمني نسخة من مجلة گەلاويژ وما إن فتحتها حتى وجدت داخلها رسالة من جاله:

(مرحبا بادين

اعذرني على اللامبالاة، قد تكون هذه رسالتي الأخيرة لأنني سأعود للسليمانية بعد أن تنتهي الامتحانات. دراستي جيدة. ولقد دخلت عالمًا جميلاً وواسعًا جدًا من الأدب. قصائد بايرون وتينيسون لا يمكن وصف حلاوتها. ترجمت مقطعًا من قصيدة لبايرون تراها في نهاية الرسالة. الآن فهمت من أين كان يأتي شاعرنا كوران بقصائده. أمس ذهبت واشتريت من شركة بيضافون اسطوانة لفرانك سيناترا. على أجنحة صوته أطير وأصل إلى سماء مجهولة. بغداد مضطربة. يتداول الناس أحاديث كثيرة عن رشيد عالي الكيلاني. أحيانًا أتنزه على ضفاف دجلة وأتمشى على الجسور.

مع هذه الرسالة أبعث لك عددًا من گەلاويژ.

جاله. بغداد......١٩٤١, ٤, ١٠).

أية كلمات باردة ضمتها تلك الرسالة! ومع ذلك فقد أشعلت فؤادي. الأمواج التي كانت هادئة في قلبي تلاطمت فجأة. كنت أحترق، والنار تأكل روحي أما جاله فكانت تحدثني عن رشيد الكيلاني! أين الحب؟ أين عبارة أنا أحبك؟ رسالة باردة كالجليد، يابسة كالحجر لا مشاعر فيها! رسالة صماء مثل قبر مقفر، خرساء مثل ليالي ذرى الجبال.

* * *

آذار ١٩٤٦ مهاباد

غربت الشمس، غابت مثل خرزة حمراء من قلادة الأفق خلف جبل لَندي شيخان. كانت الغيوم تبدو وكأنها طيور خرافية تبسط أجنحتها النارية في الغرب. على جانبي الشارعين الذين يتقاطعان عند ساحة چوارچرا كان الناس يتقاطرون كالنمل إلى المركز الثقافي (مركزي فرهنك).

إنها حفلة الفنان محمد ماملى.

القاضي محمد بذاته سيحضر الحفلة.

الملا مصطفى أيضًا هناك.

كان الناس يتحادثون وهم يسرعون الخطى.

كنا أنا و مُجْدَه جالسين في الصف الخلفي حيث بدا لنا رأس القاضي محمد بعمامته الثلجية ورأس ملا مصطفى بقبعته العسكرية وهما يجلسان في الصف الأمامي. هدر صوت محمد ماملى مثل ريح جبلية وهو يغني أغنية مريم السابلاخية. اختلط صوت الدف مع عزف السيتار وأنين الناي. بدت وجوه الحاضرين في الضوء الخافت شاحبة حزينة.

وضعت كف مُجْدَه الطري الشبيه بحمامة داجنة بين يدي، فعَصَرَتْ يدي قليلاً ثم سحبت يدها بسرعة لتزيح عن وجهها شعرها القصير كليلة صيف.

- مُجْدَه أصابعك رقيقة، لكن ينقصها شيء؟

- ما هو؟

- خاتم خطبة!

طأطأت رأسها خجلاً وهمست في أذني قائلة:«مازال الوقت مبكرًا».

انتهت الحفلة، همست مُجْدَه التي لم ينتبه أحد إلى أنها بجانبي وهي تودعني:« لا تنس أن تأخذني غدًا إلى استوديو جدك». ثم ذهبت.

خلال مغادرتي الحفلة فرحًا صادفت نوري ومصطفى خوشناو فدعوتهما إلى البيت لكنهما اعتذرا قائلين:« علينا أن نكون الليلة في معسكر سربازخانه، سيحل ضابط روسي ضيفًا علينا». فجأة ظهر أمامنا كريم الشكاكي فهمست في أذنه قائلاً:«في انتظارنا زجاجة من الفودكا».

سرنا في الطريق. كانت رائحة الأزاهير الجبلية تشي بقدوم الربيع. كانت المدينة هادئة ووجه كريم عابسًا. وحين اقتربنا من ميدان چوارچرا توقف كريم وكأنه تذكر شيئًا وقال: «يا بادين أنت لا تنتبه لنفسك».

- لماذا؟

- اعذرني..لكن جلوسك بجانب مُجْدَه لم يكن صائبًا! أنت تعرف أن هذه مهاباد وليس من الجائز كثيرًا أن يجلس الشاب بجانب الفتاة أضف إلى ذلك أنكما لستما أقرباء.

تجمدت في مكاني ولم أعرف ماذا أقول ولا أعرف ماذا قلت. فجر كريم فجأة تلك القنبلة ولم أكن مستعدًا لها. احمر وجهي خجلاً وقلت

بهدوء:« نريد أن نتزوج».

وتحت ضوء مصباح شاحب افترقنا.

* * *

فصلوا مُجْدَه من التدريس.

فوق زعل كريم مني، أبعدني مدير المدرسة عن مُجْدَه وقال لي:« لا يجوز أن تتمشيا دائمًا في باحة المدرسة هذا ليس خانًا ولا شارعًا من شوارع باريس». شعر التلاميذ أن شيئًا ما بالنسبة لي ليس على ما يرام فسألني أحدهم واسمه رحمان كرمياني:«ما الأمر أستاذ؟».

سيأتي السيد مناف كريمي ليختار بضعة تلاميذ من أجل إرسالهم إلى باكو.

قلت له وكأني أعددت هذا الجواب مسبقًا. وكان ذلك حقيقة. كان وزير التعليم مناف يجول على المدارس لكن الطلاب الذين اختيروا للذهاب إلى باكو كانوا من أبناء الآغوات و...

ما لي ولهذا الموضوع؟ الأفضل أن أبقى في قصتي.

يتدحرج قلبي مثل كرة من نار في حقول العمر. ديوك مهاباد تريد أن ترمي بالظلام في نهر سابلاخ الثرثار. الرعود تقصف والبروق تلمع كثورات الكرد ومن خلال البروق والرعود أسمع أحاديث عصية على الفهم. كانت جدتي تقول: «البرق سوط ملائكة المطر وحينها تتمرد الغيوم تجلدها الملائكة حتى يتطاير الشرر من ظهورها. تصرخ الغيوم وتبكي دموعًا من عيونها اللامرئية».

أنظر من خلال النافذة إلى الخارج. مع لمعان كل برق تبدو دالية العنب مثل يتيم واقف تحت مزاريب مسجد.

نتجاذب أنا والنوم حبلاً لا مرئيًا، يغلبني النوم قليلاً ويجرني إلى ناحيته لكنني أستند إلى آلامي وأخطف الحبل من يده.

حين يصبح الليل متأخرًا لا يعود المرء بحاجة للنوم لأجل أن يحلم، بل تأتي الأحلام من تلقاء نفسها وتتحلق حول المرء. بعيون مفتوحة ووعي وانتباه يرى المرء الأحلام. ما هي الأحلام أصلاً؟ إنها حياة مقلوبة مثل بساط لا تدعنا اليقظة أن نرى الوجه الحقيقي له.

* * *

سأتزوج.

عندما أخبرت جدي بذلك قبل شهر، لم يسألني من هي الفتاة التي أحبها لكنه قال:« قل للملَّا مصطفى»، والملَّا مصطفى منحني خمسة عشر دينارًا عراقيًا وقال:« هذه تعادل ثلاثمئة تومان اصرفها عليك وعلى خطيبتك». هو أيضًا لم يسألني من هي الفتاة. وحده نوري سألني- حين أخبرته بقراري- عنها:

- إيه يا رجل..من هي مُجْدَه هذه؟

«مَن هي؟» أنا لم أسأل نفسي هذا السؤال، ولم أسأل مُجْدَه أيضًا. لا يهمني من تكون ومن أين تكون. أنا لا أعرفها لكن القلب يعرفها. قبل ذلك لم أسأل أيضًا من هي جاله. الحب بذاته جواب ولا يوجد فيه مجال للأسئلة.

سمعت من كريم الشكاكي ومن أحاديث مُجْدَه المتقطعة قصتها: إنها ابنة منظمة خويبون، ابنة آغري، إنها ابنة الثلوج والدماء.

* * *

كلما كان الليل يمد للنجوم أسئلته في سهل بايزيد، كانت مُجْدَه ذات الأربع سنوات تسأل أمها:

- أين أبي؟
- أترين يا ابنتي ذلك الجبل الأشيب؟ إنه هناك.
- ومذا يفعل؟
- يذيب الثلوج.
- لماذا؟
- لكي لا نموت بردًا.

كان ذلك شتاء عام ١٩٣٠ والثورة مشتعلة في ذرى جبال آغري. كان والد مُجْدَه، زلفو الجلالي، ينزل كل ليلة جمعة إلى المدينة يتمدد بجانب زوجته تحت اللحاف الدافئ، ينظر إلى ابنته الحلوة ويقول: « المعارك التي تجري هناك في الأعلى، تدع المرء عنينًا».

ذات مساء جاء زلفو ومعه بضعة أوراق مبللة ومطوية. حين علقت زوجته معطفه الثقيل لمحت تلك الأوراق فسألته:« ما هي هذه الأوراق روحي فداك؟»

- هذه جريدة آغري. انظري ماذا كتب الجنرال إحسان باشا!
- يا ويحي أنا المسكينة كيف لي أن أقرأ.

علّق القائد العسكري الكردي إحسان باشا آماله –مثل معطف عسكري– بكل مشجب يراه: بالطاشناق الأرمن، بشاه إيران، بالكرد السوريين، بالعشائر والقبائل الكبيرة، وبثلوج جبل آغري الأزلية، تلك الثلوج التي لم يصلها حتى طوفان نوح بالرغم من علوه.

«الأتراك يجهزون جيشًا جرارًا: ستون ألف جندي، سبعمئة مدفع متراليوز، خمسة مدافع ثقيلة، مئة طائرة، ولو هاجمت هذه القوات لذابت تلك الثلوج وغرق سهل بايزيد في طوفان جديد».

هكذا كان يقول مقاتل خائف، فردَّ عليه صديقه الواثق من نفسه:

يا مجنون فليأت كل العالم. لن يستطيعوا أن يزحزحوا صخرة من هنا.

كانت قطع الثلج تهوي من القمة الأسطورية، وتدوي كالرعود.

خوفًا من قطع الثلج هذه، فإن الترك...

لم تكتمل جملة المقاتل الواثق من نفسه حتى صرخ رفيقه: «تنحَّ جانبًا» لكن قطعة الثلج الساقطة من علو ألف ذراع كانت أسرع من صرخته.

ياللثلج الخائن.

قالها المقاتل بفم مليء بالثلوج وأصبح يهوي مع الكرة الثلجية.

* * *

هيا أسرعي. جهزي صُرَّتك فسآخذكم إلى مدينة خوي.

خيرًا يا رجل؟ مالذي جرى؟

لا وقت لدي لكي أجيبك، إحملي ابنتك. فهناك بغلان في انتظارنا.

والد مُجْدَه، زلفو الجلالي، العابس كما يليق بمقاتل من آغري شد الصُّرر على ظهر أحد البغلين وأركب ابنته وأمها على البغل الآخر ثم خرجوا في تلك الليلة التي لا قمر ولا أمل فيها من بايزيد.

سرد كريم وقائع تلك السنة هكذا:

« حينما وصل والد مُجْدَه، زلفو الجلالي، إلى خوي توجه فورًا إلى بيتنا. كنا أصدقاء من قبل. فقد أنشأ الألمان معملاً للبسط والسجاجيد في

تبريز وعمل فقراء الكرد في نقل الصوف من شنو إلى تبريز لتأمين قوتهم اليومي. كنت أنا وزلفو في مقتبل الشباب وكنا نضع الصوف في أكياس خيش كبيرة بينما كان العمال الأكبر منا يحملونها ويضعونها على ظهور البغال. وقد عملت عدة أيام في المعمل ذاك أفرز الوسخ والشعر الزائد عن الصوف. لكن المعمل توقف حينما دخل الروس المدينة. حدث هذا قبل الحرب الأولى. والد مُجْدَه، زلفو الجلالي، عاد إلى بايزيد لكنه كان يأتي إلى مرابع الشكاك كل ربيع. كان قلبه يقوده، فلقد أحب فتاة شكاكية هي المرحومة والدة مُجْدَه. أتعرف ماذا كان مهرها؟ ثلاثة بنادق جديدة من نوع بِرْدان، وثلاثة كباش وثلاثة أعوام من النهب لصالح قبيلة الشكاك.

كان ذلك مساء حزينًا حين أنزل زلفو الجلالي ابنته مُجْدَه عن ظهر البغل الهزيل، قبل جبينها وقال لي: «يا عزيزي كريم أنا أسلم هذه الطفلة وأمها إلى شهامتك ورعاية الله. فإن عدت كان خيرًا، وإن لم أعد فأنت مسؤولهما». ثم عطف عنان فرسه. كانت طفلته في عامها الرابع جميلة بوجه مدور حنطي اللون وحلو، أما أنفها فكان أقنى وعيناها صغيرتان تلمعان كالنجوم بعد المغيب. وكانت كلما سالتها: أين أبوك؟ تجيبني: «إنه يذيب الثلوج».

كانت المسألة الكردية في تلك السنوات بألف عقدة وعقدة ولو اجتمع ألف شيطان على عقدة واحدة منها لما استطاع حلَّها: الشيخ أحمد في بارزان، الشيخ محمود في السليمانية، إحسان نوري باشا في آغري وسمكو آغا في أورمية. كان كل واحد من هؤلاء ساقية تتدفق لوحدها، كل جبل كان يغني موَّاله بمفرده لوديانه، لم يكن أحد يسمع صوت الآخر. في صيف ذلك العام انهارت الثورة في جبال آغري وتفرق المقاتلون. كان جحيمًا احترقت فيه الأحلام والآمال.

وكانت أم مُجْدَه تجلس كل صباح في ظلال جدار بيتنا وتقول: «سيأتي. لقد شاهدته في منامي». لكنه لم يأت. وحدها ثلوج آغري وأنا كنا على علم بما حصل له.

* * *

نهاية آذار ١٩٤٦ مهاباد

بمناجل الأرق أَحصدُ حقولَ ذاكرتي التي لا حدود لها. فلتزرع أيها الزمن الرديء اللئيم هذه الذكريات في أرض عمري البور. ها أنذا مثل درويش في الخلوة معتكف على هذه الأوراق البيضاء، قلمي الذي يتعثر كحصان بذكرياتي يخلد للنوم بين أصابعي، من أنفاسي الحرَّى تتيبس الصفحات التي لو عرفتْ مالذي أكتبه عليها لاحترقت.

كان شهر حزيران قد سقط لتوه من شجرة العام. وكان الحصادون في سهل حلبجة قد أنهوا جمع سيقان القمح أيضًا وحرقوا بقايا الحقول بينما تركوا قطعان الماشية ترعى في بعضها. في ذلك الوقت هرب رشيد عالي الكيلاني من بغداد إلى ألمانيا وبدأ الإنكليز من جديد بخنق تلك المدن والقرى. توجه الشيخ محمود إلى السليمانية مرة أخرى: أسدٌ عاد إلى عرينه. كان شيوعيو العراق يكرهون حزب هيوا. وكنا كثيرًا ما نتشاجر معهم. لو ضرط ستالين لقال الشيوعيون إن رائحة الورود تفوح. وقد انضمو لأجل ستالين إلى الكيلاني وأيدوه بينما كان حزبنا يعاديه. كان رفيق حلمي يقول:« هذا الرجل جيد لكنه سيدفعنا بغبائه إلى حضن النازيين».

لم يستجب أحد لنداء الشيخ محمود وكم كنا نتناقش في الاجتماعات بحدة حتى تكاد حناجرنا أن تتقطع ونحن نصرخ بوجوب مساعدته.

وذات يوم ذهبت إلى لقاء الشيخ محمود في قرية سيتَك فرأيته يائسًا جدًا. كان قد وضع برقعًا من جلد الغزلان على عيني صقره وهيأه للصيد. حينما علم أنني من حزب هيوا قال بحدة:« اذهب وأخبر صاحبك حلمي أن الإنكليز يتلاعبون به وإياه أن يغتر بحزبه وبعض الشباب الأفندية. الحزب الحقيقي هو هذا». وضرب بيده على خنجره المعقوف الثاوي في غمد من جلد الوعول.

سأعود إلى بغداد. ماذا أفعل! لقد جعلكم الإنكليز ترتعدون خوفًا.

قال بمرارة كبيرة وأطلق صقره وراء طيور الحجل والقطا والأرانب.

لم تكن جاله قد عادت بعد من بغداد، وكانت بحر الشوق إليها قد غمرني بموجه. في الأمسيات كنت أستمع إلى راديو برلين، وأحيانًا كنت أدير إبرة المذياع لأصغب لإذاعة الشرق الأدنى. كان صوت كوران يأتي رخيًا على جناح الأثير. كان ذلك صوت عاشق محطم القلب. « ترى هل تستمع إليها جاله أيضًا؟» كنت أتساءل. كان قلبي يقاوم أكثر من لينينغراد.

كان ذلك نهاية شهر تموز وقد انحنت أغصان الأشجار تحت ثقل الثمار، وقلبي أيضًا كاد أن ينهار ويسقط مثل حبة كمثرى ناضجة. ذات ليلة، وأنا أقرأ منظومة بيرميرد (إثني عشر فارسًا من مَريوان)، سمعت طرقًا رقيقًا على الباب. كانت هي... جاله.

لا يمكنني وصف المشاعر التي انتابتني تلك اللحظة. بكيت مثل طفل. لم يكن ذلك بكاء بقدر ما كان ثغاء خروف يفصلونه عن أمه ويذبحونه. عانقتها ووضعت رأسي المجنون على صدرها. سالت دموعي على العلم البريطاني الذي كان على قميصها. قالت لي ببرودة الحجر: «مالذي حصل يا بادين؟».

ما الذي حصل؟ كم كان سؤالاً سخيفًا لا معنى له تلك الليلة. كم كان سؤالاً من خنجر شق كبدي.

مالذي حصل؟ يا ظالمة مضت شهور عدة لا رسالة ولا تلغراف ولا أي خبر منك! أحترق بناري وأنت باردة كأن الجليد أبوك والثلج أمك! إنني أحبك..أحبببك.

صوتي اليتيم تردد صداه في شوارع السليمانية تلك الليلة (صباح اليوم التالي قال لي أصدقائي، حتى أولئك الذي يسكنون في الحارات البعيدة، مثل سرچمين و كاني آسكان: « لقد سعنا صوتك، كان صوت رجل تتقطع شرايين قلبه»).

جلست جاله على المائدة دون أن تنبس ببنت شفة.ركعتُ أمامها وقلت بتضرع: «فلنتزوج يا جاله».

لم تجبني، لكنها نهضت لتذهب، فقلت لها بصوت مجنون:« سأنتحر إن خرجت». صدقت تهديدي ولم تذهب. كانت قبلاتنا باردة وبلا طعم. قبلاتها وليست قبلاتي. أما أنا فقد تحولت شفاهي نارًا واندلعت في جسدها، أصبحت أسناني محاريث تمر على ذلك الجسد البض الناعم الأبيض. أي فلاح كنته تلك الليلة الكافرة!

ذات مرة قال أميرال آغا:« أتعرفون ما هو سابلاخ؟ إنه ليس نهرًا. بل إنه كان فيها مضى عاشقًا ذاب من قهر حبيبة خائنة وصار ينساب وينساب إلى الأبد».

أنا لم أصبح نهرًا لكن آلافًا من ينابيع الألم والحسرات تفجرت في قلبي.

في شارع كاني آسكان وأمام باب مسجد الشيخ سلام التقيت بعد

أسبوع بجاله. كانت تحمل في يدها كتابًا:

- ماهذا الكتاب حبيبتي؟

- إنها رواية (The Vergin and The Gipsy) للكاتب د. ه. لورانس.

- آه. ظننت أنه ديوان الشاعر حريق وقد أتيت به من مطبعة مريواني في بغداد.

- أين ديوان «حريقك» من هذا الكتاب؟ هذه رواية عظيمة لا أعتقد أن بإمكان الكرد إبداع شيء كهذا في ميدان الأدب.

ونحن نتحادث اقتربنا من حديقة المدرسة الابتدائية لليهود. ولكي نختفي عن الأعين لجأنا إلى جذع شجرة عتيقة، وسألتها: «لماذا لا نتزوج؟» قلبت شفتيها ثم قلّبت صفحات الرواية التي في يدها، بعد هنيهة رفعت رأسها وقالت وهي تغرز نظراتها في عينيّ: «يا بادين لا يليق أحدنا بالآخرا».

هوى قلبي في وادٍ مليء بالشوك.

«لماذا يا جاله؟ أنا شاب، كردي، وشرس في الفراش مثل وعل، وجميل في نظر نفسي. ما هي نواقصي إذًا؟»

جلست جاله، مثل أميرات اللوحات القديمة للقرون الوسطى، في الأرجوحة المعلقة بغصن من أغصان الشجرة وتأرجحت. كان قلبي يهتز أيضًا. أزاحت الريح التي كانت حركة الأرجوحة تسببها ثوبها عن ساقيها الأبيضين الصقيلين. بدورها، أزاحت جاله أوراق الشجرة التي تساقطت عليها برقة بالغة. دمعت عيناي بينما صارت هي تنظر بعيون نصف مغمضة إلي. لم أكن أدري ماذا تعنيه تلك النظرات الناعسة؟

أكانت هي نظرات حنان أم ندم؟ ارتسمت على شفتيها ابتسامة رقيقة كاد قلبي يطير لها طربًا. لكن تلك الساحرة كانت تضحك علي. كانت تضحك على قلبي الغبي، على حبي الأبله وعشقي الإلهي، في تلك اللحظة كانت عروس الثلج تلك تضحك على حياتي.

الزواج فكرة مستبعدة بالنسبة لي.

سأنتظرك كل عمري.

لن أستطيع أن أصبح لك زوجة مناسبة.

كيفما تكونين أنا أحبك. أحبببك.

ثم نطحت جذع الشجرة برأسي، لا أدري كم من المرات فعلت ذلك، لكنني ما إن وعيت على حالي حتى وجدتني في غرفتي وحولي صادق بهاء الدين ونوري أمين وبضعة رفاق من هيوا. كان رأسي مضمدًا وكنت أبحث بعيوني عن جاله. الدم الذي كان قد سال من رأسي جعل أهدابي ملتصقة ببعضها. لم أكن قادرًا على أن أفتح عيوني جيدًا. أمسك صادق بيدي وقال مازحًا:« لقد حفرت في الشجرة حفرة يستطيع أرنب أن يختبئ فيها».

لم تكن لدي رغبة في الضحك تلك الليلة. كنت راغبًا في نوم يشبه الموت، كنت راغبًا في أن أغيب عن وعيي أو أجن وأهيم على وجهي في الفلوات.

* * *

١٠ نيسان ١٩٤٦

الوقت مساء. النجوم تلهو. أنا جالس أمام نافذتي المطلة على باحة

الدار. الريح التي تضرب النافذة مثل لص، تهز ستارة الأطلس الزرقاء. مرفقاي تركا آثارهما على طاولتي المصنوعة من خشب البلوط. في زاوية من زوايا غرفتي يقبع سرير نومي. مخدتي التي أهدتها إلي جُدّه وطرزت اسمها واسمي عليها محشوة بريش عشرة ديوك فصيحة. فراشي محشو بصوف عشرة كباش أما لحافي فملؤه كيس من القطن. في رف على الجدار تتلاصق بضعة كتب يعلوها الغبار الكثيف ولا أجد رغبة في مد يدي إليها. لا رغبة لي في الكتابة هذا المساء. لكنني مضطر لذلك. لا أدري أية قوة تلف أصابعي على القلم؟ ترى ألأنني أتقدم نحو موتي؟ أليس كل الناس هكذا؟ من الذي أدار ظهره للموت أصلاً! لا أحد يعيش خارج حلقة الموت. لذلك سأكتب. فوحدها الكتابة تهزم الموت.

قبل عدة أيام جاء نوري أمين ليودعني. قال مبتسمًا: «سنذهب إلى شمال سقز. فرسان الشكاك والهركيين يجهزون أنفسهم أيضًا. هذه الجمهورية لوحة جميلة لكن الإطار صغير».

كاكه آغا، الضابط السوفياتي الآذري واسمه صلاح الدين كاظموف والذي حاز هنا رتبة العقيد، درب البيشمركة جيدًا على الرمي بالبندقية وقذف القنابل اليدوية ودربهم على المهام القتالية، كما درب العديد على قيادة السيارة، المقار العسكرية القديمة يعاد بناؤها مجددًا.

يقول جدي: «تكاد مهاباد أن تصبح معسكرًا للروس، أنظر يا بادين كيف أن الجميع صاروا يرتدون الثياب الكاكية اللون. الخياطون في مهاباد صاروا يشكون آلام الركبة وقد انحنت ظهورهم من كثرة ما يخيطون من بدلات عسكرية جلبوا قماشها من باكو».

يشاع أن القاضي محمد سيسافر إلى تبريز. الآذريون يثيرون القلاقل وهم يتحينون الفرص لابتلاع مدن خوي وأورمية ومياندوآب.

دالية العنب ما تزال غارقة في نومها ولا علم لها بالربيع. تبدو وكأن الشتاء قد استوطن جذعها وجذورها وأغصانها. السليمانية من جديد تقع في فخاخ الخيال مثل حجل يصيح عاليًا،.

كان ذلك عام ألف وتسعمئة وثلاثة وأربعين، نهاية شهر تموز الحار، غابت جاله. صارت مثل كرة ثلج وذابت على نار جنوني. أكانت حلمًا؟ لا. أكانت حقيقة؟ لا. فماذا كانت إذًا. غادرت ولم تشا أن تضمد رأسي الجريح بخرقة. أقلت رأسي الجريح؟ ماذا عن القلب إذًا! تركت فقط ورقة خلفها كان مكتوبًا فيها: (I am sory). ذلك الجنون، وتلك القبلات وذلك الجحيم الملتهب تنتهي بثلاث كلمات إنكليزية؟

أين أنت يا آلهة الانتقام؟ يا أمواج الحقد الأسود طهري هذا القلب المحطم من ذلك الحب المنهار.

بعد رحيل جاله، صرت أذهب إلى اجتماعات هيوا مثل السكارى. كانت نظراتي تصطدم بالجدران وتُسجن فيها. انتبه إلي نوري أمين، صار يمسك بيدي ويأخذني للسير في شوارع السليمانية ويواسيني:

يا حيف عليك يا بادين. ستُجن من أجل فتاة! ألا تشعر بما يجري حولك؟ انظر كيف أن ملا مصطفى هرب من السليمانية دون أن يكون معه فلس واحد. هل سمعت أنه باع الرشاديات المعلقة على كوفية زوجته ليتدبر معيشته؟ أين أنت من كل هذا يا بادين. اليوم هو يوم الدعوة للحرية. قوي قلبك قليلاً يا رجل.

يا نوري، جاله هي حريتي، هي ثورتي. جاله هي وطني.

وبكيت.

في ذلك الوقت كانت علاقاتنا قد صارت متينة مع زى كاف، جمعية

إحياء الكرد. كان ميرحاج الزاخولي قد سافر إلى مهاباد واجتمع في بستان أمين الإسلام مع مؤسسي زى كاف ووقع معهم معاهدة تحت شجرة جوز.

فكرت عدة مرات في أن أغادر السليمانية وأذهب إلى مهاباد. كنت أرغب في الابتعاد عن السكين التي قطعت قلبي. كنت أبحث عن وسيلة أنسى بها جاله.

* * *

الفودكا.

رحم الله عظام ذاك الذي اخترع الخمر.

أي عقل كان في رأسه؟ لا شك أنه كان عاشقًا كسير القلب مثلي. وأنا؟ ماذا سأبدع سوى هذه الصفحات التي أسكب عليها جنوني مثل دماء جريح! كيف كنت سأدفن همومي لولا الخمر؟ لا القتل ولا العمل في صفوف هيوا ولا حتى مُجْدَه كان في إمكانهم أن يصبحوا مطرًا يهطل على نيران حب جاله. وحدها هذه الفودكا التي تناديني بصمت من الزجاجة، تأخذني إلى عالم مختلف،رحب، جميل، ملون، عالم يشبه حضن جاله. لولا الفودكا لعاديت الروس بكل ما أوتيت من قوة.

اختاروا من الصف الذي أدرِّس فيه ثلاثة طلاب ليوفدوهم إلى باكو: حسن حسامي، رحمان كرمياني و فتاة اسمها هَزار زَنْدي. هؤلاء كانوا الأذكى بين الطلاب. كان غياب هزار صعبًا لي لأنها كانت الرسول بيني وبين مُجْدَه. لأننا بعد أن فصلوا مُجْدَه من المدرسة وخاصمني كريم، كنا نتواصل عبر الرسائل..

* * *

بادين

هذه هي رسالتي الأولى التي أكتبها في حياتي. فاعذرني إن لم تكن لائقة بحبنا وبشوقي إليك. أرجو ألا تغضب من كريم. إنه يحبني ويحبك وهو لا يريد أن تتلطخ سمعتي. أنت تعرف أننا في مهاباد. لا أعرف ماذا أكتب لك. ليتني كنت شاعرة مثلك لأخرج الكلمات من كهوفها السرية. أنت مثل الحُواة يا بادين تُخْرِج على إيقاع أنغام أنفاسك ثعابين المفردات من جحور القواميس. أما أنا المسكينة؟ أكتب كل ما يخطر ببال قلمي.

من الأفضل أن أكتب لك عن حياتي السابقة في مهاباد، إذ لم أجد فرصة حين كنا نلتقي، ولم يكن ذلك ذنبي بل ذنبك..فما إن كنت تراني حتى كنت تسارع إلى القبلات والعضات.

سأبدأ من الآن. أنا الآن مشغولة برسم لوحة للقاضي محمد. سأعلق اللوحة في الصف. التلاميذ صرعوني وهم يسألون عن اللوحة. ها.. تذكرت، لقد انتخبوا من صفي بعض التلاميذ من بيوت الأكابر ليرسلوهم إلى باكو. هل أخذوا من عندك أيضًا؟

اليوم جاء آباء بعض التلاميذ وقالوا:« نرجوكم لا تأخذوا أولادنا الآن. انتظروا حتى ننتهي من حصاد القمح والشعير».

ماذا كنت أقول؟ نعم، سأحدثك عن مهاباد وحياتي فيها.

روحي:

مهاباد مدينة ساحرة ولو عاش فيها المرء يومًا واحدًا لأحبها من كل بد. أما أنا فأعيش فيها منذ عشر سنوات وأحبها كثيرًا(لكن ليس أكثر منك).

كان ذلك عام ١٩٣٠، قُتِل سمكو آغا وخورشيد آغا الهركي في شنو.

ساءت أحوالنا أنا وأمي. لم يتركنا الآذريون بحالنا. أما الآشوريون فكانوا سعداء بمقتل سمكو آغا. في أحد الأيام جاء كريم وقال: «استعدوا. سنتوجه إلى مهاباد».

وفي ليلة ظلماء خرجنا من شنو.

في مهاباد سكنا في حارة «خاري» ووجد كريم له ولعائلته بيتًا قريبًا من بيتنا. كان كريم بمثابة أب لنا. كان المهاباديون يكرهون الشكاك (هم إلى الآن هكذا. فالمهاباديون لا ينسون حوادث سنة ١٩٢٢. في تلك السنة دخل سمكو المدينة ونهبها مقاتلوه. الحكاية طويلة). أنا شخصيًا لا أفهم أمور التاريخ، لكنني لا أستطيع ألا أحب سمكو. كانت أمي تحدثني دائمًا عن زوجته جواهر خانم التي قتلت خلال إحدى المعارك.

ألم أقل في البداية إنني لا أجيد كتابة الرسائل؟ أنظر فلقد كتبت رسالتي كصفحة من التاريخ.

يغالبني النعاس أمام هذه النسمات العليلة. ها قد سمعت صوتًا. أعتقد أن لوحتي نصف المنتهية سقطت على الأرض. القمر يلوح كضرع بقرة تحلبها أصابع الليل السوداء. هواء نيسان يدفعني للنعاس..أعذرني لا أستطيع الاستمرار في الكتابة.

أقبلك.....مُجْدَه

***

كتبت ردًا على هذه الرسالة وأنتظر منها رسالة أخرى.

***

بادين وصلتني رسالتك. لكن أرجوك لا تكتب باللاتينية. لا أستطيع حل عقد تلك الحروف. صدقني بقيت حتى منتصف الليل وأنا لم أقرأ نصف رسالتك. تلك الحروف تمحو حلاوة كلماتك. إما أن تعلمني تلك الأبجدية أو فلتكتب مثل الآخرين. لقد كتبت في رسالتك:« سوف أتقدم لخطبتك». ماذا تنتظر إذًا؟ لقد أخبرت كريم. أنت تعرف أنه طيب القلب. بارك لي وقال أنتم أدرى بالأمر. تعال غدًا في الساعة الرابعة إلى حارة اليهود عند دكان إسحاق الصائغ..أقبلك..مُجْدَه.

* * *

اليوم ذهبت إلى موعدي. لم تكن مُجْدَه قد جاءت بعد. وقفت برهة أمام واجهة محل إسحاق الصائغ وتفرجت على الذهب: الأقراط، القلادات، الأساور، الخواتم ذوات الفصوص وعديمة الفصوص، قطع ماشللا، الخرزات الزرقاء، كانت تلمع. كنت أسمع حديثها. نعم للذهب حديث لكنه حديث صامت. لمعان الذهب حديثه. من خلفي تناهى إلي صوت أعذب من صوت الذهب:« طاب نهارك». كانت مُجْدَه. اشترينا خاتمين وتوجهنا صوب استوديو التصوير.

قال جدي مع ابتسامة حزينة: «كنت أعرف أنكما ستأتيان...» ودخل غرفة التحميض المظلمة. كانت مُجْدَه تنظر في الصور وفجأة ارتجفت يدها التي كانت تحمل صورة ولمعت في عينيها الدموع.

- مُجْدَه ماذا دهاك؟ خيرًا؟ أتبكين بدل الفرح والسعادة؟

- هذه صورة حارة خاري.

خطفت الصورة من يدها وأمعنت النظر فيها: حارة خالية، البيوت مهدمة وهناك الكثير من بقع الماء. كثيرون يمشون وهم يرفعون

سراويلهم وفي أيديهم بعض الأطفال على سطوح البيوت. بعض النساء يحملن الصرر على رؤوسهن ويخضن المياه. من ظلال الناس والبيوت يبدو الوقت قريبًا من غروب الشمس.

ودون أن أرفع بصري عن الصورة سألت: «يبدو أن هناك سيولاً. هل تذكرين؟»

- لن أنسى ما حييت.

- متى كان ذلك؟

- في سنة السيل قبل تسع أو عشر سنوات. ماتت أمي في الحادثة.

- لم تقولي لي ذلك.

- في هذه الصفحات كتبت واقعة ذلك السيل الظالم وتلك الجمعة السوداء. اقرأها، فلقد ظننت أننا سنلتقي متأخرين. ما تبقى من قصة حياتي سأكتبها لك فيما بعد.

- اعذراني. لدي عدة صور أصحابها مستعجلين عليها.

قال جدي ذلك وهو يخرج سريعًا من غرفة التحميض ويجلس على كرسيه.

- لا لا لا..كنتي تبكي! مؤكد أن كريم غير راض عن الموضوع. لا بأس اتركيه علي.

- لا يا جدي هي تبكي بسبب تذكرها لسنة السيل، ماتت أمها في السيل.

- هو هووووو. إن كان الأمر هكذا ففي حياتي «سنوات سيل» كثيرة تصل الستين. لا تأسيا على ما فات. أنتما في ريعان الشباب.

اقترب صوت أميرال آغا، ضحك جدي وقال:« أتعرفون أن هذا المجنون أعقل من نصف عقلاء مهاباد؟ لقد عرف الداء وعرف الدواء أيضًا. لكن خياله واسع جدًا. بجرعتي ماء لا يمكن صنع البحر».

- لا. بل يمكن صنع المحيطات أيضًا. سترون.

مع عبارته هذه دخل أميرال آغا إلى الاستوديو. سكبت كأس الماء في سطله وسألته:

- ألن تحتار في تأمين سفينة؟

قريبًا ستسمعون هدير الأمواج. أما السفينة فمن سيصنعها إن لم يكن الأرمن؟ ألا ترون أن كل سائقي مهاباد أرمن! إنهم يعرفون لغة الحديد. ولولا الحرج لاستبدل القاضي سائقه كاك أحمد بآكوب أو آرام! نعم الأرمن يجيدون لغة الحديد لكن الترك تكلموا معهم بلغة النار. والنار تغلب الحديد. هل أنا مخطئ أيها الأرمني العجوز؟

ثم مال علي وهمس في أذني:« تعال إلى بيتي، لتسمع أنت ما أسمعه أنا». كانت الشمس توشك على المغيب. نهضنا أنا ومُجْدَه لنخرج، فقال جدي:« تعال إلي الليلة يا ولدي. سأدعو آكوب أيضًا، عنده قنينتان من الفودكا جاءتاه من يريفان سنفتح بهما أبواب قلوبنا على مصاريعها».

- نعم يا جدي.

قلت وخرجنا أنا ومُجْدَه. في الطريق وقبل أن نصل إلى الزقاق الذي تسكن فيه مُجْدَه، سلمتني بضعة أوراق أخرى وقالت:«في هذه الصفحات يوجد فصل مر من فصول حياتي، ربما ينفعك». وافترقنا بنظرات مليئة بالتضرع.

***

بادين،

لا تبتهج كثيرًا لأن هذه الرسالة ليست تلك التي تقرأ فيها سطور حبي. هذه صفحات من حياتي أذرفها أمامك كحفنة دموع. وكما قلت لك سابقًا فأنا لست شاعرة مثلك لأعبر عن أوجاعي. فاعذرني إن لمست ضعفي ورداءة تعبيري. لا أعرف من أين أبدأ! صرت مثل زق الرّحَّل الممتلئ بالمخيض ما إن تهب ريح حتى أهدر. أأحدثك عن موت أمي؟ إنها قصة ألم وحزن والأفضل أن تعرفها.

كان ذلك يوم جمعة، أتعرف أن الأفاعي تبدل جلدها في أيام الجمع؟ نعم ففي تلك الجمعة أصبحت الطبيعة ثعبانًا تنسلخ عن جلدها. كان ذلك قبل تسع سنوات، كان كريم ذاهبًا إلى مسجد عباس آغا.

أتذكر التفاصيل وكأن ما جرى، جرى أمس. كانت أمي قد أعدت لنا طعام كاله‌جؤش، كريم يحب هذه الأكلة كثيرًا. اسأله إن لم تصدقني. إنها أكلة مهابادية حيث يخلطون المخيض مع السمن ويغلونه ثم يرمون فيه قطع الخبز إلى أن يصبح مثل الثريد وهي طيبة جدًا. ما زال طعم ذلك الكاله جوش تحت لساني لكنه طعم خالطه طعم الموت.

فجأة لاحت غيوم سوداء من جهة الشرق، كانت سوداء مثل طفل مسح وجهه بالسخام، لم أكن شاهدت غيومًا سوداء كتلك. قصفت الرعود ولمعت البروق وصارت سماء مهاباد تبدو كأنها أصيبت بمس من الجنون،أصبحنا نظن أنها ستنهار. كان الأطفال يلعبون فرحين في الميادين الساحات أمام بيوتهم الطينية. كانوا يركلون المياه المتجمعة بأقدامهم العارية. تقدم سيل هائل من ناحية پردى سوور،صار يهدر كأن ألف أسد يزأرون دفعة واحدة، لم يستطع أي شيء مقاومته. حتى نوح ما كان ليقدر على أن ينجو من ذاك السيل.

فاض الماء على پردى سوور و پردى سپى، امتلأت الأمكنة جميعًا بالماء، عاد كل شيء إلى بداية التكوين على الأرض. أظن أن جنون أميرال آغا يعود إلى ذلك اليوم.

لم نشعر إلا ومنزلنا غارق في الماء. كم كان ذلك السيل ضيفًا ثقيل الدم؟ يقول الكُرد (روح شيرينه) أي الروح حلوة ولا أعرف كيف وصلت إلى سطح الدار! كنت كلما نظرت إلى السيل أدوخ. حاولت النزول لأن أحذيتي التي جلبها لي كريم من أورمية بقيت في الأسفل. لكنني شاهدت أمي وفي يدها سُلَّمٌ وهي تصرخ في:« يا مجنونة يا مقصوصة الشعر، ماذا تفعلين؟ إياك أن تنزلي». ثم أسندت السلم إلى الجدار وأرادت أن تصعد إليّ. السلم الذي كان غارقًا في الماء بمقدار ذراع انزلق فجأة وغابت أمي عن أنظاري. بقيت حائرة في الأعلى. لم أكن أستطيع النزول ولا البقاء. طاف منديل أمي الموصلي فوق الماء (الدموع محت هنا مقدار سطرين ولا يمكن قراءتها. بادين).

بعد ساعة هدأت ثورة السيل وسكنت. توجه السيل إلى نهر سابلاخ وهو يحتضن كثيرًا من العجائز والأطفال والمواشي. لا أدري كيف نزلت من سطح الدار وهمت على وجهي في الشوارع. كان كثير من الناس قد لجأوا إلى المساجد. فجأة التقيت بكريم فارتميت في حضنه باكية وقلت: «السيل جرف أمي».

لمدة أسبوع كان الناس يبحثون على ضفتي سابلاخ عن جثث أمواتهم. وكم كانت الفرحة كبيرة حين يكتشف أحدهم جثة قريب له. لكن أمي! آآآآه. وحده الله وذلك السيل الجائر يعرفان أين ذهبت. السيل أخذ أمي، وقبل ذلك ابتلع جبل آغري أبي، أما أنا؟ ممن سيزيل آثاري عن هذه الأرض؟

بعد فترة جاء رضا شاه إلى مهاباد (كان اسمها حتى ذلك الوقت ساوجبلاق مكري)، لكن وكما يقول الآذريون (تويدان سونرا نقاره!) يعني: أبعد انتهاء العرس تأتي الآلات الموسيقية؟. ما استفدناه من زيارته تلك كان تغيير اسم ساوجبلاق مكري إلى مهاباد.

لم أعد أتحمل البقاء في مهاباد بعد ذلك. في نهاية الأمر وجدوا جثة أمي وقد علقت بشجرة. أخذني كريم لفترة إلى شنو لأنسى الحادثة. كنت اشتاق إلى قبر أمي شمال حديقة القاضي لكننا لم نعد.

كثر من المهاباديين يؤرخون وقائع حياتهم بتلك السنة. ألا تصدق؟ اسأل أي تلميذ لك: «متى ولدت؟» فسيجيبك أنه ولد إما بعد أو قبل أو في سنة السيل.

أقبل عينيك. مُجْدَه

* * *

في أوراق مُجْدَه الأخرى وجدت هذه الرسالة:

«عزيزي بادين،

أشتاق إليك. لقد ألفتك وتعودت عليك. لا أستطيع أن أكون على علاقات صميمية مع زميلاتي في مدرسة پەروانه. التلميذات يحببنني جدًا. يحببن الصور واللوحات التي أرسمها لهن. يحببن الألوان التي تنتج عن مزج عدة ألوان. اليوم رسمت على اللوح علم الجمهورية. انحنت التلميذات على دفاترهن كما تنحني الفراشات على أزهار الربيع ورسمت كل واحدة منهن بأصابعها الرشيقة علمًا. أما أنا وحياتي؟ فالرسام الأكبر (الله) نقشها بألوان حالكة مرة. جئت أنت فسكبت ملعقة عسل في مصبغتي. لولاك لما استطعت أن أطيق الحياة في مهاباد ولو ليوم واحد.

في رسالتي السابقة حدثتك عن عام السيل وقلت أننا رحلنا إلى شنو. عدنا قبل أن تبدأ الحرب الكبرى. كان كثير من المهاجرين الديرسميين قد نزحوا إلى هناك. كان بين هؤلاء النازحين رجل مجنون، كفه اليسرى محنَّاةٌ دائمًا، لم يكن يتحدث إلا عن الحناء ويقول باستمرار: «لم يبق حناء في ديرسم». كان يتجول على البيوت ويشحذ الحناء لذلك أطلقوا عليه لقب شحاذ الحناء. ثم اختفى فجأة فقال بعض الناس إنه توجه إلى ديرسم وقتل عند گەڤەر، لكن تاجرًا من شنو كان يقسم قائلاً: «لقد رأيته بعيني في مدينة السليمانية».

مع بداية الحرب الكبرى عدنا من شنو. كان كريم قد أتى بعائلته أيضًا معه. كان يقول: « صحيح أن المهاباديين لم ينسوا عام سمكو ويكرهون الشكاك، إلا أنه ليس من حل آخر. شنو قريبة من الحدود وإذا خرجت دبابة روسية من باكو فإنها ستسحق الجميع». لم يكن يعرف ماذا يخبئ القدر له. أنا وأمه العجوز وزوجته وولداه، سرنا خلفه وأتينا إلى هذه المدينة. على ضفة نهر سابلاخ دبر بيتًا بقينا فيه ستة أشهر إلى أن أغارت طائرات روسية على تلك المنطقة. كان ذلك قبل أربعة أعوام. كنا بين الحقول حين شاهدنا الطائرات الروسية. كانت تحوم مثل صقور الصيد. وبدأ القصف....

ارتفع الدخان فوق أسطح البيوت.صرخ كريم وكأن شريانًا انقطع من قلبه، ورمى المنجل من يده وركض صوب المدينة دون أن يلتفت وراءه. كانت امرأته وطفلاه قد تحولوا إلى أشلاء. وكان دماغ ابنه الصغير إسماعيل يسيل على جدار متهدم. ماتت أمه كمدًا. كانت ترى ابنها الثاكل فتبكي. أما كريم فكان صامتًا على الدوام، وحينما كان يتكلم كان يقول: «لولا دماء الأبرياء لما صار الكريملين أحمر اللون».

الروس قادمون.

بسرعة صاعقة، انتشر هذا الخبر في مهاباد، كان المسنون قد خبروا الروس وشاهدوا أفاعيلهم. لم يكونوا قد نسوا سنة دخل الجنرال ريباجينكو إلى مهاباد. بقي أهل مهاباد في بيوتهم من الخوف. هرب رؤساء العشائر وموظفو الدولة. فرغت مهاباد مثل حقيبة ينفضها المرء. الواقعة تكررت. أراد الروس أن يستميلوا الناس إلى جانبهم فوزعوا كل الشاي والسكر والتبغ الذي كان مخزنًا في عنابر الدولة على الناس. صار الأمر كأنه عرس وحتى الذي لم يكن مدخنًا كان يملأ جيوبه تبغًا. أما كريم فكان كل يوم حين يحل الليل في المدينة يذهب إلى قبر أمه وولديه إسماعيل وجعفر في مقبرة بوداق سلطان ويشعل شموعهم. إن لم أكن مخطئة فإن منظمة زى كاف قد تأسست في ذلك العام.

أشعر بالنعاس الآن. طابت ليلتك بادو....أقبلك..
مُجْدَه.

المصباح الثاني

خافت وشاحب، قليل الضوء وكأنه ليس مصباحًا
أصفر كالموت.

١٢ نيسان ١٩٤٦

مهاباد

كتبت فيما مضى أن حياتي في مهاباد تشبه العيش داخل رواية. وهناك كثير من الأحداث تقع لا يمكن حدوثها إلا في القصص. أمس مساء ذهبت إلى بيت جدي في حي الأرمن، كان آكوب الخمار يغني وقد احمر وجهه مثل أفق غابت عنه الشمس حديثًا. كان السكر قد تعتعه بينما كان جدي يسخر منه، يرقص بجانبه ويفرقع أصابعه ويقول:« ايه يا دبي ايه....فلتصبح أرمينيا فداء لخصيتيك».

كان آكوب السكران يرمي بنفسه على الأرض، يحبو ثم يهب واقفًا على قدميه فجأة ويعوي. ملأ جدي كأسي وقال:« آكوب هذا حمارٌ في الشرب. لقد فتّتَ كبده». صرخ آكوب:« يا خصيتي يا أنترانيك! فلينكح القسيس أمك، ألا تعرف أن فودكا روسيا كلها لا تكفيني؟ إن لم أشرب فمن الذي سيشرب يا ضرطة؟ أبي، أخي، وأمي..تدحرجت رؤوس الثلاثة مثل ثمار القرع على مصطبة بيتنا في خربوط. قلت مثل ثمار القرع أليس كذلك؟ لا أنا مخطئ. بل كانت مثل ثلاث خرزات تتدحرج من قلادة إله أخرس. أما أختي..آآآآآآآه، فقد اجتمع عليها عشرة أشخاص ومزقوا ثوبها، كان أبي قد اشترى ذلك الثوب من قارص. كنت في الخامسة من عمري ولم أكن أفهم لماذا يمزقون ثوبها وينزعون سروالها. كانت أختي في الثالثة عشرة وكان عشرة رجال قد اجتمعوا عليها».

صار آكوب يبكي إلى أن خفت صوته رويدًا رويدًا واستسلم للنوم.

- هذا هو حاله كل ليلة. لقد فقد رجولته أيضًا.

- هل صحيح ما تحدث به؟

- يا بادين صدق كل ما يقال. لقد شاهدت حوادث أسوأ وأقسى من هذه. أنا شاهد على وحشية الإنسان. لا أعرف لماذا الدم رخيص إلى هذا الحد؟ المسلمون، اليهود، المسيحيون، الكرد، الروس، العرب، العجم، الآذريون، الأرمن، الترك، الخراء، الروث كلها أسماء مجموعات لحيوانات مفترسة. حتى الله لا يعرف لماذا لا يطيق الناس بعضهم بعضًا؟ يا ولدي، بقدر ما أعرف أن الكرد ظلموا الأرمن فأنا أعرف أن الأرمن أيضًا ظلموا الكرد. لو سنحت لهم الفرصة لشربوا دماء الكرد. أنا بنفسي كنت أرمي بؤساء الكرد في رواندوز إلى النهر. نعم أنا. الحقد يعمي الإنسان، والروس كانوا يغذون الأحقاد في قلوبنا ليحاربوا العثمانيين بنا. والألمان كانوا يحاربون الروس بالعثمانيين، والعثمانيون كانوا يربون الكرد في حظائرهم ويسمنونهم ليوم مثل ذلك اليوم. والحاصل أن هذه القضية مثل الروث كلما حركته فاحت رائحته النتنة.

شرب جدي عدة جرعات من الفودكا، مهد مجلسه ثم قال:

«أنا أعرف كيف تفكر يا بادو! أنت حامي الرأس متحمس، ليس لأنك شاب بل لأنك جاهل. لديك آمال كثيرة. وقد انشغلت بالسياسة أيضًا، وانضممت إلى الأحزاب. لكن هذا باطل كله. الزمن هو الحزب الأعظم يا ولدي. كن عضوًا في حزب الزمن دون أن تلبسه أي ثوب. أنت تفهم أليس كذلك يا حَمَلي؟ الحزب ليس إلا قوقعة ضيقة للإنسان. الحزبي لا يفكر. لماذا؟ لأنه يسير وراء قائد. الحزبي مثل الصورة تبقى

جامدة دائمًا. فإذا كان من في الصورة مبتسمًا فستبقى الصورة هكذا، أما إذا كان من فيها حزينًا فستبقى الصورة حزينة. وكذلك الأديان. نفس الروث. نوووش».

قرع كأسي بكأسه واستمر يقول:« لو توفرت هذه الفودكا ومابين أفخاذ النساء من متاع أملس دافئ عارٍ، فلا أهتم بأي شيء في الدنيا. أجل النساء. لكن ليس أية امرأة كانت منهن. ليست أم الأولاد التي جاء بها إليك عقد زواج. لا. الزواج أصلاً هو الحزب الأكثر ضيقًا بين باقي الأحزاب. صار لي ثلاثون عامًا أعيش بلا زواج لكنني عرفت نساءً بقدر هموم قلبك: كرديات، عربيات، تركيات، روسيات، أرمنيات ومن جميع الشعوب التي لن تخطر على بالك. لقد مرت العشرات من النساء تحت خصى جدك. أنا لم أحب ولم أجعل نفسي أسير جمال أي فتاة. الحب أيضًا حزبٌ. ما هي تلك المرأة التي تعمي عينيك عن باقي النساء؟ كانت هناك امرأة بغدادية كلما جامعتها نادت: يا شيخ عبد القادر، يا سيدي حسن، يا لا أدري ماذا. لم يبق ولي ولا نبي لم تستغث به تلك المرأة، أما أنا فكنت أستغيث فقط بالأفندي وهو كان يستجيب لطلبي». كنت أعرف أن جدي بدأ يسكر لكن كلماته كانت تزداد عمقًا كلما ازداد سكره. أي سر في الخمرة لا تدع عثرة أمام اللسان إلا وتزيلها؟

لمحت عينا جدي ديوان وفائي، كنت أضع كأسي عليه، قام فجأة ووضع الكأس في يدي ثم أزاح الكتاب وقال:

«يا جحشي هذا أيضًا باطلٌ. إن كان ولا بد من القراءة فأقرأ رباعيات الخيام. لقد قرأت حِمل عشرة بغال كتبًا. ماذا تقول الكتب؟ إنها تزيدك جهلاً وتبعدك عن الحياة. إن الحياة التي تعيشها والأحداث التي تمر عليك هي الكتب الحقيقية. أن تعيش سنة واحدة في الغربة يقابل مئة كتاب عن الغربة.

شهر تعيشه في أتون الحرب يقابل مئة رواية عن الحرب. قرأت رواية روسية عن معركة ساري قاميش، كان كاتبها قد عاش تلك المعركة وعاينها بنفسه، وأنا أيضًا شاركت في تلك المعركة على الطرف المقابل. لكن تلك الرواية؟ صدقني كانت مثل رجل أخرس يريد شرح فلسفة أرسطو. من ذا الذي يقدر على وصف تلك اللحظة الفاصلة بين الموت والحياة؟ من يقدر على تصوير الرعب الذي تسببه قتبلة تنفجر بجانبك؟ من هو ذاك الذي يمكنه التعبير عن مشاعر رجل يرى رأس صديقه يتطاير في الهواء، رأس صديق كان يتحدث معه قبل لحظات ويدخن السجائر؟ من يستطيع أن يصف لنا أحاسيس أولئك الذين ماتوا مع أطفالهم الرضع في الكهوف المسدودة المملوءة بالدخان؟ إياك يا ولدي أن تظن بأنني أريد أن أثنيك عن طريقك وأدخل اليأس إلى قلبك. لقد عرفت أنت دربك، وها أنت مقبل على الزواج لكنني آمل أن تتوسع آفاق أفكارك، أملي هو أن ترى أبعد من ظلك».

كانتا عينا جدي ترفان كمن دخل حربًا ضروسًا مع النعاس. شاهدت أن سيجارته قد استحالت رمادًا وهي ما تزال في يده دون أن يشعر بها. سحب علبة تبغ أبي التي لا ينقص تبغها ولف سيجارة، قال وهو يبلل أطراف الورقة:

- هذا هو حالنا مع الدول الكبرى.

- لم أفهم يا جدو.

- أنت أيضًا حمار مثل أبيك. هو أيضًا لم يكن يفهمني مع أنني أتكلم الكردية.

كانت الفودكا قد تمكنت منه فجعلت دماغه مثل عجينة، تنساب منها

الأفكار كضباب الصباح. كنت أصغي إليه وأنا أرشف جرعات صغيرة من كأسي لئلا أسكر سريعًا.

الدول الكبرى تجعلنا نطمع تمامًا مثل يفعل صياد السمك: يضع قليلاً من العجين المسموم أو دودة في صنارة ويرميها في الماء، تأتي السمكة الحمقاء وتهرول صوب الصنارة وهوووووب! تعلق السمكة بالصنارة.

- لم أفهم مرة أخرى.

- ألم أقل لك أنك حمار، بل وابن حمار أيضًا. يا بني يجب أن أشرح لك بدقة حتى تفهم. يا ولدي هذه الجمهورية دودة في فم الكرد، إنها طُعْمٌ، الروس يبحثون عن النفط، صار لهم ثلاثون عامًا يحاولون الاقتراب من مياه الخليج وليس من المستبعد أن يعقدوا غدًا صفقات مع الشاه محمد رضا فيجرفكم أنتم مياه خصيات الرفيق ستالين. أأنت لا تستمع لأخبار راديو طهران أم أنك ختمت أذنيك بالشمع؟ ألم يحدث أمس أنْ اتفق القنصل الروسي في طهران مع البهلويين على نقاط انسحاب الجيش الأحمر من الأراضي الإيرانية؟

- الجيش الأحمر؟

- الجيش الخراء....

- وما الذي سيحدث؟ فلينسحب هذا الجيش. عندنا الكثير من البيشمركة.

- مالذي سيحدث؟ لن يحدث شيء يا حبيبي. سينكحون أمهاتكم ويرحلون.

وضحك جدي ضحكة مجلجلة، رفع كأسه وقرع كأسي

وهويقول:«آنوش يا بيشمركة».(*)

ضحكت حينًا وصمت وأنا أمعن التفكير حينًا آخر. ملأ شخير آكوب الغرفة فذهب جدي صوبه وركل بطنه فانقطع الشخير، وأردف:« هذا الدب ابن الدبية كلما شرب أصبح زقًا ينخضُّ حتى الصباح».

عند الباب فتح جدي أزرار بنطاله وبدأ يتبول. خلال تبوله التفت وقال:« كان أبوك نفس الحمار، عندما أنتهي من التبول سأحدثك عنه، فلتمطر عليه رحمة الله في هذه الليلة المباركة. لقد أرهقني كثيرًا».

ثم جاء واتكأ على وسادة، وقال وهو ينظر إلى الأرض:«كان جنديًا جديدًا في ساحة القتال وكان يردد -بالتأكيد لم يكن يعرف أنني أرمني-: « جئت لأجاهد الكفار»، جهاد فرج أمه كان ذاك. ترك العمادية وجاء إلى ساري قاميش ليبحث عن خرزات قلادة أمه! جهاد يا رجل! ابن الحمير. لقد نبت الشَّعر على لساني حتى أقنعته أن العثمانيين أشد كفرًا من الروس. ألا تصدق؟ انظر» ومدَّ جدي لسانه.

تراءى لي في أصل لسانه كتلة من الشَّعر نبتت هناك كما ينبت الشَّعر على شامة. حدقتُ فيها ولم أصدق عيني، فقال لي:«نعم يا بادو، هذا هو شَّعر الحقيقة، كل من يتفوه بالحقائق ينبت الشعر على لسانه. والذين نبت الشعر على ألسنتهم خلال التاريخ يعدون على أصابع اليد الواحدة». تحسست لساني في فمي بأسناني، لم أجد أثرًا للشعر، بينما واصل جدي كلامه:

«لولاي - صدقني- لما هرب أبوك من القتال. كانت في انتظاره جنَّةٌ وسبعون حورية حوراء بلحم شفاف في عمر الرابعة عشرة. بينما كان

(*) آنوش بالأرمنية مثل نوش الكردية تعني بصحتك..

الناس ينكحون أمهاتكم وأخواتكم كانوا يطمعونكم بنكاح الحوريات. ألا تبًا لكم».

تأخَّر الليل وصار جدي يتكلم بتثاقل. لكنه استوى جالسًا بشكل فجائي وكأنه ليس بسكران وقال:« لا تزعل مني يا ولدي، أنا لست سكران ولا يصيبني السكر مثل هذا الدب مهما شربت».

ثم سكب ما تبقى من الفودكا في جوفه وقال:«ليس للروس من فضيلة سوى هذه الفودكا، لو كانت الفودكا ألمانية لكنت نازيًا».

- بهذا المقياس أنت شيوعي إذًا؟

- شيوعي؟ لا تتبول على سهرتنا يا بادو ولا تحدثني عن هؤلاء الأوغاد.

- أردت أن أستفزه قليلاً لأطلع على أعماقه فقلت: «ماذا أنت إذًا إن لم تكن شيوعيًا؟».

- ماذا أنا؟ أنا عزفُ الناي على مسامع ثور الحراثة! يا ابن البغل صار لي ساعة وأنا أشرح لك: إنني رجل تحررت من قيود البشر، غسلت نفسي من قوميتي وديني بسبعة مياه، لست مواطنًا في أي دولة، أنا وهذه الفودكا والاستوديو. آمين. الاستوديو هي بلدي أرمينيا والفودكا رفيقي وقائدي وحزبي ومعبودي.

ورمى بالزجاجة الفارغة إلى الجدار.

* * *

هذا الصباح استيقظت متأخرًا. كان جدي وآكوب قد ذهبا إلى أعمالهما، تناولت قطعة من الجبن وقليلاً من المخلل مع نصف رغيف خبز ثم توجهت إلى المقهى.

* * *

١٣ نيسان ١٩٤٦

الوقت مساء. وفي الأمسيات تثور أحاسيس الشعراء مثل حبات كستناء تقرقع على النار، تستعر تلك الأحاسيس وتعض القلب الولهان. لكن هذه اليوميات التي أكتبها تقطع الطريق على الشعر. أنا أريد أن أبسط حياتي على هذه الأوراق العارية مثل روحي. فالموت مستمر في دق ناقوسه أمام أذني، إنه يدعوني إليه.

ما زال في غرفتي قليل من برد الشتاء الماضي، كما أن عظامي نفسها قد خزنت البرودة لكنني أتدفأ على ذكرياتي في السليمانية والعمادية وتلك المدن التي كانت تلوك أيام عمري كقطعة لبان. مضطرًا أمد يدي إلى القلم الأخرس، القلم الذي لا يجيد إلا كتابة الفجائع.

هذا الصباح، كما صباح أمس، استيقظت متأخرًا، كان جدي قد توجه إلى الاستوديو تاركًا الفطور وراءه. تناولت قطعًا من الجبنة واللبنة بالزيت وبضع حبات من الزيتون مع رشفات مستعجلة من الشاي ثم أسرعت إلى المدرسة.

لقيني المدير رشيد عزيزي، فقال معنِّفًا وهو يجعل من تأخري حجة: «أنتم البارزانيون من الكرمانج السود، لا تتقنون سوى حمل البنادق وصعود الجبال، ما لكم وللمدارس، ها؟» ثم قال بفارسية فصيحة: « اينجا دبستان است آغا! ميخانه نيست!»(*). رددت عليه قائلاً: « شرف عظيم لي أنني كنت بين صفوف البيشمركة لكن الذي لا تعرفه هو أنني أتقن التدريس أكثر من حمل السلاح، أما أنت؟ هل تجرؤ على أن تخطو خارج بيتك ثلاث خطوات في الليل؟» ودخلت الصف.

(*) هذه مدرسة يا سيد وليست خمارة.

بعد انتهاء الدروس ذهبت إلى المقهى. كان كريم الشكاكي هناك، عابسًا متجهمًا ينظر صامتًا صوب الشمال. ألقيت عليه التحية وجلست بجانبه لأغوص معه في بحيرة الصمت. بعد أن مرت هنيهة هززت أغصان الحديث وسألت:« ما بك يا كريم؟ أما زلت غاضبًا مني؟».

ودون أن يحيد ببصره عن جهة الشمال قال:« أنا لست زعلان منك وأبارك لكما أنت ومُجْدَه. لكنني مشغول هذه الأيام».

- خيرًا؟
- ألم تسمع؟
- ماذا؟ ما الذي جرى؟
- الجيش الأحمر ينسحب.
- من قال ذلك؟
- قبل أن تأتي أذاعت البي بي سي الخبر في نشرتها الفارسية.
- أأنت حزين؟
- لا، لكنني أخاف يا بادين. الجمهورية تكاد تنهار. سيبيعنا الروس.

نطق كريم جملته الأخيرة بصوت لا يكاد يُسمع. حاولت أن أواسيه وأواسي نفسي فقلت له:« لا يمكن أن يفعلها الرفيق ستالين، لا تصدق أخبار تلك الإذاعة الكاذبة». ثار كريم وحدجني بنظرة حادة ثم قال :«ستالين قتل زوجتي وأولادي، وسيخنق هذه الجمهورية أيضًا في المهد. سترى».

- أهي لعبة أطفال؟ وتلك العهود والمواثيق و......

- وروث الحمير....أصلاً العهود تخدع الكرد، إن تصديقهم للأيمان والمواثيق صار وبالاً عليهم، صدقني يا بادين لست أقول ذلك تشاؤمًا لكنني أراقب وضع هذه المنطقة منذ مدة وأعلم ماذا يطبخون لنا وراء الكواليس.

- لا تبالغ يا بادين، ليس الأمر كما تصوره.

- إنني أنظر بقلبي إلى الوقائع لا بعيني. هذه الجمهورية مثل قطعة سكر تضعها في فم طفل كي لا يبكي وإن هدف الروس هو نفط الشمال، لا يشكل الكرد شيئًا في حساباتهم يا عزيزي. وقد استغل الروس ازدياد عدد أعضاء منظمة الكومله واتساع تأثيرها فوضعوا يدهم عليها حتى لا يستحوذ عليها الإنكليز. لا أحد يتحالف مع الكرد لأجل سواد عيونهم. نحن ننخدع سريعًا.

- أخبار البي بي سي مغرضة.

- أصلاً مثل هذه الأخبار تعطيك نصف الحقيقة والنصف الباقي يتوقف على وعيك وإدراكك المنفتح أو المنغلق.

رأيت أن كريم لا يتزحزح عن موقفه وقد استبد به الغضب، لم أكن أريد أن يخاصمني مرة أخرى فوجهت دفة الكلام صوب جهة أخرى وسألته بخجل:« كيف ترى موضوعي أنا ومُجْدَه ؟».

- قبل قليل باركت لكما.

- يعني باعتقادك ما هو أنسب تاريخ لزواجنا؟

- الزواج! يا بادين الزواج ليس سهلاً وأنت تعرف أية أوضاع نعيشها. أصبر قليلاً ريثما تتبين الأمور.

- وأنا أعرف أن الزواج ليس سهلاً لكن وَهَنَ القلبُ مني يا

كريم. لم يعد للقلب طاقة على التحمل. لقد جهزت نفسي، كما منحني الملا مصطفى حوالي ثلاثمئة تومان لأصرفها على زواجي ولدي بيت يسترني، ماذا بعد؟

- لا تستعجل الآن، بإمكانك أن تخطبها ثم نرى. إنني عازم على العودة إلى شنو.

أوشكت أن أسأل: «ومهاباد؟»، حين سمعت جلبة أميرال آغا لدى دخوله المقهى. انتبه الجميع لذلك. بدأ بالتقاط أقداح الماء ككل مرة وسكبها في سطله، ثم توجه للجالسين قائلاً:

« لا تحزنوا. أنا أيضًا سمعت الخبر. فلينسحب الجيش الأحمر. إنني أجهز لكم جيشًا أزرق تعادل قوته عشرة أضعاف قوة الجيش الأحمر وربما أكثر. سنجعل مهاباد جزيرة. فهل تستطيع دبابات محمد رضا أن تسير على الماء؟ ألها قدرة النبي عيسى؟ حتى لو أغارت الطائرات على مهاباد فإن الطيارين سيدوخون وستحجب الأمواج وهديرها الرؤية عنهم فيسقطون في الماء..لا تحزنوا»، ثم أراق سطل الماء على أرض المقهى، أنزل سرواله وأشار بيده إلى ما بين فخذيه قائلاً:« هذا هو الجيش الأحمر».

زقزقت الكراسي تحت زبائن المقهى، انتشرت هستيريا الضحك حتى اهتزت الطاولات أيضًا وارتطمت كؤوس الشاي بفناجين القهوة. أمسك كل واحد بخصره وضحك ناظرًا إلى السقف بعيون مغمضة. وحده أميرال آغا لم يكن يضحك. ارتدى سرواله وخرج تاركًا السطل وراءه.

خرجنا، كريم وأنا، من المقهى ضاحكين.

ويااللدهشة! كان كل من نصادفه يضحك بشكل هستيري حتى حمير القرويين كانت تضحك مظهرة أسنانها. أصحاب الحوانيت، الأطفال بأسمالهم البالية من الذين يلعبون في زاوية كل شارع، البيشمركة، الفرسان، النساء في العباءات السوداء، وحتى الأشجار والثمار الكل كان يضحك.

كنا نسرع لكن الضحك كان يبطئ من سيرنا إلى أن وصلنا إلى استوديو جدي. وياللهول! ما هذا يا إلهي؟ كانت كل الصور التي في الواجهة تضحك ما عدا صورة القاضي محمد في وسط الواجهة فقد بدا حزينًا بتلك اللحية الخفيفة وذلك الوجه النحيل. سيطر علي الخوف فنظرت بزاوية عيني إلى كريم. كان هو الآخر يحدق في الصورة. سمعنا صوت ضحكات جدي وآكوب من الداخل. في تلك الأثناء عرجت على محل بائع الحبال، كان عابسًا ككل مرة يحمل في يده حبلاً لا هو بالرفيع ولا هو بالثخين يلعب به كمن يلعب بمسبحة ويصنع عقدة. ودون أن يرفع عينيه عن الحبل سأل:« ماذا تريد مرة أخرى؟».

دواء لإيقاف الضحك.

قلت لنفسي إنه سينهض الآن ليصرخ في وجهي، لكنه رد علي بجدية: «هذا الحبل. هذا الحبل سيوقف ضحك المهاباديين». ضحكت أكثر.

* * *

قبل أن تغرب الشمس ذهبنا أنا وكريم في مطبعة كردستان. كانت الطابعة تقرقع مثل عفريت يقهقه. تذكرت طابعة الشيخ محمود التي كانت تتعرض للصدأ في الكهوف والإنكليز يبحثون عنها أكثر من بحثهم عن الشيخ الذي كان يكتب عليها رسائله التي لم تكن تصل إلى أي عنوان.

طبع رسائله الثلاثة التي بعثها إلى لينين والحكومة السوفياتية بتلك الآلة الطابعة. خلال زيارتي للشيخ أطلعني على نسخة من كل رسالة. كانت الرسالة الأولى تحمل كثيرًا من الاعتزاز بالنفس والثقة العالية، ومما جاء فيها:« نحن الكرد نمد إليكم يد الأخوة والصداقة. ولأجل أن نعزز قدراتنا فإننا بحاجة إلى بعض الطائرات والمدافع والبنادق. نحن الكرد مستعدون لمساعدتكم بالمال والروح» لكن الرسالة الثانية خففت من تلك اللهجة التي تعبر عن الثقة الزائدة بالنفس وجاء فيها:« نأمل أن تأتي لجنة مستقلة إلى كردستان لترى الأعمال الوحشية التي ارتكبها الإنكليز» أما الرسالة الثالثة والأخيرة فقد طالبت فقط بالعدل والإنصاف! السوفيات من جهتهم لم يرسلوا لا طائرات ومدافع، ولا بعثوا لجنة ولا أنصفوا الكرد. كان الشيخ محمود يقول بتحسر:« ماذا نفعل؟ إن دماء الكرد رخيصة في أسواق الدول جميعًا».

دخلنا إلى غرفة معتمة، كان هژار و ه‍امن هناك وفي يد كل واحد منهما ورقة يقرأ منها لمصفف الحروف. حينما لمحانا نهضا ومدا لنا كرسييهما الخيزران ثم عانقنا هژار بحرارة وقال:« أنا أحب البارزانيين، ليسوا فقط مقاتلين، إنهم شعراء أيضًا، الجمهورية بدونهم قطعة من الفحم». وضحك كل من هناك.

كان هژار قد جلب معه بعض السكاكر والكليجة بمناسبة عيد ميلاده، صادف ذلك يوم مولد ه‍امن أيضًا والذي جلب معه بدوره كيسًا صغيرًا من قند كرمانشاه. باركنا لهما وتناولنا تلك الحلويات بسرور.

كان صديق انجيري مسؤول مجلة هاواري نشتيمان أيضًا هناك ومعه نسخة جاهزة من المجلة للطباعة. دوّختنا الطابعة الألمانية التي كانت من نوع روتاري، لا بل هي روسية ولكن بعض قطعها ألمانية، بصوتها الشبيه

بقهقهات عفريت خرافي.

لم يكن أحدنا يسمع صوت الآخر (بدون ذلك أيضًا لا يسمع الكردي صوت الكردي) فاضطررنا لنذهب لمكتب مدير المطبعة حسين ميكائيلي الذي رحب بنا وقال:« لقد أتتنا هذه الطابعة من تبريز قبل أربعة أشهر لكننا أنجزنا بها عمل عشر سنوات. لو كانت لهذه الطابعة فم تتحدث به لشكتنا إلى الله. أليس من العجيب أنها تعلم الإنسان حلو الكلام وهي نفسها خرساء!»

تنهد هيمن وقال:« لو كانت هذه الآلة موجودة في كردستان قبل مئة عام لما ضاع أي كتاب من كتبنا بلا شك».

رد حسين ميكائيلي:« الآن صار في الإمكان حفظ آدابنا وثقافتنا بفضل أصدقائنا الروس و..»، لم يتمالك كريم نفسه وقال:«يا أستاذ.. الفضل ليس لهم. فهذه الماكينة يمكن شراؤها بالمال وهي موجودة في كل المدن. لكن بفضل دمائنا الحامية التي كانت تغلي في عروقنا أتت هذه الماكينة إلى مهاباد». اكفهر وجه حسين قليلاً، ورأيت عدم الرضى عن حديث كريم في وجه كل من هيمن وهژار أيضًا فقلت:« فلنترك الحديث عن الطابعة الآن، ولنر العدد الجديد من صحيفة كردستان».

* * *

أنا الآن في غرفتي. كتبي تصطف صامتة مثل جنود في وحدة عسكرية، في كل كتاب نداء خفي. ديوان وفائي المكتوب بخط قادرى مدرسي، ديوان حريق، ديوان أدب الذي نشره بشير مشير الخياط سنة ١٩٣٩ في بغداد، أعداد من مجلة نشتيمان.

مع نسيم هذا الليل المتأخر ورائحة الربيع وعطر الأزهار ينتابني

النعاس، لكن صوت جارتي الحزين لا يدعني أنام.

تذكرت! حينما كنا في المطبعة سألت عن قصة هذه الفتاة من هژار، فقال:« إنها أخت حَمَه رسول ميكائيلي، وكان شابًا محترمًا ومدرسًا للغة الفارسية في مدرسة السعادة. عشق الفتاة ويلما ابنة الدكتور ويناتان حاتمي وكانت فتاة مسيحية ومن أجمل الفتيات في مهاباد. وكانت فتاة تمشي حاسرة الرأس وترتدي الثياب الأوربية. صار حَمه رسول يلازمها مثل ظلها، يلاحقها أينما ذهبت ».

كانت ابنة ويناتان؟

نعم ويناتان. بيته قريب من ميدان جوار جرا في شارع شير وخورشيد، خلف بيتنا. ويناتان كان تلميذًا لجوزيف كوچران الذي كان طبيب الشيخ عبيد الله النهري في أورمية. أما ويلما فكانت معلمة في مدرسة پرماس للبنات (اسمها حاليًا پروين وتدرس فيها مُجْدَه) لم يبق أحد في مهاباد لم يعشقها. لكن حَمه رسول جُنَّ بها، تاه وهام على وجهه في البراري. اضطر أهله لأخذه للعلاج في تبريز وطهران عدة مرات. لكن من ذا الذي يمكنه مداوة الحب؟ كان حَمَه رسول درويشًا ذكرُه وأورادُه هي ويلما.

وذات يوم كان في إحدى صيدليات مهاباد لأجل شراء دواء له، فجأة دخلت ويلما أيضًا إلى الصيدلية، وحينما لمحها حَمه رسول غاب عن الوعي وسقط مغشيًا عليه، اجتمع عليه الناس ليعينوه على القيام، لكنه كان بلا طاقة، تدفق الدم القاني من أنفه. كان ثمة رجل عجوز له علم بقصة حبه، كاد أن يقتل ويلما من قهره وغضبه فقال بفظاظة: «انقلعي من هنا، اخرجي، لقد قتلت هذا الرجل». لم يصل حَمَه رسول إلى طهران ومات في الطريق.

- وماذا حصل مع ويلما؟
- هي الآن في تبريز. لا يهمها شيء.

مسحت دموعي وتمتمت ببيت شعر للجزيري:

لم أكن وحدي مجنونًا في الحب

ومن ذا الذي رأى حبًا لا جنون فيه؟

ها أنذا على ضفاف النوم. يتناهى إلى سمعي صياح الديوك. كانت جدتي تقول: «إن تحت عرش الله يا بادو ديكٌ يسمى دَنْگائيل حين يصفق بجناحيه ويصيح، تصيح معه جميع ديوك الأرض».

لقد تخدرت أصابعي من الكتابة. نفدت الأوراق البيضاء من عندي. سأذهب غدًا إلى القرطاسية، لا سأبعث أحد تلاميذي.

يقال أنه سيقوم حاجي مصطفى داوودي (وزير التجارة) ببيع تبغ مهاباد للروس. لماذا لا أبيع أنا أيضًا تبغ علبة أبي؟ يقول جدي: «لن يرحل الروس ما بقيت هنا حفنة من تبغ».

ليت التبغ لا ينفد.

ويقول أميرال آغا: «لقد أنشأ الروس هذه الجمهورية من أجل تبغها. والله وَالله ستالين بذاته يطالب بالتبغ ويقول: هل تشرشل أفضل مني؟ لقد استورد تبغ كويسنجق بالأحمال إلى لندن. فهل كثير علي لو أخذت من مهاباد قليلاً من التبغ لأجل غليوني؟»

* * *

- سأنضم إلى مقاتلي ملّا مصطفى.
- لا يا بادين. لا تستعجل. اسمع قرار هيوا ثم افعل ما يحلو لك.

قال نوري أمين ذات يوم من الأيام الأخيرة في عام ١٩٤٣. لكنني رددت عليه بحدة: « لن أتراجع عن قراري ولا أعرف هيوا ولا ميوا. هناك نار قد اتقدت علي أن أرمي فيها بعض الحطب. لم أعد أحتمل السباحة في مستنقع صراعات هيوا. بعضهم يساريون وبعضهم يمينيون، بعضهم موالون للإنكليز وبعضهم للسوفيات وبعضهم لمن لا أدري! يا رجل أنت تعرف كم أن رفيق حلمي يخاف الإنكليز ويردد دائمًا: «إنهم أقوياء أما الروس فهم بعيدون عنا». أليس هو الذي منع إيفاد الطلاب إلى موسكو؟ أليس هو الذي يقول يجب ألا تقع حرب لئلا تغضب بريطانيا؟ هل نسعى إلى رضى بريطانيا أم نناضل لأجل حريتنا؟ لقد سئمت هذه المدينة، لم أعد أحتمل يا نوري».

لكن نوري كان يعرف وجع قلبي، فقال لي:« لم لا تقول إن سبب تبرمك هو اختفاء جاله؟ إن الحقد على الإنكليز لا يأتي من فراغ يا بادين. لأنك انهزمت في حبك تريد أن تلقي بنفسك في النار. هل الحرب سهلة يا أخ؟ لو انضم كل عاشق خائب إلى البارزاني فإن كردستان ستفرغ من شبابها».

أرجوك يا نوري لا تنكأ جراحي. أنا لم أصدق أنها اندملت فلا تدعها تتفتح من جديد. إن قراري ليس عاطفيًا ولا بسبب فشلي في الحب. سأذهب حتى لو نزل الله إلى الأرض.

في اليوم التالي توجهت إلى حلبجة لأحل ضيفًا على ابن بلدتي مدرس الجغرافيا وصديق الطفولة والدراسة صادق بهاء الدين. في ليلة مثلجة أطلعته على نيران قلبي، لكنه نصحني نفس نصيحة نوري بعدم الانخراط في القتال وقال: « نوري على حق يا بادين. لا تذهب ولا تبتعد عن النشاط الثقافي. حرام أن يموت إنسان مثلك برصاصة

عمياء. انظر فأنا لست أقل منك عداء للإنكليز لكنني لا أترك التدريس بل أعلِّم الاطفال الكرد أن يعيشوا في الضوء أحرارًا، أنا لا أبين لهم فقط حدود كردستان لكنني أشرح لهم ظلم الجغرافيا وجور الحدود. إن شئت سأجد لك عملاً هنا في المدرسة».

نصائح الأصدقاء وحب جاله الذي لم يخمد ناره في قلبي وضع قيودًا ثقيلة في قدميّ، لم أكن قد شبعت بعد من التجول في أزقة السليمانية.

في اجتماعات هيوا كانوا يتداولون كثيرًا من الأحاديث عن البارزاني، كان البعض يقول:« إن الألمان حرضوه وهم يمدونه بالأسلحة فيلقونها له بالطائرات». بينما كان بعضٌ آخر يعتقد أن الأتراك يؤازرونه بسبب مسألة الموصل، لكن كثيرين كانوا يقولون:« إنه على طريق الصواب. فالإنكليز لن يتفهموا حقوقنا بالشكوى والمسكنة. علينا أن نريهم رأس العصا».

كانت الأخبار القادمة من جبهات القتال تنعش قلوبنا نحن الشباب. وكان البارزاني يتقدم يومًا بعد يوم وينضم إليه يوميًا أفواج من المقاتلين. سيطر على العشرات من النقاط العسكرية بعد سيطرته على ثكنة شانيدر وغنم المئات من المدافع الجبلية والبنادق. ماذا ننتظر بعد؟ كان حزب هيوا ينهار. وكنا نتصارع كالديوك في الاجتماعات. بدأ ظل ألمانيا ينحسر يومًا بعد يوم عن أوربا. وأصبحنا نجتمع يوميًا ثلاث مرات في المقاهي لنستمع إلى أخبار البي بي سي:

المقاومة في لينينغراد تصبح أكثر شراسة.

تحررت ستالينغراد واستسلم الجنرال الألماني فون باولوس مع مئة ألف من جنوده.

مدينة إيسن أصبحت أطلالاً.

لم يبق في كولونيا شيء. تم تدمير كاتدرائيتها الشهيرة.

أغارت خمس طائرات لانكستر على عمق الأراضي الألمانية فدمرت العديد من القواعد العسكرية.

لم يكن الإنكليز يريدون أن تنشب حرب محلية. فالسلام في لندن أكثر أهمية من حرية الشعوب. لم يعد هنالك مجال، فوافقوا على مطالب البارزاني وأبرموا معه عبر بعض الضباط الكرد في حكومة نوري السعيد اتفاقَ سلامٍ هشًا.

كان البساط يُسحب من تحت أقدام حزب هيوا يومًا بعد يوم، لم يعد الناس يثقون بأحاديث الحزب فالناس تحلقت حول النار التي أشعلها البارزاني فماذا سيفعل الكلام الذي لا طائل وراءه في مواجهة قصف المدافع والبنادق؟

إذًا بدأ حزب هيوا يذوب مثل رجل الثلج على حرارة نار ثورة البارزاني، فانضم قسم من أعضائه إلى شيوعيي العراق وأصدروا جريدة آزادي، بينما أنشأ البعض حزب ريكاي راست (الطريق الصحيح) أما أنا فانضممت إلى ثورة السكر.

أجل، ثورة السكر، وهل السكر شأن صغير؟

كان السكر، مثلما هو الآن أيضًا: نادر الوجود جدًا، ومن أجل الحصول عليه وعلى بعض الأرزاق زار أحد زعماء العشائر واسمه اولو بيك ثكنة عسكرية في ميركه سور وطالب بها، لكن بدل أن يمنحه الجنود العراقيون السكرَ أفرغوا ثلاث رصاصات في صدره. وبدأت الانتفاضة.

قبل أن تبدأ الانتفاضة وحين كنت ما أزال في السليمانية، التقيت

بنوري أمين في حي سَرچمين فقال لي باسمًا: « انظر يا بادين! الآن يشرب البارزاني والإنكليز من كأس واحدة».

فرددت عليه باسمًا أيضًا: «ستفرغ تلك الكأس سريعًا وسترى. الإنكليز مثل ذئاب الشتاء لا يأمنهم أحد والبارزاني ابن الجبال. إنني سأطفئ جذوة آلام قلبي في ظلال رايته».

والحب؟

أصبح حلمًا، أصبح مجرد جرح لم يبق منه سوى آثاره.

* * *

مهاباد، ٢٠ نيسان ١٩٤٦

من قال إن الحب يغدو حلمًا! أأنا قلت! ثلاث سنوات وطيف جاله لم يفارق عيني، اسألوا قلبي المحترق إن استطعتم أن تفتحوا فيه نافذة وتطلعوا على أعماقه. سترون جاله هناك مثل جمرة متقدة بين الرماد.

قال صادق بهاء الدين ذات سهرة: « كل شيء حينما يصبح عتيقًا يفقد تأثيره إلا الحب والخمرة والناي».

كنت أعزي نفسي وأواسيها بظني أن حب مُجْدَه سيلقي حجابًا على ذكرياتي لكن خاب ظني. لقد أزاح هذا الربيع رماد ألف يوم من النسيان فظهرت الجمرات متوقدةً. ألف يوم وحب جاله يختمر في قلبي، ألف يوم أشرقت فيها الشمس وغابت ألف مرة لكن هذا الحب الكبير لا يغيب عن سماء قلبي أبدًا.

إذًا لو سكرت، ولو جننت، ولو لجأت إلى المزارات وحتى لو أصبحت من أتباع أميرال آغا وتسولت الماء من المقاهي لكان ذلك من حقي.

مُجْدَه نائمة. وجهها يبدو في ضوء القمر مثل حلم خرافي وديعًا ورقيقًا. خصلات شعرها القصير كليلة صيف ترعى مثل قطيع من الجداء السود على حافة جبل وسادتي. تسلل نهدها الأيسر من تحت اللحاف ليغتسل بضوء القمر.

قبل قليل، تفجرت ثورة على السرير. الثورة التي انخرطت فيها قبل عام ونصف مجرد شرارة مقارنة بهذه. اتحد الجسدان فلم يعد ممكنًا معرفة أحدهما عن الآخر. ثملت الجدران من الآهات، سقطت المزهرية، وتحولت أوراقي التي أكتب عليها إلى سرب من الكراكي طار في أرجاء الغرفة.

وحده الله يعلم كيف دفعت هذه الظبية اللطيفة إلى فخ السرير. كانت مترددة، تشتهي لكنها لا تجرؤ وتقول: «إياك والجنون يا بادين. سابقًا كنا في الشتاء وكانت الثلوج تساعدنا وتحبس الناس في البيوت فلا يروننا. أما الآن؟ الدنيا ربيع وأنت تعرف أن أهل مهاباد يصبحون كالفراشات في الربيع ولا يبقى أحد في بيته. أما كريم فلو أحس بي فإنه سيقتلني لا محالة».

دعيك من هذه الحجج الواهية يا مُجْدَه. تستطيعين لو شئت أن ترتدي عباءة وتتبرقعي، من سيعرفك؟

بهذا التكتيك استدرجت مُجْدَه إلى البيت. كان الوقت ظهرًا، لم أبق في المقهى كثيرًا وتذرعت بألم الرأس لأتجه إلى نبع المَنِّ ونهر العسل.

أعادت شفاهي خلق جسدها الأسمر مثل إله حكيم، أصابعي التي أنهكتها الكتابة صارت تطوف حول النهدين كالحجاج، جُنَّت أصابعي فبدأت تبحث في جسدها عن السهول والوديان والفيافي الحارة لتنقش فيها حروفًا من نار. كان ذلك الجسد بساطًا تنسجه أناملي خيطًا إثر خيط.

كنت....

لقد دب النعاس إلى عيني. ما هذا الغباء؟ حوريتي في الفراش وأنا أكتب وأدخن؟ سأذهب إلى جبهة القتال التي تسقط في ساحاتها همومي وآلامي صرعى. رفاقي الآن على جبهة سقز يقفون خلف المتاريس وفي الخنادق وتصطك أسنانهم من البرد. إنهم يحمون الجمهورية وأنا أحمي هذا القلب المنهك من هجوم الذكريات القاسية.

* * *

بعد أن قلت لمُجده: ارتدي العباءة واسبقيني إلى البيت عَرَّجت على المقهى. كان هَژار وهيمن هناك. هما متلازمان دائمًا. حتى حينما يذهب هَژار إلى الإذاعة يرافقه هيمن. جلست بجانبهما وانضم إلينا كريم بعد دقائق. نادل المقهى أحضر إلينا دون أن يسألنا أربعة فناجين من القهوة. كنا أربعة أكراد متحلقين حول أربعة فناجين من القهوة. مد كريم يده إلى علبة تبغي ولف منها سيجارة بوجه متجهم.

كان لا بد من شيء يكسر جليد الصمت بيننا فبادر هَژار إلى القول: « يبدو أن الفئران قد قضمت ألسنتنا!».

قلت بصوت خافت: «لا...لكن المشاعر التي في القلب لا تحتملها الألسنة».

رشف هيمن رشفة لطيفة من قهوته وقال:« صحيح. اللسان عاجز عن التعبير عن مشاعر القلب. في كثير من المرات يبقى القلم أخرس بين أصابعي. أي سر في هذا يا ترى؟».

سحب كريم العابس من سيجارته الملفوفة بإهمال نفسًا وقال دون أن ينظر إلى أحد: اللسان مترجم سيء لآهات الأحشاء. وكلما كبرت

المصيبة ازداد اللسان خرسًا. حينما استدرج العقيد نوروزي سمكو إلى فخ الموت، لم يتكلم سمكو، لكنه غمس إصبعه بالدم وكتب على حزامه الأبيض: «أي كاش».

سألنا كريم: « أي كاش تعني يا ليت، يا ليت ماذا؟».

ككل مرة دخل أميرال آغا فجأة ووقف على رؤوسنا قائلاً:

- يا ليت لنا بحرًا.

وضع سطله على الطاولة ومسح بيده على رأسي: « ما من كردي يُقْتل إلا و (ليت) كلمته الأخيرة. لكنني لن أدع القاضي محمد يقول (ليت)، لأنه إذا ساءت الأمور كثيرًا في الجمهورية، فسيستطيع أن يركب سفينة ويصل إلى الشواطئ البعيدة».

سكبنا نحن الأربعة ما كان أمامنا من ماء في سطله وعدنا إلى الصمت. كنت على موعد مع مُجْدَه، فتثاءبت ثم اعتذرت قائلاً: «تعلمون أنني أتعب في المدرسة كثيرًا هذه الأيام. رأسي يؤلمني وأنا بحاجة للنوم».

ضحك كريم، وقال كمن فهم خطتي: « العشاق لا ينامون». فأجبته بابتسامة خفيفة وقلت: «لو كنت عاشقًا لكانت نهايتي مثل نهاية حَمَه رسول».

* * *

لا يقطع رفيق الطفولة صادق بهاء الدين عني رسائله. نحن أصدقاء منذ زمن بعيد وأمضينا معًا مرحلة سعيدة من العمر. هو يكبرني بعام لكننا دخلنا سوية مدرسة مسجد العمادية. كلما أرى هَژار وهيمن أتذكر صداقتنا أنا وصادق. حينما أنهينا دراستنا الابتدائية في ذلك المسجد،

كنا في أول شبابنا، كنا نجوب الشوارع إلى أن تتورم أقدامنا، حتى أننا كنا نعشق معًا نفس الفتاة.

عام ١٩٣٢ أنهينا الدراسة في المسجد وكان علينا أن نكمل دراستنا في الموصل لكن الفقر منعنا من تحقيق رغبتنا تلك. وذات يوم جاء إلى بيتنا وقال: « تعال يا بادين لنعمل».

أي عمل يا صادق كوتازادة؟ (كان هذا لقب عائلته). سألته جدتي.

الحكومة تشق طريقًا بين العمادية وقرية بيبادى. يقال إن العامل هناك يقبض دينارين في الشهر.

والتحقنا أنا وهو بالعمل حتى أنتهى شق الطريق. كسبنا مبلغًا كبيرًا من المال لكن أيادينا الغضة الطرية تحولت إلى أيادي الرجال وصارت خشنة صلبة.

بعد ذلك ذهبنا إلى الموصل وأكملنا الدراسة المتوسطة هناك. كان صادق حاد الذكاء وكان راتبه دينار ونصف. كان يعشق القراءة والكتب حتى لقبه الطلاب بالفأر الأسود لأنه دائم المطالعة غير عابئ بما يجري حوله. بعد ذلك توجه هو إلى بغداد ليدرس في دار المعلمين بينما عدت أنا إلى العمادية. ومنذ ذلك الوقت لم نلتقِ حتى ذهبت إلى السليمانية. كان قد أصبح مدرسًا لمادة الجغرافية في حلبجة وصار يتكلم السورانية بطلاقة.

وصلتني اليوم هذه الرسالة منه:

ابن بلدتي العزيز بادين،

وصلتني رسالتك الحزينة، أنت كما عرفتك لم يتغير فيك شيء. لكن قل لي متى أصبحت فيلسوفًا؟ أنت تتحدث عن الموت وتقول: « أريد أن أتحدى الموت بالكتابة!». ألا تعرف أن مواجهة الموت عبث؟ هل الآن

فهمت أن الأحياء يحثون الخطا صوب الموت!

أنت تنثر حياتك على الصفحات (حسبما كتبت لي) مثل ثمار شجرة التوت في داركم في العمادية. أليس هذا بحد ذاته استعدادًا للموت؟

أنا شخصيًا قانع بحياتي، وعملي في التدريس جيد. استبدلت بيتي القديم بآخر جديد أرخص أجرة وأقرب إلى المدرسة. صار لي مدة لم أذهب إلى السليمانية لكنني سمعت من زميل لي أن جاله عادت من لندن. خانزاد الهوليرية أسوأ من ذي قبل ولا تلتفت إلي مطلقًا. لكنني لست ضعيفًا مثلك في الحب ومن تهملني أعتبرها جرعة ماء مر. أمن المعيب أن أكون من الكرمانج؟ تقول خانزاد ضمن مزاحها: «نحن أهل هولير لا نتزوج الكرمانج السود»(*). طيب لا تتزوجيني. من أجبرك على ذلك؟

ما هي أخبار الجمهورية؟ نحن نسمع أن ستالين سيقايض الجمهورية بالنفط، فإن لم يكن هناك نفط سيقايضها بالفحم. من يدفع أكثر؟ الفحم أم الجمهورية؟ وحده الله يعلم أي بساط ينسجونه للكرد.

أنا أيضًا أكتب، لكنني لا أكتب مثلك عن حياتي. أصلاً لا يوجد شيء جدير بالكتابة في حياتي. أنا أكتب المقالات عن الأدب الكردي الكلاسيكي وخاصة عن شعرائنا الكرمانج.

يا بادين لقد شممت راحة الخمر من أوراقك. خفف من شربك قليلاً. جاله لا تستحق أن تقتل نفسك من أجلها. يا خسارة شاعر مثلك. كتبت أنك على علاقة حب مع زميلة لك أصلها من بايزيد فماذا تريد بعد؟ ابحث في أصلها فلعلها حفيدة أحمد خاني نفسه.

دم بخير وسلامي لأصدقائك وزملائك.

(*) هناك حساسية قبلية ومناطقية بين الكرمانج (وهم أكبر الطوائف الكردية) وبين السوران. يعتبر السوران أنهم أكثر تحضرًا.

ملاحظة: المنديل الموصلي جاهز وسأبعثه بعد أسبوع.

جدتك تسلم عليك. قبل مدة كنت في العمادية والتقيت بها على عجل.

صادق بهاء الدين آميدي، نيسان ١٩٤٥

اليوم، حين غادرت بوابة المدرسة سلمني تاجر مهابادي هذه الرسالة وقال:« بعد عدة أيام سأعود إلى السليمانية وسآخذ الجواب منك إن كان جاهزًا». قرأت رسالة صادق وأنا أسير في الطريق، لم يلفت انتباهي فيها إلا جاله. «هذا الجرح لا يندمل»، قلت في نفسي وتوجهت إلى الاستوديو.

* * *

- يا ابن الجاموسة شواربك مثل رباطات جزمة الضباط فما ذنبي أنا؟ من أين آتي لك بشوارب مثل شوارب ستالين؟ هل أجدلها لك من عانة جدتي!

- مالذي جرى يا جدي؟ شوارب من؟

وكأنه لم يسمع صوتي، بقي يواصل محتدًا كلامه:« إن الله وهبك هذه الشوارب الرفيعة كذيل الفأر فكيف سأجعلها ثخينة؟ كل من يلتقط صورة يبدي عدم الرضى عن جزء ما: هذا يقول جعلت ذقني رفيعًا وذاك يقول إن أنفي ليس ضخمًا لهذه الدرجة! إن كنتم تريدون وجوهًا جميلة مشرقة فاذهبوا وجادلوا ربكم، أما أنا فمجرد مصور ولست مضطرًا لأصحح الأخطاء. لو حدث شيء للجمهورية سيقولون: الذنب ذنب الروس! دائمًا تبحث الشعوب المغلوبة على أمرها عن مشجب تعلق أخطاءها عليه».

«ما هو قصدك يا جدي؟» قلت بصوت ينم عن عدم الرضى لكن

جدي لم يرفع عينيه عن الصورة وقال: يا بادين اتركني بحالي. أنت كلما أتيت إلى الاستوديو تجعلني أخرج عن طوري. ما هو قصدي؟ قصدي أنه إن كان شوارب أحدهم رفيعة فلا قدرة لدي لأجعلها ثخينة. التصوير لا يقبل الكذب، ولا يري الناس إلا حقيقتهم.

بعد هنيهة هدأت ثورة غضبه واتجه إلى غرفة التحميض المظلمة فتبعته. كان الحبل الذي يعلق الصور عليها قد اهترأ بفعل الحمض، أخرج بضعة ريالات من جيبه وقال:« اذهب واشترِ سلكًا من النايلون، فحبال القنب لا تحتمل الحمض، كلها اهترأت وكأنني أضع الجنرالات عليها».

كان بائع الحبال في عمق دكانته يجدل كالعادة حبلاً، وبعد أن ألقيت عليه التحية قلت:« ليتني عرفت ماذا تفعل؟ أراك دائمًا تجدل هذا الحبل وتجدله». ودون أن يرفع رأسه قال:« قلتها بنفسها أيها الشاب الذي نصفك أرمني، أنا أجدل الحبل وأجدله. ألا تعرف كم هي عديدة استخدامات الحبال هذه؟ حركة المجتمع كلها قائمة على الحبال. الحمير والدواب تربط بها، كذلك يربط بها المجانين أمثالك إلى أعمدة التكايا، أحمال الحطب تشد بها إلى ظهور البغال. تسحب المدافع بها وتجر بها المياه من الآبار، كذلك تشد بها السفن إلى الموانئ. اسمع هذه أيضًا: إنها تُلف على رقاب البشر أيضًا».

اشتريت عدة أمتار من حبل رفيع وخرجت خائفًا من عنده.

كانت رائحة الكباب تفوح من الاستوديو. ناداني جدي وأنا ما أزال في الخارج:« تعال يا ولدي أسرع. إنك تتضور الآن جوعًا».

- لا يا جدي، بل أكاد أموت رعبًا.

ورويت له ما حكاه لي العجوز سابقًا والآن. ضحك جدي ضحكة

مجلجلة وقال:« يا ليتك قلت له: إن لدى جدي شبرًا من حبل من اللحم يدخل أمك. كُل يا ولدي كُل وأخبرني بربك أليس كباب مهاباد أطيب من كباب السليمانية ؟».

- بلى يا جدي. كل شيء في مهاباد أطيب ما عدا الحب. فقد كان في السليمانية أطيب.

تابع جدي وكأنه لم يسمع جوابي:«لماذا يحب القصابُ الخرافَ يا بادين؟».

- الكبش للسكين.

- رحم الله والديك. هل فهمت الآن لماذا يهتم الروس بجمهوريتك؟

- لا يمكن أن يكون لمجرد المصلحة يا جدي. لقد قدموا الكثير من المساعدات لنا.

- بل يمكن يا حَمَلي، يمكن. فعلوا هكذا بالأرمن أيضًا، لقد سمَّنونا وجعلوا قروننا حادة لينطحوا بها بطون الأتراك. أما نحن فقد كنا غائبين عن وعينا. ضحك الطاشناق وغيرهم على الناس وقالوا إن الروس إخوتنا الأرثوذوكس وسيساعدوننا. منحنا الروس بضعة بنادق صدئة، لكن ماذا حصل؟ أنت تعرف ماذا جرى أليس كذلك. قتل مليون ونصف والباقي تفرقوا في البلدان. لا ترى الآن أرمنيًا واحدًا في تركيا. ترأف الروس بحالنا فبنوا لنا الكولخوزات والسوفخوزات وفرج الأتان. لقد هلك الناس. ألم تسمع كم أرمنيًا هرب إلى أمريكا؟ لم يعد أحد يقول:« آه يا أرمينيا. أرارات قلب أرمينيا» رفع كل أرمني جبل أرارات خاصًا به، أما أنا فإن هذا الاستوديو وزجاجات الفودكا هذه

هي أراراتي.

لا أعرف لمذا لفظ جدي كل هذه الكلمات دفعة واحدة؟ لم تكن هناك من مناسبة، لكن يبدو أنه كان عصبيًا ومضطربًا دون أن أعرف لماذا؟

جاله في السليمانية! إلهي لماذا تدني مني جراحي؟

أيها القلب

أيها البدوي الذي لا مشتى ولا مصيف له

عد إلى مضاربك

ألم تتعب من نصب الخيام؟

كم ربيعًا حرقت من ورائك؟

كم من الأثافي تركتها تحيط بالرماد الخامد وراءك؟

تجرجر من خلفك هذه الجراح مثل الرمم الميتة

أيها الجواد المتعثر بالحدود

إلى متى ستعدو؟

أيها الجواد المجنون

الجواد الذي يعدو بلا فارس!

* * *

خرج الروس من مهاباد وما ذابت بعد ثلوج قمم قول قولاغ وخَزابي وداشا مجيد ولَندي شيخان.

الناس مسرورون بخروج الروس لكن الأثرياء الذين هربوا بعد مقتل غفور محموديان لم يعودوا بعد. لا يثقون بالجمهورية تمامًا.

وبحسب الاتفاقيات المبرمة فإن الروس سينسحبون من جميع الأراضي الإيرانية ويديرون ظهرهم للجمهورية. آآه. يا ليت هذه الأحداث التي تجري كانت حلمًا.

أمس كان هناك تجمع كبير في ساحة جوارجرا، عاد البيشمركة من معركة قهراوا منتصرين ومعهم خمسون أسيرًا في شاحنة. تجمع الناس على طرفي شارعي بهلوي وشاهبور وهم يبتسمون للأسرى.

فجأة سمعت خلفي صوت جدي:« هؤلاء الناس مثل رجل حديث العهد بشرب الفودكا، تسكره كأس واحدة! يظنون أنهم فتحوا القلاع». قلت بفخر واعتزاز:« ماذا تريد بعد يا جدي؟ جمهورية عمرها ثلاثة أشهر وتحارب جيش دولة ثم تنتصر. أهذا قليل؟» بدأ جدي يصور بعدسته الناس والجنود الأسرى ثم التفت إلي وقال:« لقد شاب شعري في مثل هذه الحوادث يا بادو. كثيرًا ما رأيت راية تخفق في الصباح في إحدى المدن لترتفع في المساء راية أخرى».

لم أرغب في أن يعكر عليَّ جدي صفو تلك الفرحة، فغادرته إلى تلميذ لي كان هناك يحمل راية صغيرة ويأتي بين الفينة والأخرى ليواجهني وينظر إلي بخجل.

لم تظهر مُجْدَه. ربما كانت هناك لكنني لم ألمحها لأن كل النساء كن محجبات بعباءات سوداء. كان الأفق الشرقي قد احمرَّ واحتضنت الغيوم اليتيمةُ الشمسَ التي بدت وكأنها لا تريد النظر إلى أولئك الجنود الأسرى فاختفت مسرعة وراء الجبال.

لم يكن أولئك الأسرى مثل الأسرى الذين كنت أشاهدهم في التلفزيون. كانوا يبتسمون حتى أن عددًا منهم كانوا يلوحون لنا بأيديهم

التي خلت من الأغلال.

ثلاثة أرباع هؤلاء كرد.

هذا أوسو المنكوري!

وذاك هو خضر نالبند من عشيرة مامش.

بينهم أيضًا حَمَه بيري الهركي.

أليس ذاك رشيد ديبوكري؟

سمعت من خلفي أصوات بضعة رجال وهم يشيرون إلى الأسرى.

كان الكابتن نوري أمين ومصطفى خوشناو أيضًا يرافقون الأسرى. لم أعلم بهذا أولاً إلا أنني وحين كنت أسقي دالية العنب مساء في وسط الدار، سمعت صوت سيارة جيب عند الباب وسمعت صوت نوري أمين يقول لسائقه الأرمني: « اذهب إلى عملك» ثم دخل الدار ودون أن يسلم قال بوجه مشرق: «أرأيت يا بادو ماذا فعل البارزانيون؟» ثم وضع أمامي كيسًا صغيرًا من السكر (السكر نادر وغالي الثمن. أما السكر الناعم فلا يتوفر مطلقًا. ما يتوفر هو القند وهو قطع كبيرة يلقيها المرء في فمه ثم يشرب بعد ذلك الشاي).

في تلك الليلة روى لي قصة معركة قهراوا هكذا:

«كنا صباحًا وراء المتاريس والخنادق حين جاء رجل من عشيرة فيض الله بكي وأعلمنا بأن قوة عسكرية من جيش الحكومة قوامها ستمائة جندي بقيادة العقيد كسرى سنندجي في الطريق ومعهم بضع مدافع ثقيلة، وقياسًا إلى سرعة سيرهم فإنهم سيصلون في حدود الظهيرة إلى المعسكر. قمنا وتهيأنا لاستقبالهم وتوزع البيشمركة غربي طريق سقز حيث أمرهم مصطفى خوشناو: «فلتكن أصابعكم على الزناد، احبسوا

أنفاسكم ووجهوا بنادقكم إلى القسم العلوي من أجسام الجنود، إن استطعتم فسددوا على القلوب وحين تسمعون أمر (اضربوا)، أطلقوا النار وإياكم أن تذهب طلقاتكم سدى. سنُري اليوم محمد رضا أن البيشمركة هم الذين يحمون الجمهورية وليس الجيش الأحمر».

استراح الجنود والضباط الإيرانيون وأنزلوا أحمالهم قرب جدول ماء. استلقى كثير منهم على المرج الأخضر بحيث كنا نشم رائحة تبغ سجائرهم المشتعلة. كانت أنغام أغانيهم تختلط بحفيف أوراق الدلب والكمثرى واللوز. لم يبق إلا القليل لنسمع نبضات قلوبهم أيضًا.

- اضربوا.

أمر مصطفى خوشناو بصوته الجهوري. زغردت مئتا بندقية بصوت واحد، فصار الجنود الإيرانيون مثل قطيع هاجمته الذئاب وهربوا ذات اليمين وذات الشمال. لم يعلموا ماذا يجري! وحين استعادوا الوعي وفهموا أنهم وقعوا في كمين سارعوا إلى أسلحتهم لكن أبطالنا لم يمهلوهم فسقط منهم واحد وعشرون قتيلاً بينما جرح حوالي العشرين والبقية هربوا بجرحاهم. أما هؤلاء الخمسون جنديًا الذين أسرناهم فقد صاروا كالمجانين وتوجهوا إلى البيشمركة رافعين أيديهم في الهواء وهم يصرخون متضرعين: «تسليم، تسليم». غنمنا في المعركة مدفعي متراليوز وألف طلقة أيضًا. انظر!

وأخرج نوري من جيب سترته العسكرية طلقة أراني إياها وهو يقول: «سأحتفظ بهذه الطلقة كذكرى من قهراوا».

كنت أستمع إليه مدهوشًا وتذكرت القتال الذي خضته قبل عام ونصف من الآن.

في شباط عام ١٩٤٣ وبعد أن توقفت جريدة ژين عن الصدور هِمْتُ على وجهي في السليمانية. وكان حزب هيوا قد أصابني باليأس بسبب صراعات الأجنحة والتيارات المختلفة فيه، فاليمينيون لم يسمحوا لأحد بالانضمام لمقاتلي البارزاني وكانوا يرددون: «الإنكليز في الحرب وإذا دخلنا في صراع مع الحكومة العراقية المتحالفة معهم هذا يعني أننا موالون لهتلر. وهذا لا ينقصنا».

أما جناح اليسار فكان يوجه الدفة صوب موسكو. وبالرغم من ذلك فقد انضم الكثيرون إلى الثورة. لكنني ما كنت قادرًا على ترك السليمانية سريعًا.

I hope I see you again one day maybe we that way again

كانت هذه آخر جملة أسمعها من جاله في لحظة الوداع. كانت هي قد حفظت رواية العذراء والغجري للكاتب د.ه.لورنس عن ظهر قلب:

We must live in the hopes

قالت لي ذات يوم. وأنا بقيت حتى النهاية أتمرغ في مستنقع الآمال. سعيت خلف السراب وبقيت ظامئًا. كنت أرسل قصائدي لمجلة كلاويژ، وكلما كان يصدر منها عدد كنت أبحث عن اسمي فلا أجده.

إبراهيم أحمد لا يحب اللهجة الكرمانجية ويكره الأبجدية اللاتينية، قال لي صادق بهاء الدين ذات يوم وأردف: سأبعث قصائدي إلى جريدة هاوار التي يصدرها الأمير جلادت بدرخان.

خفت شدة القتال في جبهة بارزان. أرادها الإنكليز ذلك. وعدوا الكرد بفتح مدارس كردية في منطقة بارزان، وعدوا أن يشقوا الطرق

ويضموا وزراء أكراد إلى تشكيلة الحكومة المركزية ويبعثوا المؤن إلى المنطقة، و...

كان مصطفى مجيد قد أصبح مثل الدجاجة التي توشك أن تضع بيضًا، رِجلٌ في بغداد وأخرى في بارزان. وكان برحلاته تلك ينسج نول الخداع ويغزل الأكاذيب. ربما كان غير عالم بما يحاك وكان يعمل بقلب صاف.

في شباط ذلك العام توجهت إلى كركوك لحضور الكونفرانس الذي عقده هيوا. كانت الثلوج تهطل، ثلوج مثل هذه الصفحات المنشورة أمامي، ثلوج صامتة مثل طفل رضيع نائم في قماطه. كنت محاصرًا بالثلج وما كانت نيران بابا كُركُر تستطيع أن تذيب تلك الثلوج التي لم تكن تستطيع بدورها أن تطفئ نيران بابا كركر. كان ثلجًا يشبه حبي، ثلجًا تلوثه الكلاب الضالة. كان ثلجًا كرديًا مليئًا بالأسرار والخوف والأحلام والعناد.

كان هيوا قد تحول إلى أنشوطة مهترئة سرعان ما انقطعت تحت ثقل الخلافات. كان هيوا خيطًا ضعيفًا لمسبحة التنظيم الذي انفرط عقده وتناثرت حباته. اجتمع حولي بعض الأصدقاء والرفاق:

تعال فقد فتح الشيوعيون أحضانهم لنا، سننضم لصفوفهم. إنهم سيوفدون الشباب إلى موسكو.

بارزان أقرب من موسكو. أجبتهم.

سنذهب إلى الساحة الحمراء ونعيش تحت الراية الحمراء مثل دم حامٍ ودافئ.

سأنضم إلى حزب الدم. قلت لهم.

كان صادق بهاء الدين أيضًا لا ينفك ينصحني مثل الوعاظ قائلاً: «إياك والجنون يا بادين، يا خسارتك. أنت رجل متعلم والكرد يحتاجون إلى العلم أكثر من الدم».

- فوهة البندقية هي العلم الحقيقي.

- لا حول ولا قوة إلا بالله. كيف نسيت سريعًا! ألست الذي كنت تجمع زملاءك التلاميذ في باحة المدرسة المتوسطة في الموصل وتقول لهم: «بعد سنوات سنعود إلى العمادية ونصبح مدرسين لنعلم اللغة الكردية؟»

- كانت تلك أحلام الطفولة.

- والآن أنت في أحلام الشباب، لم تغادر الحلم بعد.

- لا، أنا أعيش الآمال وليس الأحلام.

- حين لا تتحقق الآمال تصبح أحلامًا.

- أنت يا صادق تلقي على مسامع أطفال حلبجة دروس الجغرافيا لكن تعال معي لكي تدلك الجبال إلى دروب الحرية، فلترشدك الوديان والمضائق إلى جهة الشمال، فلتقل لك القمم كيف يكون العز والسؤدد. الجغرافيا على الورق باردة ولا معنى لها يا صادق. تعال لكي نرسم بدمنا حدود الحرية.

لم يستطع صادق أن يقنعني ولا استطعت أنا أن أقنعه. وفي جغرافيا الحياة مضى كل واحد منا وراء نجمته حتى افترقت دروبنا.

ذابت الثلوج وذاب حزب هيوا، لكن حبي لم يتحول إلى ثلج ولا هو صار ربيعًا يسعد قلبي.

في ربيع ذلك العام جاء نوري السعيد مع مجيد مصطفى إلى كردستان وادعى أمام الناس أنه كردي. هذه هي حيل العدو: كلما تقدمنا قليلاً

وضاق الحبل حول رقابهم لا أدري من أين يكتشفون لأنفسهم أصلاً كرديًا! ترى هل يقول ستالين أيضًا «إنني كردي»؟

ودعت السليمانية، ودعت مقاهيها، ودعت الأزقة والشوارع، المدارس، بيره مَكْرون وقَره داغ، رفاق هيوا، زملائي في مجلة زين، وودعت غرفتي المشبعة برائحة الحناء والتي تعبق في أرجائها أنفاس جاله مثل لبلاب يلتف على الجدارن. وودعت قلبي أيضًا.

بحب منهار كأنه طلل، بجيوب فارغة وآمال كبيرة، بأحلام حملتها على ظهر قلبي غادرت السليمانية.

* * *

٥ أيار ١٩٤٦ مهاباد

- سأذهب لأحرر الريح من الفخاخ.
- الريح؟
- نعم الريح. وهناك رياح سأدفع بها إلى الفخاخ. وكما أنك لا ترى الرياح فأنت لا ترى فخاخها أيضًا. أنظر أليس صدرك فخًا من فخاخ الريح؟ أليست جمهوريتنا ريحًا في فخ الدب الأحمر؟
- لا يا كريم لا. الجمهورية ليست واقعة في فخ. بل هي قلوبنا التي تتمزق على أسنان كل فخ.
- والقلب ريحٌ، والحب ريحٌ، الحلم، الثورة، التاريخ، الإمبراطوريات والله، كل شيء ريحٌ.

ثم بكى كريم الشكاكي في نهاية الحوار مثل ريح شمالية.

نظرت من خلال دموعه إلى طفليه الذين تناثرا أشلاء في الهواء. كيف

لهذا الرجل أن يحب الدببة؟ مضت برهة من الزمن فهدأ قليلاً، ثم أشار بيده إلى جهة مبنى مديرية تبغ مهاباد وقال: «إنهم يبيعون تبغ الجمهورية».

كانت ست شاحنات روسية واقفة هناك أمام المبنى، وتعالى لغط السائقين فاختلطت اللغات الروسية والآذرية والأرمنية، لم يكن أحد يفهم ماذا يقولون لكن حركات أيديهم كانت تشير إلى أنهم يختلفون حول التحميل ومن أولى من الآخر بذلك.

- هذا التبغ يكفي الروس لألف سنة.

تناهى إلينا من الخلف صوت رجل عجوز. كان العرق يتصبب من جبين الحمالين وهم يغادرون بوابة مديرية التبغ يحملون على ظهورهم أكياس التبغ بوجوه مكفهرة.

- ألا تبيع أنت أيضًا تبغك يا أستاذ؟

سمعت من جديد ذلك الصوت العجوز فتحسست في جيبي علبة أبي. كانت العلبة مستقرة في صمت المكان. وحين التفتُّ إلى مصدر الصوت رأيت عجوزًا مصفر الشاربين يلف سيجارة وهو ينظر باشتهاء عارم إلى أحمال التبغ. حين التقت نظراتنا بادرته بالقول: «وهل يبيع أحد ذاكرته؟» فضحك ثم سعل وهو يقترب مني وقال: «إن لزم الأمر فإن المضطر يبيع عظام أبيه أيضًا يا ولدي».

كانت ست شاحنات من نوع زيل قد وصلت من تبريز وشاحنتان من نوع تاترا من مياندوآب: «واخ واخ واخ، يبدو كأن الروس سيجعلون من هذا التبغ علفًا لبغالهم! أليس هذا آخر الزمان؟ روسيا تشتري التبغ من مهاباد!» قال ذلك العجوز، فرد عليه عجوز آخر: «ألا تعجبك مهاباد؟ هي أيضًا جمهورية من جمهوريات الله لها راية وجيش ولنا قائد،

فلماذا لا يكون لدينا تبغ ها؟»

رد عليه العجوز الأول: «فليوزعوا علينا قليلاً من التبغ. ألا تجب الزكاة على التبغ أيضًا؟» فردَّ عليه الآخر بسخرية: «لو وجبت زكاة العقل لأعطيتك منه قليلاً. هل أنت مجنون! من قال لك أنه كان ثمة تبغ في وقت الرسول عليه السلام! هل قرأت في القرآن شيئًا باسم سورة التبغ؟»

بعد ذلك بدأ العجوزان يلفان سجائر رفيعة وينفثان دخانًا بدأ يعلوهما ويعلو أحاديثهما.

من بعيد تراءى أميرال آغا، كان سطله في يده بلغ فيه الماء إلى النصف. كان معه شخص يحمل كيسًا وكانا يتوجهان صوب مديرية التبغ وحين وصلا إلى البوابة وضع أميرال آغا سطله ووقف منتصبًا واضعًا يديه في خصره ونادى بصوت مخنوق: «لا يمكن لمهاباد أن تبقى بلا بحر. لو كانت ميناءً لحمَّلوا السفنَ هذا التبغَ». أمعنت النظر في ذلك الشخص الذي يرافقه، هو أيضًا حدق فيَّ لبرهة من الزمن إلى أن صرخ فجأة: «باديييين» وجاء ليرتمي في حضني فسقط أرضًا ووقع الكيس الذي كان على كتفه فانساب الحناء مثل ربيع مطحون وانتشر شذاه في الأرجاء.

لم تعد رائحة التبغ تفوح.

* * *

قبل أن ألتقي بصديقي حسين الديرسمي، شممت أمس رائحة الحناء وهي تفوح من غرفتي. ظننت أن جارتي أخت حَمَه رسول تعجن الحناء، لم أفكر قط في صاحبي الديرسمي الذي كانت رائحة الحناء تسبقه إلى كل مكان وتشي بقدومه تمامًا كما تعلن الأزهار عن قدوم الربيع.

لقد ضاعت ديرسم!

قال وهو يضع الكيس على البساط اللباد في غرفتي.

وهل تضيع المدن؟ سألتُ.

واصل الكلام وكأنه لا يسمعني:« شاخت ديرسم وشاب شعرها. لم يكن ثلجًا ذلك البياض الذي كلل هامات الجبال بل كان شعر ديرسم الأشيب. و لقد ذهبت لأحني شعرها فلم أجدها!». كررت سؤالي:

وهل تضيع المدن؟

نعم يا بادين. فكما يزول أثر الحناء عن الشعر بعد عدة مرات من الغسيل، هكذا تزول المدن بعد عدة ثورات.

ومهاباد؟

إن لم يعجب تبغُها ستالين آغا فستضيع.

وإن أعجبه التبغ؟

ستبقى مهاباد مادام هناك تبغ يكفي لسيجارة واحدة.

تحسست مرة أخرى بخو علبة تبغ أبي. كانت في محلها. لف ضيفي الديرسمي سيجارة لنفسه، وضع مع التبغ قليلاً من الجناء وقال: «ترى من يحرق الآخر؟ التبغ أم الجناء؟».

هو الآن غارق في نوم هنيء. نسمة ريح منعشة تهب من النافذة الشمالية وتملأ الغرفة. أين فخاخك يا كريم؟

يبدو أن جدي كان في بيتي عند الظهيرة وترك لي ورقة كتب عليها بالفارسية:« حفيدي العزيز بادين، تعال غدًا في المساء لنحتسي الخمر. لا تضيع هذه الفرصة».

غدًا هو يوم الخميس، سألتقي مُجْدَه ثم أذهب إلى حارة الأرمن.

***

٧ أيار ١٩٤٦ بعد الظهر

التقيت مُجْدَه، كان وجهها ذابلاً. حين رأتني زمت شفتيها وأشاحت بوجهها عني. تقدمت إليها معتذرًا:

عزيزتي مُجْدَه أعذريني فقد كنت مضطربًا قبل عدة أيام.

وهل يجب عليك أن تغضبني إذا كنت مضطربًا؟

لا عاش من يغضبك.

وأعطيتها باقة من الورد الجوري.

ما هذه الورود؟ تفوح منها رائحة الحناء! سألت بدهشة.

هذه رائحة ديرسم. أجبتها حزينًا.

قبل عدة أيام كنت قد أغضبت مُجْدَه، كانت تزور المزارات الدينية. لم تترك مزارًا إلا وحجت إليه، مزار قول قولاغ، مزار بابا خليفة، مزار جكوله وأيضًا مزار خَزابي.

وحينما قلت لها: «ما هذا يا مُجْدَه! تزورين الأضرحة مثل عجائز مهاباد. لا يعرف أحد ما هو مدفون تحت هذه الأضرحة» ردت علي: «أنا أذهب لأدعو لحبنا حتى لا يموت. أشعل هناك الشموع وأتوسل بالأولياء لكي يبقيك الله لي».

- يا مجنونة وماذا سيفعل الأولياء؟ دعيهم في ترابهم.

- بادين أنت تتكلم مثل جماعة «توده» عديمي الإيمان، لقد عاشرتَ أعضاء الحزب الديمقراطي الآذري.

رددت عليها بحدة: «البندقية تحميني وليس أولياؤك الذين تحولوا إلى تراب». فردت هي بدورها محتدة: «هذه قناعتي وابق أنت في قناعاتك».

فأجبتها: «ألست يا مُجْده عضوًا في اتحاد النساء الديمقراطيات! أليست مينا خانم، زوجة الرئيس، قدمتك قائلة: «لتصبح مُجْدَه مسؤولة النشاطات الفنية!» أنت تجالسين كُبْرى عظيمي وخَجيج خانم ولا يليق بك أن يكون لك عقل العجائز».

غضبت مژده وخاصمتني وذهبت دون أن تودعني ولم أجد الوقت لأصالحها.

اليوم وبعد أن أعطيتها باقة الورد الجوري تلك، قالت وهي تضحك: «أنت تعرف أنني صافية القلب مثل ثلوج آغري، لا أقدر على زعلك».

- سأذهب إلى بيت جدي يا مُجْدَه، هل ستذهبين معي؟

- لا. هناك اجتماع نسوي في المركز الثقافي، ستأتي عقيلة القاضي محمد مينا خانم.

- طيب قبل أن تذهبي سأبشرك ببشارة.

- بشارة؟

- هذا الخميس سأذهب إلى مسجد عباس آغا لأجلب الملَّا صديق صديقي ليعقد قراننا.

- لا. أكره هذا الملَّا كث اللحية، يقول الناس إنه مرتبط بالدولة! أحضر الملا قادر سُوجه يى فهو رجل صالح.

- إمام مسجد حاجي أحمد؟

- نعم. عرسان مهاباد كلهم يعقدون قرانهم لديه. يُقال إن أي زوجين يعقدان قرانهما لديه لا يطلقان بعضهما أبدًا.

- والملا صديق صديقي؟

- هو مختص بقراءة تلقين الموتى. عزرائيل ينجذب إلى صوته.

ضحكت وقلت لنفسي: «إنك لا تتركين هذه العقائد». وانطلقت مُجْدَه مثل فراشة صوب المركز الثقافي.

* * *

كانت غرفة جدي تعج بالزجاجات الفارغة التي تتراصف بصمت. وحين لمحني جدي أحدق إليها قال: هذه جثث الثُّمالة.

- وهل شربت كل هذه الكمية؟

- بل أكثر. لكل زجاجة قصة، فهذه مثلاً- وأشار بيده إلى زجاجة مدورة- كانت فيها خمرة بوردو. اشتريتها أيام رشيد بانه يي من جندي انكليزي. وهذه - وتقدم صوب بضع زجاجات بنية اللون- زجاجات بيرة المانية من فرانكفورت، اشتريتها من موظف في السفارة الألمانية في طهران قبل أن ينتحر هتلر.

- وهذه الثلاث زجاجات؟

- هذه زجاجات ويسكي يا جحشي وقد صلتني من كرمانشاه. قتل أحد رجال عشيرة صوفيوند ضابطًا انكليزيًا وحين نزع ذاك الأحمقُ المعطفَ العسكري عن الضابط القتيل وجدها في الجيوب الداخلية. أنظر! إنها اسكتلندية تعود لعهد الملك جورج الخامس. أحد أصدقائي الأرمن اشترى الزجاجات الثلاث بعشر شاهيات.

- والمعطف؟

- المعطف! أي معطف؟

- معطف الضابط الإنكليزي.

- ارتداه ذلك الرجل من عشيرة صوفيوند لمدة عامين ثم قتل فيه. قتله أحد أبناء عشيرة جليلوند وسلبه المعطف الذي ثقبته ست رصاصات. هو أيضًا قتل بدوره. يقال أن المعطف يقبع الآن في متحف لندن وقد صار مثل الغربال. كل ذلك بسبب الويسكي، لا شك أن الضابط المسكين مات بأمل أن يشرب. ولو شرب جرعة واحدة ما كان ليموت.

- وهذه؟

- هذه زجاجات فودكا. أنظر إلى هذه! أرأيت قامة فتاة برشاقة هذه الزجاجة؟ لقد حصلت على هذه الفودكا في سنة ملا خليل كوراومري الذي كان يقاتل ويحارب ضد فرض القبعة البهلوية. كان الناس يتقاتلون والحدود تتمدد وتتقلص مثل ظل جدار في يوم صيفي أما أنا فكنت أسعى وراء زجاجات الخمر. كنت وقتها على علاقة بتاجر آذري يهرب التبغ إلى الجهة الأخرى من الحدود ومع كل سفرة كان يجلب لي زجاجة فودكا فاخرة. أنا يا بادين لا أهتم بشيء في هذه الدنيا سوى التصوير وهذه الخمرة.

- لكنك تعرف كثيرًا من الأمور!

- الفضل يعود للحرب. في بدايتها اشتريت مذياعًا من أحد المهربين. لقد أدمنت استماع الأخبار كما أدمنت الخمر. أتعرف ما هو القاسم المشترك بين الخمر والأخبار؟

- ما هو؟

- كلاهما يذهبان بعقل الإنسان.

وضع جدي كأسين أمامنا ثم أعطاني زجاجة كونياك قائلاً: افتحها يا بادين. إن لذة فتح زجاجة لا تقل عن لذة فض البكارة.

ملأتُ الكأسين، تجرع جدي كأسه في دفعة واحدة.

- گاماز گاماز يا جدي، ستؤذي نفسك. الكونياك ثقيل(*).

- لكنه لم يعرني أي اهتمام وملأ لنفسه كأسًا أخرى، قلت له ثانية:«گاماز گاماز يا جدي. هذه هي الكأس الثانية!».

- وتعرف الأرمنية أيضًا يا ابن الجواميس. لا تقل لي رويدًا رويدًا، إن من يريد الشرب لا يعد الأقداح.

وتوقف قليلاً كمن يتذكر شيئًا، ثم نظر إلى مذياع صغير على كرسي من الخيزران وقال:«أتعرف مالذي يحصل؟ جمهوريتك تشيخ وهاهي شمسها تغرب». قلت بثقة واعتزاز:«ألم يحصل أمس أن البيشمركة أحضروا عددًا من الأسرى من الجيش البهلوي إلى مهاباد؟ أما رأيتهم؟ ما أسرع ما نسيت مهاباد!».

لقد رأيتهم والتقطت لهم الصور أيضًا. لكن لا تنخدع يا ولدي. لا يمكن المزاح مع الدببة! ألم تسمع ما قاله أندريه غروميكو ممثل الروس في الأمم المتحدة حين سألوه:« ما رأيك في الأوضاع بإيران؟»

- لا. أنا لا أسمع المحطات الأجنبية كثيرًا.

- لأنك لا تريد أن تسمع الحقيقة. هو كان يقول:« إين مسأله داخلي إيران ميباشد و ما حق دخالت در اموری داخلي كشورهای ديگر نداريم!» انظر إلى هذا الدب! يقول إن المسألة داخلية في إيران ولا حق لنا بالتدخل في الأمور الداخلية للدول الأخرى. قل لي هل يمكن المزاح

(*) گاماز گاماز بالأرمنية يعني رويدًا رويدًا..

مع الدببة؟

- كيف لا يمكن؟ أتذكر أنني كنت في أحد أيام عيد الأضحى في الموصل وكان هناك رجل كلداني قد روض دبًا وصار يرقصه.

- لكن الدب الذي أحدثك عنه دب سيبيريا وهو بدل أن يرقص يتبول على الإنسان. ثمة حركة مشبوهة فانتبه. الروس جدار خَرِبٌ لا ينبغي للمرء أن يأمن جانبه. والحزب الديمقراطي الآذري يلحس مؤخرة الحكومة. سيترك الروس جمهوريتك مثل غصن فتي أمام ريح عاتية. سترى! لا تغتر باثني عشر ألف بيشمركة. القدر يجدل حبلاً خشنًا لرقبة الجمهورية ولو ضاقت حلقة هذا الحبل قليلاً فسترى عشائر مامش ومنكور وديبوكري وهركي ولا أدري من أيضًا يرتمون في حضن الشاه محمد رضا. إشرب، إشرب. إن السياسة خراء. إشرب.

- كنت وعدتني يا جدي؟

- نعم يا خروفي، أنا أطلق وعودًا كثيرة، فأي وعد تعني؟

- بيت سلطانة و..

- وخانم. هل أنت مستعجل؟ سنذهب غدًا. فليستمع الناس إلى أخبار المذيعين رحمان أويسي وهژار بينما أنت تصغي لآهات سلطانة اليهودية.

توقف جدي قليلاً ثم نهض ليدير إبرة المذياع إلى القسم الفارسي من محطة البي بي سي: «اينجا لندن است، راديوى بي بي سي» وتدفَّقت الأخبار.

- أرأيت؟ هاهي الأمور تعود إلى مجاريها بين طهران وموسكو. سيحصل الروس على امتياز شركة بترولية. لا شك أنهم سيسكبون برميلاً من البترول على الجمهورية ويحرقونها.

- يا جدي ليس الروس مؤثرين في جمهوريتنا لهذه الدرجة. هذه ليست آذربيجان. كل شاة برجلها معلقة و..

- والحمير من أمثالك معلقون بآذانهم وأذنابهم. كيف لا يؤثر الروس! ألا تعلم كيف أن مسؤولي الجمهورية في البداية وإرضاء لستالين ضيقوا على الأثرياء كثيرًا؟ قتلوا غفور محموديان وحاصروا بيت سيد جعفري لعدة أيام إلى أن افتدى الرجل نفسه بخمسة وثلاثين ألف تومان. أنت لست في هذه الدنيا. ألا تتذكر أنه لولا عمر خان الشكاكي كانوا سيقتلون ميرزا رحمت شافعي أيضًا؟

- نعم أتذكر. لكن كانوا يقولون إنه جاسوس!

- كل من لديه مال جاسوس. أي جاسوس يا أهبل!

ينظر جدي إلى الأوضاع نظرة مختلفة. ما السر يا ترى؟ لا أحد يضايقه والجمهورية ليست كما يصفها هو ولا مضايقات شديدة للأثرياء كما يحدث في جمهورية آذربايجان. الناس مرتاحون ومسرورون بهذه الحرية. أما إذا كانت هناك تصرفات غير مناسبة فهي بسبب الروس، فأصابعهم كما يقول جدي، في كل ثقب.

أصبح جدي ثملاً، بينما كنت أغرق أنا في السكر رويدًا رويدًا ولا أعلم كيف استسلمت للنوم.

* * *

من النافذة الشرقية تبدو لي دالية العنب، يسيل عليها ضوء القمر مثل شمعة تذوب. إنها شجرة مهيبة أغصانها تحمل أسرارًا خرافية. اخضرت جميع الأشجار في مهاباد وتفتحت أزهارها إلا داليتي فهي لم تشعر بقدوم الربيع بعد.

يبدو القمر وكأنه يريد أن يبوح لي بكلام. يحدق عبر نافذتي بنظرات مليئة بالأسئلة. أتذكر كلام قارئة حظ في السليمانية: «حينما يكتمل القمر، تكتمل حياتك». وإلى هذه اللحظة اكتمل القمر أربعين مرة وما زلت أعيش. مهاباد تعني مدينة القمر، ترى أكانت قارئة الحظ تقصد هذه المدينة؟

كلما مضى الليل اشتد سواده وهاهو ينسكب على مهاباد مثل شاي ثقيل. تلتمع علبة تبغي لمعانًا حزينًا. يا ويلي. لقد نقص التبغ فيها. هل يا ترى نهبها الروس أيضًا؟



ذهبنا أنا وجدي إلى بيت سلطانة وقبل أن نطرق الباب وقف جدي وتلفت حواليه كمن يتهيب رؤية أحد وحين وجد الشارع خاليًا خبط الأرض بقدمه اليمنى وقال بصوت مخنوق: «هاهنا قتلوا غفور محموديان». طفرت بضع قطرات من الدم حين خبط الأرض.

في الداخل أكملت سلطانة اليهودية تلك الحكاية هكذا:

"قبل أن تغيب الشمس، كنت أمام المرآة أمشط شعري. دخل شخصان وقالا: أعدِّي لنا ثلاثة أقداح من العرق. سألت: ولمن القدح الثالث؟ فقالا بخشونة: ستعرفين الآن. ذهبت ونظرت من نافذة تطل على الشارع المزدان بالثلج فرأيت غفور محموديان بقامته المديدة ومعه شخصان، كانوا يأتون من جهة البلدية. كانت الشوارع خالية والناس في المقاهي يصغون إلى أخبار الساعة الخامسة. فجأة حاصر ذانك الشخصان المسكين غفور محموديان ووضعا فوهتي مسدسيهما في صدغيه. سمعت صوت ثلاث طلقات وسقط غفور مثل بعير على الأرض وتمدد فوق

الثلج، كان فاغر الفم يحدق في السماء، زحف على الأرض قليلاً لكن سرعان ما أسلم الروح».

كانت سلطانة اليهودية تسرد الحكاية على مهل وكأنها تنقل أحداث فيلم تشاهده بينما كان جدي يطوق عنقها بذراعه ويفرك نهديها.

«وضعت كأسي العرق أمامهما وبقيت صامتة. سأل أحدهما بالروسية: ما بك يا سلطانة، مالذي جرى؟ رددت عليه بخوف: لقد شاهدت الموت على الثلج. ضحك ذاك الرجل وقال بصوت عال: خراتشو..خراتشو.. »

- من كان ذاك الروسي؟

سألت سلطانة بخوف. وقبل أن تجيب هي بادر جدي قائلاً: كان ذلك نَماز عليوف.

- ثم؟

ثم دخل أحد الشخصين اللذين قتلا غفور وقال بصوت مرتجف وفارسية خشنة: تمام شد.

- ثم؟

- لم يحصل شيء. كل واحد ذهب إلى منزله. لكن الخوف قطع جوف الأثرياء.

- يبدو صحيحًا يا جدي أن للروس أصبعًا في كل ثقب

- نعم يا جحشي. فلتنتبه إلى ثقب مؤخرت إذك إذًا!

حينما عدنا في وقت متأخر من الليل كان رأسي ثقيلاً. سأل جدي ونحن ما نزال في الطريق: «هل أعجبك خمرها؟ هذا نبيذ مصنوع من

كروم أوكرايينا حيث المئات من الفاتنات يعصرن العنب على أنغام الاكورديون وتحت شمس إلهية، ألم تشم منها رائحة أنثى؟»

لم أكن أفكر في الخمر بل كنت أفكر في تلك الدماء التي سالت على الثلج الناصع في حارة اليهود قبل عدة أشهر. وقبل أن نفترق أنا وجدي وأعود لبيتي قلت: «لم تكن خانم هناك يا جدي». فضحك ومرر بيده على رأسي ثم قرَّب فمه من أذني وهمس:« لقد ذهبت للصيد».

- الصيد؟

غدًا، غدًا تعال لنذهب إلى هناك وستفهم كل شيء. لكن قص شعرك الذي يشبه شعر المجانين. وقصره قليلاً. تبدو مثل أحد الدراويش القادريين.

* * *

٢٠ أيار ١٩٤٦

اليوم حلقت شعري عند الحلاق بويوك آغا الخانباغي. إنه ليس فقط حلاقًا بل ممثل لعب كثيرًا من الأدوار في المسرحيات التي مثلت في مهاباد. جلست على كرسي واطئ وضعه الحلاق أمام حانوت تحت ظل شجرة، ثم وضع في يدي مرآة عتيقة بإطار مهترئ من خشب الجوز. حين نظرت فيها رأيت وجهي وكأنه ليس وجهي: كان بشعًا ومتطاولاً فقلت في نفسي: «جمهوريتنا أيضًا ستصبح هكذا».

بقيت صامتًا لكن بويوك آغا كان مثل كل الحلاقين ثرثارًا وصار يسرد القصص والوقائع وحوادث الزمان متتابعة كأنه استأجر أذني، ومع أنه كان يصغرني بثلاث أو أربع سنوات فقد كان يتكلم مثل رجل عجوز ويدندن بين الفينة والأخرى بأغنية (شيرين تَشي دريسي)، كان يوقف

كل لحظة مقصه ويطرح سؤالاً: «هل سمعت أن عمر خان الشكاكي زج بجنوده في جبهة سقز؟»

- «نعم سمعت». رددت عليه.

كان الشعر المقصوص ينساب تحت قدمي مثل مطر أسود، تبقع القماش الأبيض الذي وضعه على صدري بكتل الشعر.

«هل سمعت أنهم قتلوا محمد نانَوا زاده؟ كان ممثل الجمهورية ويذهب إلى سقز دائمًا. فجروا طائرته. واأسفي على هذا الرجل يموت هكذا. لكن ألا تعتقد أن الموت في السماء أفضل منه على الأرض؟»

نعم أفضل. أنا أعرفه وقد كنت من مشيعي جنازته، كان كتلة من الفحم.

الحزب الديمقراطي الآذري يتقرب من الدولة. هل سمعت أن جعفر بيشواري كان قبل أيام في طهران؟ هل تستمع لإذاعة تبريز؟

كان يتكلم هكذا بينما صوت المقص ينساب كلحن موسيقي..

- هل سمعت أنه نشبت معركة بين البارزانيين وقوة إيرانية؟

- في سقز؟

- نعم، وقد قتل فيها سَرْوان خوسْرَوي.

- هو كردي من سنندج.

بعد ذلك انحنى علي الحلاق وهمس كمن يفشي سرًا « سيهاجم البيشمركة كرمانشاه وسنندج، الجيش الإيراني منهك. ولكن آآآآه لولا الروس، صدقني الطريق مفتوحة حتى عبادان».

رتب الحلاق شعري وحين مددت يدي إلى جيبي لأعطيه الأجرة

سارع إلى يدي وأمسكها بقوة وهو يقول: « معاذ الله، وهل تظن أنني لا أعرفك يا أستاذ بادين؟ لقد حلفت أنني لن آخذ نقودًا لا من البيشمركة ولا من المعلمين».

* * *

لقد مضى علي زمنٌ وأنا بعيد عن السليمانية. لكن حبيبتي في القلب دائمًا، تلك الشوارع والأزقة والأمكنة، تلك الجبال والرياح والغيوم وكل مشاهد الطبيعة، وذلك العشق الجهنمي.

عشت قليلاً في الموصل وهولير ودهوك أيضًا، لكن آه ماذا فعلت تلك النار بي؟ إنها جعلتني ألوذ الجبال.

لا أعرف كيف طاوعني قلبي على ترك السليمانية! صحيح أن جاله لم تعد هناك لكنني كنت أتسلى ويتسلى قلبي بآثار خطواتها وأنفاسها المعلقة في غرفتي. كان يعزيني أن الحب الغادر أصبح قوسًا يندف قلبي ويحلجه.

يوم تركت تلك المدينة وابتعدت بضعة كيلومترات عنها، انحرفت صوب طريق جمجمال، كان رفاقنا الذين يتركون هيوا يتجمعون هناك ويلتحقون بصفوف البارزاني ثم يغادرون المكان باتجاه كويسنجق، رانية ورواندوز ثم يصعدون الجبال، قلت في نفسي: «ستطهر نيران الجبال قلبي من صدأ الحب». كنت أمشي في الطريق، أعبر الوديان السحيقة والصخور العظيمة الشبيهة بالعفاريت متذكرًا آخر ما قاله لي صادق: «لا جعلك الله نادمًا».

«أليست الحياة كلها ندمًا مديدًا؟» سألته وأنا أعانقه مودعًا. أخيرًا قلت دون أن أدعه يرى دموعي:«بالله عليك يا صادق زر غرفتي ولا تسمح لآهاتي ولا لرائحة جاله أن تغادرها».

فجأة، لا أدري من أين وقفت في طريقي دورية مشتركة إنكليزية عراقية وحاصرتني تِسعُ فوهات لبنادق مانليشر.

- ارفع يديك وتوقف. أية حركة نتيجتها قتلك.

توقفت مثل فأر فاجأه هرٌّ. تقدم إلي جنديان زنجيان ووضعا القيد في يدي. ذكَّرتني برودة القيد على معصمي بحب جاله.

- أنت جاسوس ألماني.

في ذلك الوقت، لا أدري في أية قرية، كان الألمان قد أنزلوا جاسوسًا لهم بالباراشوت فأسره الإنكليز. ومذَّاك أصبحوا يشكون في كل رجل يمشي وحيدًا في طريق من الطرق. لقد فرح أولئك الجنود واعتبروني صيدًا ثمينًا لأنهم كانوا يعتقدون فعلاً أنني جاسوس. ألقوا بي مقيد اليدين خلف جيب عسكري كان متوقفًا وساروا بي صوب سجن العمارة.

أمضيت أيامًا سودًا في ذلك السجن. في اليوم الأول أخذوا بصمات أصابعي وحلقوا شعري حتى ظهر جلد رأسي. صادروا كل ما كان معي أمام باب السجن، حتى ساعتي ورباطات حذائي وحزام بنطالي. بقيت ثلاثة أيام في سجن العمارة كنت أتسلى فيها بالقمل. لا أدري كيف سارع القمل إلى جسدي! عقدت صداقة معه وحين كان الجلادون يعذبونني كان عدد من القمل يموت، كنت أتأثر للقملات حين أشعر بها تموت وأدفنها في شقوق زنزانتي الصغيرة (كانت غرفة للنوم والمعيشة والحمام والمرحاض، كنت أنام فيها جالسًا، كان نومي أشبه بنوم الذئاب أغمض عينًا وأفتح أخرى).

كنت أحزن على حال القملات الشبيهة بسمسم مقشور أكثر مما أحزن

على وضعي. وحين كان أحد السجناء يفقع قملة بين أظافره كنت أشعر بقلبي ينفجر. لقد ورثت هذه الرحمة والشفقة الزائدة عن الحد من أمي هاميست. كانت جدتي تقول: تلك المرأة كانت ملاكًا، كانت تحمل بين أضلاعها قلبًا إلهيًا، حتى أنها كانت تحمل حبات القمح -القمح الذي ما كنا نقتات منه نحن - وتنثرها أمام مساكن النمل وتقول إن النمل مسكين فليكن القمح قريبًا منه لئلا تداس أفراده تحت الأقدام.

في اليوم الأخير قال لي رجل عربي من البصرة:

أنا لا أفهم شفقتك أيها الشاب! ألا تعرف أن القمل من أعدائنا؟

- لماذا؟ ماذا فعل بنا القمل؟

- القمل أيضًا من الإنكليز، تمتص دماءنا، صدقني القمل إنكليز. ألا ترى أعينها الزرقاء؟

في اليوم الثالث، فتح أحدهم الباب وهو يقول:« بادين بن يونس الآميدي. لقد صدر قرار بخروجك من هنا».

لم أصدق الخبر من شدة فرحي وكدت أقبله، لكن فرحتي لم تدم سوى دقيقتين حين خنق ذلك الجندي العابس تلك الفرحة التي تفتحت في وجهي وقال: سنأخذك إلى سجن الموصل. رموني بعيون معصوبة خلف سيارة. كان يبدو من صوتها أنها جيب عسكري.

لقد كتبت كثيرًا ونسيت أنني سأذهب غدًا مع جدي إلى بيت سلطانة. أتمنى ألا تشعر مُجْدَه بذلك. سأنام الآن. هذه النسمات القادمة من جبال مهاباد والمنسابة مثل شلال لامرئي وناعم تجعل حتى الإله يستسلم للنوم.

الليلة سيتعثر قلمي.

سيصيبه الخرس أو أنه سيصبح جوادًا أضاع فارسه فيهيم على وجهه سائرًا بلا توقف.

سيعدو بي في صحارى الجرح وسهول الذكريات، في مرتفعات ومنحدرات حب قاسٍ يشبه نقوشًا صخرية.

أي نهار خرافي كان هذا اليوم! لم يحدث مثله لا في الروايات ولا في الأفلام ولا في حكايات الجدات. إلى الآن لا أصدق أن الواقعة جرت بالفعل. لا يمكن حدوث ذلك. لا لا يمكن أبدًا. أكان ذلك حلمًا؟ إلى الآن مازلت مشدوهًا مضطربًا.

صحيح أنني كنت ثملاً. لكن مهما سكرت فإن قليلاً من الوعي يبقى لدي. ذلك الوعي يكفيني لتمييز الخيط الأسود من الخيط الأبيض، وأدرك ماذا يجري. المنامات معروفة والتخيل كذلك. لكن ما حدث اليوم!

قبل عشرة دقائق وصلت إلى البيت وانحنيت مباشرة على أوراقي البيضاء. أريد أن أضع ما جرى في شرك الكتابة. علي أن أخبز ذكرياتي ما دام تنور الوعي لدي مسجورًا. لا أريد أن تضيع لفظة واحدة من حديثنا. الكتابة وحدها تحفظ على الأفكار مثل مومياءات المصريين لآلاف السنين.

لقد رأيت جاله.

نعم جاله. أنا لا أخطئ في الكتابة. كانت جاله بأنفاسها، بقامتها، بجسدها الناعم البض الأبيض كقطعة جبن جبلي، لكن بثوب جديد.

فلأبدأ من اللحظة الأولى حتى لا أنسى تلك الدقائق من النار والدمع والغضب وآمال لم تتحقق.

ذهبت برفقة جدي إلى بيت سلطانة، كانت الشمس توشك على الغروب. لم أكن أدري أنني في طريقي إلى لقاء النار، في طريقي لأشاهد

أطلال حبي وأفتتح من جديد ملحمة الجراح.

بمجرد دخولنا إلى غرفة سلطانة، شممت رائحة معروفة، كانت رائحة بركان، رائحة أتون نار، رائحة جحيم. كان صوت فرانك سيناترا يتردد من غرامو فون على طربيزة بالقرب من نافذة أسدلت عليها ستائر قاتمة اللون سميكة. كان سيناترا يغني أغنية سمعتها من قبل ولم أكن أحبها.

قدمت لنا سلطانة كأسين من العرق، نظر إليها جدي بشهوانية متوحشة وغمز بعينه قائلاً: «مالذي أحضرتِه لهذا الشاب الظامئ؟» ضحكت سلطانة وقالت: «واحدة تعجبه. ستأتي الآن».

ودخلت جاله مثل عاصفة!

كانت ترتدي ثوبًا أحمر شفافًا يُظهِرُ جسدها البض. بدت بوجه بارد كالموت. لا أدري كيف أفرغت كأسي في جوفي بجرعة واحدة ونهضت. التقت نظراتنا ولم أعد أرى أمامي. صرختُ: «جاله».

- اسمها إلزا فمن أين أتيت باسم جاله؟

قالت سلطانة وهي تضحك باستهزاء.

لكنها كانت جاله. وكيف لا أعرفها. كيف لا أعرف ذلك الجسد اللين، كيف لا أعرف تلك الأنفاس الربيعية، ذلك الخنجر الذي انغرز عميقًا في قلبي! كانت هي جاله، جاله التي أحرقت قلبي مثل خبز على صفيح وعودها الكاذبة.

لم تعر جاله لدهشتي أي اهتمام، وكأنها بالفعل ليست جاله، نظرت إلي بدهشة وتوجهت إلى إحدى الغرف.

ضحك جدي وقال: «يا حمار كلما ترى فتاة جميلة تظنها جاله! انطلق إليها كي نرى فحولتك»

ومثل خروف يتبع القصاب تبعتها. رأيتها جالسة على حافة سرير معدني وبيدها مرآة تنظر فيها وتنتف حواجبها.

لم أعرف ماذا أفعل أو ماذا أقول. جثوت أمامها وأمسكت بيدها:

- جاله؟!

- نعم أنا جاله. قُم ولا تمثل دور روميو لأنني لست جولييت.

وخلعت ثوبها على مهل.

كانت الخمرة قد تمكنت من رأسي. فتحتُ حزام البنطلون، لكنها أمسكت بيدي وقالت: «خمسون قرانًا لمرة واحدة».

- جاله؟!

- كما سمعت. خمسون قرانًا.

أخرجت من جيب البنطال المنسلت مني خمسين قرانًا كنت قد أعددتها للاشتراك السنوي بجريدة كردستان. أعطيتها المبلغ فبادرت إلى نزع ثيابي بنفسها وسحبتني إلى السرير.

أي جسد بارد كان يهتز من تحتي؟ كانت رائحة المثات تفوح منه. كان ذاك الجسد أرضًا محروثة. انسابت دموعي بين نهديها، خبَت عواطفي مثل نار يعلوها الدخان إذ تنطفئ. انحنت على ما بين فخذي ورفعت عينيها وهي تقول:«وهذا بخمس قرانات، هل أنت جاهز؟» ودون أن أقول «نعم» بدأت تمتص رحيقي وهي تغرز أظافرها الحادة في ظهري وتكاد تجرحني. انسدل شعرها الذهبي علي. كنت أبتلع آهاتي مثل الخناجر، جفَّت حنجرتي. مسحتْ العرق المتصبب من جبيني بمنديل وسحبتني لنقف أمام مرآة طويلة مثبتة على باب الغرفة.

سوف أثيرك.

كان ذلك دون جدوى. لم أكن قادرًا على فعل شيء. لم أعرف أين ذهبت فحولتي. في تلك اللحظة سقطت جاله عن أغصان قلبي. لم يعد في قلبي أي أثر لنار الحب الهائلة. أزلتها عن جسمي بمقص النسيان.

بصمت عدت إلى السرير. أما هي فارتدت ثوبها الشفاف المتكوم أسفل السرير وجاءت لتجلس بجانبي وتطرح سؤالاً يشبه صيفًا قاحلاً:

أما زلت تحبني يا بادين؟

كاد لساني يجيب بنعم لكن القلب أبى. وضعت وجهي بين كفيّ وبكيت.

أعادت إلي الخمسين قرانًا وهي تقول: «خذ نقودك» ثم أردفت بوقاحة تليق بقحبة: «لا بأس. هذا يحدث مع كثيرين».

لا أدري كيف خرجت من الغرفة، لا أتذكر كيف وصلت إلى البيت، لكنني أعرف أن حبي الذي كنت أتباهى به، ذُبِحَ مثل خروف هذه الليلة.

* * *

٢٥ أيار ١٩٤٦

منذ عدة أيام لم ألمس القلم ولم أذهب لا إلى المقهى ولا إلى الاستوديو ولا إلى المدرسة. طالت لحيتي حتى غطت وجهي. منذ ذلك اليوم لا أجد أثرًا لعلبة التبغ. بقيت بلا سجائر. لكنني أشعر أن جبلاً ثقيلاً انزاح عن صدري. كان من المفروض أن يصدق قلبي منذ زمن بعيد أن جاله لم تعد حبي. هذه الحقيقة التي لم تستطع السنوات أن تقنعني بها امتلكتها في لحظات. في البداية أصابني ما يشبه الجنون كمن لا يريد أن يصدق أن عزيزًا له مات. لكنني إلى الآن لا أفهم كيف وصلت جاله إلى هنا؟

عمّ تبحث ومن أرسلها ولماذا فعلت بي كل هذا؟

زارني جدي خلال الأيام الماضية مرة واحدة فقط، قال لي دون أن يعرف بقصتي:

«إنك ما زلت غرًا ولم تفهم الحياة بعد. لقد خرجت من بيت سلطانة مثل مجنون، كنت تخور مثل ثور. ماذا فعلت بك إلزا؟ أنت الذي تحسب نفسك من البيشمركة وتتنكب البندقية فوق الجبال؟ أنت لا تستطيع امتلاك امرأة فكيف ستحرر وطنًا؟ يا مجنون لقد هربت البنت من هناك بسببك. تقول سلطانة إنها كانت ستكسب من وراء تلك الفتاة مالاً وفيرًا لولا تصرفك الطائش».

قل لي يا جدي بالله عليك من جاء بها إلى هناك؟

جاءت بها خانم رفيقة سلطانة من السفارة الإنكليزية في طهران. كانت فتاة إنكليزية لكن الشيطان بال على مؤخرتك وجعلها أمامك فتاة أخرى. كنت ثملاً. كان عرق سلطانة ثقيلاً.

علبة التبغ يا جدي. لقد فقدت علبة أبي.

لقد ذهبت علبتك. أخذتها تلك الفتاة وقالت: «لا بد من تذكار من هذا المجنون».

* * *

سأكتب اليوم مذكراتي في سجن الموصل.

فلقد حدثت فيها وقائع لافتة وتعرفت فيها على رجل قدير خفف عني ثقل أيام السجن.

لحظة وصلت إلى السجن رفعوا العصابة عن عيني، مرة أخرى وأمام

البوابة الكبيرة أخذ مني جندي مسيحي ساعة يدي وحزام البنطلون ورباطات حذائي وهويتي ووضعها كلها في كيس، ثم أخذني إلى مكتب مدير السجن. كان المدير رجلاً أشيب الشعر سميناً بعيون سوداء وكان يبدو حنوناً فقال لي برقة: «لا تخف يا بني وقل الحقيقية! لا توجع لا رأسي ولا رأسك؟ قل لي بماذا كلفك الألمان؟»

كررت إفادتي السابقة وحلفت بشرفي أنني لست جاسوساً ولا أحب ألمانيا. كان هناك رجل نحيل الوجه خلف طاولة عتيقة يدون أقوالي. بعد نصف ساعة من التحقيق قال لي المدير الحنون: «اذهب الآن إلى مكانك. سننظر في الأمر فيما بعد ونعرف الحقيقة». ثم خاطب الرجل ذا الوجه النحيل آمراً: «خذ بصمات أصابعه».

كان المهجع الذي سجنت فيه يحوي أربعين شخصاً من اللصوص وقطاع الطرق والقتلة وسجناء الشرف، ومن النصابين والشيوعيين والمتدينين وأناس آخرين. في الزاوية القريبة من الباب كان هناك سجينان في عمري. وقد خمنت على الفور حين رأيتهما أن جرمهما كبير. كان الإثنان طويلي اللحية ولاحظت أن أحدهما دائم التأفف يروح ويغدو ولا يقر له قرار. للوهلة الأولى ظننته إنكليزياً، كان أشقر بعيون زرقاء ويبدو من عائلة نبيلة. لم أشأ أن أحتك بهما بل جلست في زاويتي حزيناً. لكن جاء ذلك الأشقر إلي وسألني بالكردية: «ماهو جرمك يابن العم؟»

اندهشت حين تكلم الكردية فسألته: « هل أنت كردي؟» ضحك حتى ظهر صف أسنانه الشبيه البيضاء. تقدم رفيقه وقال: «نعم يا سيدي، هو كردي. من أكراد سوريا». من لهجة رفيقه أدركت أنه بهديني، لكن لهجة الرجل الأشقر كانت غريبة على أذني.

– أنا أحمد من زاخو. وهذا نور الدين.

-     أنا بادين. من العمادية.

التفتت إلى الرجل الأشقر (نور الدين) وأجبت سؤاله السابق:

إنهم يتهمونني بالتجسس لصالح الألمان!

حدق أحدهما في الآخر وقالا بصوت واحد:

-     إنها تهمتنا أيضًا.

كان نور الدين قد عبر الحدود تهريبًا وجاء ليطلع عن كثب على الثورة التي أشعلها البارزاني ويأخذ معلومات عنها للكرد السوريين. لكن ألقي القبض عليه مع رفيقه أحمد بعد عدة ساعات. كان كرديًا شجاعًا لا يقوى أحد على مواجهته. أحببته جدًا ونسيت بفضله همومي. حدثني عن جريدة هاوار التي أنشأها الأمير الكردي جلادت بدرخان في دمشق وأشاد بالوسط الأدبي الكردي في الشام. أعطيته عدة قصائد ورجوته قائلاً:«ربما تجد لها طريقًا للنشر» وحينما رأى أنني كتبتها بالأحرف اللاتينية جحظت عيناه وقال:«أين تعلمت هذه الأبجدية؟» سردت عليه قصة تعلمي الكتابة بتلك الأحرف وكيف أن تاجرًا من كرد سوريا جاء إلى زاخو ومعه نسخة من جريدة هاوار فتعلمت الأحرف اللاتينية. هز نور الدين رأسه وطمأنني:« ستنتشر قصائدك بلا شك. أو ليست مكتوبة بالأحرف اللاتينية؟»

تبادلنا الثقة أحدنا بالآخر منذ أول وهلة وصرنا نجتمع كل ليلة وكأن بيننا سابق معرفة وأصبحنا نتجاذب أطراف الأحاديث ونناقش الأوضاع السياسية والأدبية. قال نور الدين ذات مرة:« حين أخرج من السجن وأصل سالمًا إلى القامشلي سأجعل مذكراتي في السجن على شكل قصص». ضحكت وقلت: «أما أنا فوالله لم أعد قادرًا على نظم قصيدة

واحدة. وحتى لو استبدت بي الرغبة في ذلك فإن البعوض والحشرات لا تسمح بذلك في هذا الصيف القائظ».

بعد يومين جاؤوا بمقاتلين من مقاتلي البارزاني إلى السجن. كانا يتبختران حين يمشيان ويعاتباننا قائلين:« إنه زمن البندقية وليس زمن الحديث عن الجرائد والأوراق. ربما أنكم متعلمون جدًا وأذكياء، لكن علمكم لا يكفي. أين قلوبكم المليئة حقدًا وغضبًا على الأعداء! أين حمية الشباب لديكم!». حدثانا عن البارزاني وحركته كثيرًا:

«لقد تفرغ الإنكليز الآن للكرد. كانوا قد وعدونا أننا إن لم نشعل الثورة فسيمنحوننا حقوقنا ويسمحون لنا بإنشاء المدارس الكردية وسيحسنون من الأوضاع الاقتصادية في كردستان. لكنهم الآن وبعد أن انتهى خطر هتلر انقلبوا علينا ويريدون سحقنا. وهاهي تركيا قد أصبحت حليفة الإنكليز وصارت تمتنع عن تصدير معدن الكروم للألمان. إنها تسعى لكسب ود بريطانيا على حسابنا. أعرفتما الآن لماذا نقول إنه زمن البندقية؟ الكل انقلب علينا ولا أصدقاء لنا سوى الجبال».

اشتغلت خلال حبسي عدة أيام في مهنة النجارة، كنت أقطع الخشب وأصنع إطارات النوافذ مقابل سبعة فلوس في اليوم. وكان هناك مستخدم عربي في السجن اسمه جابر، ينزل كل يوم إلى السوق ويحضر المواد للسجناء. وذات يوم اشتهيت الشرب فهمست في أذنه:« هل لك أن تؤمن لنا زجاجة عرق؟» تلفَّت فيما حوله وقال مبتسمًا:« أدفئ الجيب فسأحضر لك ماء زمزم أيضًا» أعطيته كل ما كسبته من فلوس وفي المساء جاء ومعه كيس أسود، كان قد أحضر العرق وقليلاً من الثلج أيضًا: «الثلج مجانًا... لكن أرجوك لا تدع مدير السجن يعلم بالموضوع».

أصاب المللُ نورَ الدين كثيرًا وما عاد يصبر على السجن.

كاد يجن من القهر حتى قال ذات يوم:« من هنا إلى ثلاثة أيام إن لم يفرجوا عني فسأعلن الإضراب عن الطعام حتى الموت».

كانت تلك، المرة الأولى التي أسمع فيها عن شيء اسمه الإضرب عن الطعام حتى الموت.

كان الناس يأتون أيام الخميس إلى السجن لزيارة أقاربهم لكن أحدًا لم يكن يزورنا. كنا أنا ونور الدين وأحمد بلا أقرباء. لكن ذات يوم خميس جاء إلينا رجل من حزب هيوا الذي كنت أظن أنه لم يبق فيه حجر على حجر.

كانت الشمس توشك على الغروب حين جاء جابر وقال:« نور الدين زازا إلى غرفة الزيارات»، قام نور الدين فرحًا ومضى. ثم عاد إلينا بعد ساعة مبتسمًا وقال:« أتعرفون من الزائر؟ إنه علي حمدي ممثل هيوا من بغداد». كان علي حمدي شابًا قصيرًا، نحيلاً وعذب المحيا وهو أحد أصدقائي وقد التقينا عدة مرات في اجتماعات الحزب، وأتذكر أنني انتقدته ذات اجتماع وقلت له:« لقد أصبحت ظلاً لرفيق حلمي وتفكر بمنطقه». فضحك وأجابني بلطف:« أن أصبح ظلاً أفضل من أن أظمأ وألاحق السراب. أنتم الكرمانج البهدينيون دمكم حامٍ. قرويتكم سبب مشاكلكم. هذه سياسة يا بادين، مثل الشطرنج، وعليك معرفة قواعد اللعب. هذه سياسة وليست ثور حراثة يسوقه أي فلاح».

في الخميس التالي ذهبت أنا أيضًا إلى غرفة الزيارات، وحينما شاهدني علي حمدي اندهش وصار يحدق فيّ، قلت له مستغلاً الفرصة: «أنا بادين، بادين الآميدي» ردَّ مبتسمًا: «أرأيت في أي حفرة أوقعك حماسك؟» ثم قال وكأنه شعر بأن كلامه قاسٍ:« لا تهتموا. الحزب على علم بوضعكم ويبحث لكم عن محامين. قضيتك سهلة يا بادين. أما قضية أخينا

نورالدين فمعقدة قليلاً لأنه عبر الحدود إلى العراق تهريبًا. وأنتم تعرفون أن الأوضاع حاليًا استثنائية والإنكليز يتحسبون للجواسيس كثيرًا خاصة بعد أن أنزل الألمان جاسوسًا لهم بالباراشوت إلى أرض العراق وللأسف فقد نزل في كردستان واختبأ في بيت أحد الكرد. المسألة تحتاج لبعض الوقت».

قلت له باعتزاز: « إنني حين أخرج من السجن سأتجه إلى منطقة بارزان وأنضم إلى قوات ملا مصطفى» ضحك وقال: «لست أنت وحدك بل كثيرون من أعضاء حزب هيوا سبقوك. سلم على كل من تراه هناك».

حينما أدرك نور الدين أن قضيته عويصة قام فجأة وقال: «أنا منذ الآن في إضراب مفتوح عن الطعام وليحدث ما يحدث». وخرج بوجه مكفهر من غرفة الزيارات.

في الأسبوع التالي جاءت سيارة جيب عسكرية من بغداد وأخذت نور الدين المضرب عن الطعام مع رفيقه أحمد إلى سجن بغداد. حينما ودعاني وقبلاني، توجه إلي نور الدين بوجهه الذابل وقال:« لا تأكل هم قصائدك فسوف يتم نشرها».

عدت مرة أخرى إلى مهنة النجارة لكي أنسى نفسي فنسيتها لكنني ما كنت أنسى هذا الكردي المندفع والمتحمس. أي قلب كان بين أضلاعه! لم يذق الطعام أبدًا. لو كانت لي إرادة مثل إرادته لكانت حياتي بشكل آخر. في الأسبوع التالي جاء جابر وقال: «المدير يطلبك». خفق قلبي وقلت يا ترى لماذا يطلبني؟ وذهبت إلى مكتبه فورًا. ابتسم لما رآني وقال برفق:« لم نثبت عليك أي شيء. أنت بريء من تهمة التجسس للألمان. تستطيع الخروج الآن. هل لديك نقود؟»

نعم سيدي. كسبت بعض المال من النجارة.

سلمني هويتي وأغراضي وزودني ببعض النصائح ثم قال: «يا ولدي الأوضاع صعبة فلتنتبه لنفسك. لو كنت وقعت بين يدي رجل ظالم لأصبحت في خبر كان. لكن أمك دعت لك. اذهب بأمان الله».

طرت بلا أجنحة. أنا حر. أنا حر مرة أخرى. توجهت إلى الطرف الثاني من دجلة. كانت نسمات هواء حر تهب من جهة النهر. تنفست الصعداء. كدت أقطع النهر سباحة للوصول إلى الطرف الآخر. لكن لا يمكن المزاح مع دجلة. أعطيت خمسين فلسًا لصاحب أحد المراكب يوصل الناس بالأجرة إلى الضفة الأخرى. لا أدري كم بقي المركب في الماء، لكنني شعرت به زمنًا طويلاً. صرت أشعر بالحرية أكثر كلما اقترب المركب من الضفة، لم أكن أصدق عيني حتى ارتطم المركب بالضفة الأخرى فغادرته قبل الآخرين وحالما وطئت قدمي اليابسة صرخت من الفرح بكل قوة وتنشقت هواء الحرية.

* * *

وصلت بحالة مزرية إلى منطقة بارزان، مهترئ الحذاء، أشعث الشعر، متشقق الجلد. كان العديد من أعضاء حزب هيوا قد انضموا إلى قوات ملا مصطفى البارزاني، كما انضم إليها بعض الجنود الكرد المنشقين عن الجيش العراقي وجاؤوا مع أسلحتهم، أحدهم وكان اسمه صديق دشتازي، لن أنساه ما حييت، أعطاني بندقية من نوع صندوقلي مع مئة طلقة وقال: «أهديك هذه البندقية التي تستطيع بها محاربة عزرائيل أيضًا».

فجأة ظهر البارزاني، لاح مثل حلم، مثل غيمة ربيعية وأسد الوديان.

كان نصل خنجره ذو المقبض العاجي مغروزًا في حزامه الملفوف فوق سرواله الذي كان بلون تراب الجبل، بدت نظراته قاسية غاضبة وحنونة في نفس الوقت. اهتزت الأرض تحت قدميه، كانت شمس كردستان قد جعلت من وجهه أغنية بهدينية. توكأ على عصا كان عبارة عن غصن من شجر الجوز، نفخ عدة نفخات من دخان غليونه الذي بقي في فمه وقال دون أن ينظر إلى جمع المقاتلين: « أرأيتم كيف كذبوا علينا؟ لقد ذابت عهود الإنكليز مثل قطعة جليد في حرارة الشمس. سنقاتلهم مضطرين، ربما كان عددنا قليلاً، ربما نُهزم لكننا لن نقبل العيش تحت راية ظلمهم. إن الأسد يموت جوعًا ولا يأكل لحم الجيفة. لقد ذهب نوري السعيد فخلفه الباجه جي لكنهما وجهان لعملة واحدة، سهمان في قوس واحدة والرامي واحد. لم يبق لنا سوى هذه الجبال وبنادقنا». توقف قليلاً، ثم ضرب جزمته عدة مرات بعصاه وقال بعد فترة تأمل قصيرة: «أنوي الذهاب إلى منطقة بهدينان، هناك عشيرتان متخاصمتان سنسعى للصلح بينهما، من سيأتي معي؟»

ارتفعت ثلاثمئة بندقية وصدحت ثلاثمئة حنجرة: «كلنا». انفرجت أساريره، سحب بعمق دخان غليونه، وضع غصن الجوز تحت إبطه ثم اختار خمسين فارسًا وراجلاً لمرافقته. كنت واحدًا منهم. حين وصلنا إلى كانيا سنجى قريبًا من نهر العمادية، كاد قلبي ينخلع من صدري. جئت ووقفت عند البارزاني وقلت له: «هل تأذن لي يا سيدي أن اذهب لزيارة جدتي قليلاً؟»

عبس المقاتلون في وجهي وكأنهم يقولون: «هل هذا وقت جدتك؟». لكن البارزاني قال وكأنه عرف ما تضمره نفوسهم: «إذهب ولكن لا تتأخر وإياك أن تأخذ بندقيتك معك».

هاهي العمادية.

الحب الأول، شجرة التوت، مئذنة المسجد الكبير، ضوضاء السوق المسقوفة، مدرسة قُبَّهان، قلعة آشب، جبال كارا ومَتين، الأزقة الضيقة والربيع المستعجل! هاأنذا مرة أخرى أكحل عيني بمواطن طفولتي وشبابي.

كانت الشمس توشك على الغروب وظلال الأشجار والبيوت تتمدد باسترخاء وتعب على الأرض وكأنها نسيت نفسها.

لقد رأيت غروب الشمس في أماكن كثيرة لكن الغروب في العمادية أبهى منظرًا. سرت على مهل نحو بيتي كمن يسير في نومه، وعندما اقتربت ألفيت باب الدار مشرعًا وظهرت جدتي وهي تسند ظهرها إلى جذع شجرة التوت وتنظر إلى باب الدار. حين أحست بقدومي قالت بصوت ملفوف بنبرة البكاء: «ادخل يا بادين».

فجأة صمتت العصافير التي كانت تملأ البيت بزقزقتها ثم طارت دفعة واحدة. هزَ الهواء الذي أثارته أجنحتها مروج قلبي. انحنيت مقبلاً يد جديتي. لمعت دمعتان في عينيها العمياوين: « أنا لا أراك يا ولدي، لكنني عرفت أنك ستأتي وتصبح ضيفي. طار العجين ثلاث مرات من الطشت. العجين لا يكذب».

كان الظلام يسدل ستائره رويدًا رويدًا بينما سردت جدتي حكاياتها وما جرى لها: « لقد تتالت النكبات علي يا ولدي. قتلوا بقرتي. لا أعلم ماذا فعلت بهم تلك البقرة؟ كانت تمدنا بحليبها الصافي، كانت تمدنا بالروث وترعى بصمت. كانت بقرة خلية البال. لكنهم جاؤوا وأمطروا أرضنا من السماء بالنار. قتلوا الماشية وحرقوا الحقول ودمروا البيوت.

وكأن ذلك كله لم يكفِ حتى أصابت صاعقة صيفية ابنة عمتك التي كانت قد جاءت لتوها من تكية بامرني فأحرقتها. كانت المسكينة لا تفهم ماذا يحصل. كانت تضحك من الخوف وتقفز في الهواء كلما لمع البرق وهدر الرعد. جاء عزرائيل على جناح صاعقة غادرة وخطفها مني.

إنني أحزن كثيرًا على بقرتي. ترى ما الذي فعلته بحق هتلر أفندي وتشرتشل بيك! ألا فليطفئ الله مواقدهم ويقتل بقراتهم ويحرمهم من الحليب».

كنت أصغي صامتًا إلى ما حدث في غيابي من وقائع، ضاقت نفسي فبكيت في صمت.

«اعلم يا ولدي أنك ضيف لعدة ساعات. لقد أعددت لك هذا الحجاب فتقلَّده، إنه سيحميك. لقد كتبه أحد أولياء النقشبنديين».

تناولت الحجاب من يد جدتي وانحنيت مقبلاً يدها مرة أخرى، فقالت لي: «خُذ فرعًا من كرم العنب وازرعه، فإذا اخضر فاعلم أن موتي أو موتك قد اقترب». لم يكن الكرم بعيدًا، ففعلت ما قالته جدتي ثم توجهت في الظلام إلى كانيا سنجى حيث يعسكر البارزاني ورفاقه. وقبل أن أخرج من البلدة انعطفت نحو المقبرة لأزور قبر أمي لكنني لم أره. لم أشاهد أمي وهي على قيد الحياة وها أنذا لا أتعرف على قبرها وهي ميتة.

توجهنا من كانيا سنجى صوب مَريبا، انفصلت عنا بضع وحدات لتذهب إلى نيروه ريكان وأماكن أخرى أما أنا فبقيت مع وحدة البارزاني.

كان الخريف يدق أبواب الطبيعة. أما في قلبي فقد تفجر الربيع. جاءنا خبر مفاده أن الجنرال الإنكليزي رنتون ذا اليد المقطوعة يقود بنفسه حملة إنكليزية عراقية ويحشد قوات كبيرة للهجوم على منطقة بارزان.

كانت رائحة حرب ضروس تفوح في الأرجاء. الحرب العالمية كانت قد انتهت. انتحر هتلر ووقعت برلين تحت براثن الجيش الأحمر. السلاح النووي قطع قلوب اليابانيين فاضطروا لرفع الراية البيضاء ووقعوا معاهدة الاستسلام.

فرغت الدول الكبرى للأشواك الصغيرة فصارت تحاول نزعها من أجسادها الجريحة.

ذات يوم، كنا متحلقين فيه حول البارزاني وكان يشرح لنا أوضاع القوات العراقية والانكليزية، من بعيد ثار الغبار فتوجهت نظراتنا نحوه. مع كل غبار يثور فارس يجري، ومع كل فارس نبأ ما. لا أدري من قال هذا الكلام! لكنه صحيح على كل حال فقد كان ذلك الغبار يخفي فارسًا وحينما اقترب منا توجه فورًا إلى البارزاني ووشوش في أذنه ببعض الكلام. كان ذاك الفارس قادمًا من ناحية برادوست.

فجأة أمسك البارزاني بمقبض خنجره وصرخ: «اولو بك الشيرواني؟ متى؟».

كان ذلك الفارس قادمًا من عند الشيخ أحمد شقيق الملا مصطفى. نقل له فقط هذه الكلمات الثلاث: «عُد إلى بارزان».

كنت رأيت البارزاني في حالات الهدوء، لكنني لم أكن أصدق أنه يثور لدرجة كبيرة إلى أن رأيته تلك اللحظة. كانات عيناه نصلا خنجرين يبحثان عن كبد. أشعل تبغ غليونه المصنوع من خشب البطم ونفث سحابة طويلة من الدخان وقال: «لقد قتلوا اولو بك في ميركه سور. لا يكفي أنهم أصموا آذانهم مثل قصب الجن(*)، هاهم يقتلون أصدقاءنا

(*) الأكراد يعتقدون أنه يمكن حبس الجن في أعواد القصب ثم ختمها عليهم بالشمع..

أيضًا. لقد جعلوا حياتنا مرة ويريدون أن نشرب الشاي المر أيضًا. من أجل حفنة من السكر قتلوا بطلاً مثل اولو بك! نعم، الشاي المر سنشربه، لكن الحياة المرة! لا وألف لا. اليوم ستبدأ الثورة».

* * *

٢٧ ايار ١٩٤٦ مهاباد

استمعت هذا المساء إلى نشرة أخبار راديو تبريز، كان المذيع يتحدث بلغة آذرية مفخمة وخشنة عن اجتماع جعفر بيشوري مع ممثلي الحكومة المركزية لمناقشة النقاط العشر لأحمد قوام السلطنة.

يبدو أن بيشوري بدأ يخضع للشروط، ووصل إلى قناعة بأن عليه التوصل إلى اتفاق مع الشاه ويرتمي بنفسه كليًا في أحضان الدولة.

لكن الذنب ليس ذنبه، لقد فهم جدي لعبة السياسة حين كان يقول: « يوجد لموسكو أصبع في كل ثقب».

اليوم أغلقت المدارس أبوابها وأقمنا حفل وداع صغير في المدرسة. غنى تلميذ حسن الصوت اسمه عزيز شاهروخ عدة أغانٍ ثم بدأ المدير توزيع الشهادات. كنا نجلس أنا ومُجْدَه حزينين، مسحت مُجْده دموعها وقالت بحزن: « سأشتاق إليك، إن استطعت تعال ذات يوم إلى شنو لنلتقي».

غدًا سأذهب لجبهة القتال، سأترك الدروس والتلاميذ لأن زمن البندقية قد جاء.

* * *

١٢ حزيران ١٩٤٦

منذ أسبوعين وأنا في جبهة القتال. لم أجد فرصة ولو دقيقة واحدة لأدون يومياتي. نستيقظ كل يوم قبل أن تشرق الشمس فنحصن الدشم والمتاريس ونحفر الخنادق ونقوم بتزييت بنادقنا. يساعدنا في ذلك خليل خوشَوي بنفسه.

الطريق أسفل مامه شاه (وهو الجبل الذي تموقعنا فيه) والذي يتجه إلى سقز أصبح مثل درب النمل، تسير فيه الشاحنات الإيرانية العسكرية ذهابًا وإيابًا بينما نطلق نحن النار عليها بدون رحمة. أمس جاءنا أحد البيشمركة من قبل العقيد ميرحاج وقال: «الجنرال رزم آرا يتهيأ للهجوم، فاحذروا».

- ليحذر هو وجنوده لأننا حفرنا لهم قبورًا هنا.

هكذا أجاب خليل خوشَوي.

الملا مصطفى في تبريز. ونحن ننتظر الأوامر العسكرية لنهاجم فنسيطر على سقز وسنندج. لم نعد نصبر. ولن تواتينا فرصة أفضل من الآن. الجيش الإيراني منهك ومرهق. لكن آه لو كان القرار في يدي، لكانت راية الجمهورية الآن تخفق حتى على آبار البترول في كرمانشاه، وعلى مسجد دار الإحسان في سنندج وعلى بنايات سقز كلها.

إن جمهورية صغيرة مثل علبة تبغ لن تكفي شراهتنا للتدخين.

الحديث عن علبة التبغ ذكرني بذلك اليوم المشؤوم، يوم سرقت جاله علبة أبي وأعادت إلي قلبي. أنا أستعمل بقايا تبغ دائرة التبغ في مهاباد حيث شحنوا التبغ إلى روسيا وبقي منه ذرور ناعم جمعه الناس وصار بعضهم يبيعه بثمن رخيص. اشتريت منه كيلوجرامًا واحدًا بعد ضياع

علبتي، لكنه تبغ رديء جدًا، أدخنه فأشعر بأنني أدخن الروث.

الوضع الآن واضح، وكلمة واضح بحاجة إلى توضيح، لأن وضع الجمهورية يسوء شيئًا فشيئًا. الحزب الديمقراطي الآذري اتفق مع الحكومة المركزية ويمكن للمرء أن يقول إن آذربايجان كلها وقعت تحت عباءة الشاه محمد رضا. الجيش الأحمر يعسكر الآن شمال نهر آراس ولم يبقَ منه أي جندي في الأراضي الإيرانية. صحيح ما قاله جدي إذًا: «ستالين مثل حبة العدس، لا تعرف وجهه من قفاه».

قبل عدة أشهر كنا نقول إن الجدار الذي استند إليه الكرد لن ينهار، وإن تلك الدولة التي تغرس علمها فوق مبنى الرايخستاغ الألماني لن يهزمها أحد، والدولة التي تناضل من أجل الكسبة والعمال والفلاحين لن تبيع مطلقًا شعبًا مضطهدًا. لكن هاهي الجمهورية تباع من أجل رشحة بترول. هاهم يريدون وأد الجمهورية وهي ما تزال في المهد.

نحن البيشمركة المعسكرون شمال سقز نترقب انفجارًا ما. الجيش الإيراني يستعد لحملة كبيرة كما قيل لنا، أنا أظن أننا حتى ولو طلبنا المعونة من الروس فلن يساعدونا بل سيسحبون البساط من تحت أقدامنا ويتركوننا لقدرنا.

جبل مامه شاه صامت هادئ لكن نبضات قلوبنا نحن البيشمركة الثلاثة والأربعين تهزه. ثلاثة وأربعون بندقية وبضعة مدافع لا تذهب قذائفها أبعد من ظلها، لكن عزيمة تشبه الفولاذ ودماء أحمى من بركان تمنحنا القوة. ترى لو ساعدنا ستالين بشكل جدي أين كنا سنصل؟

يجب أن نصعد مساء وننضم إلى خليل خوشَوي ورفاقه. ميرحاج ومجموعته يعسكرون غربي الجبل وهم لا يقلون عنا حماسًا وعزيمة.

الليلة، وأنا أستند إلى هذه الصخرة الصماء تحت ضوء القمر وأشعة النجوم الحنونة، سأكتب ما عايشته، ومن يدري؟ لعل الموت الذي أنتظره قد اقترب كثيرًا ولن تنفع تميمة جدتي بعد الآن. سأكتب، وكما قلت في البداية، فالكتابة وحدها تغلب الموت.

أنا لا أخاف الموت ولا أكترث بعدم تحقيق الأهداف. فالحياة عندي سلسلة من الخيبات. لكنني لا أدري لماذا أرى حياتي ووقائعها جديرة بالكتابة!

القمر الحنون الذي أهابه، يميل عن كبد السماء رويدًا رويدًا ويغسل مهاباد بضوئه الخجول. أرى في ضوئه هذه الصفحات البيض الخرساء التي تنتظر الكتابة. قلمي في يدي اليمنى يلقي عليها ظلاله لكن الكلمات تضيء هذه الأوراق.

* * *

١٦ حزيران ١٩٤٦

مامه شاه

أنا حزين، وفي نفس الوقت سعيد. حزين لأننا سمعنا خبر موت البطل الذي خاض المعركة التي جرت قبل يومين، وسعيد لأننا هزمنا جيش الشاه.

عشر رصاصات ثقبت جسد الشهيد بن الشهيد خليل خوشَوي. كنت بجانبه حين انهار مثل جدار. مد يده إلى صخرة بعيدة وقال: « انتبه يا بادين.. مصدر إطلاق النار هناك » عرفت تلك الصخرة وجندلت جنديًا إيرانيًا خلف الصخرة. كانت الدماء التي تنزف أغزر من نبع، اجتمع عليه بضعة بيشمركة وحملوه وأبعدوه عن المعركة.

زاره البارزاني في المشفى الروسي في تبريز وقبل جراحه العشر العميقة.
مات خليل خوشَوي مسروراً. ذلك اليوم رأى الجميع دموع البارزاني.

وحدهم الرجال يجيدون البكاء على رجل مثل خليل.

قال البارزاني وهو يمسح دمعته.

نحن البيشمركة متحمسون جدًا، تغلي الدماء في عروقنا وننتظر المعركة الحاسمة وعيوننا على الجنوب. لكن القرارات السياسية التي تنزل مثل الصقيع من الأعلى تحد من حماسنا واندفاعنا.

ترى ماذا تفعل مُجْدَه في شنو؟ حفرت اسمها على أخمص بندقيتي وكلما سنحت لي الفرصة أقبل ذلك الأخمص. اليوم لمحني خورشيد مزوري (وهو أحد البيشمركة ويرابط معي في مامه شاه) وأنا أقبل بندقيتي فجاء ونظر إليها ثم قال:

«ما هذه البندقية يا بادين؟ أعرف بنادق مانليشر ومارتيني. لكن بندقية مُجْدَه ؟ أين صنعت هذه البندقية؟» قلت له وأنا ابتعد: «إنها صناعة الحب، صناعة قلب محطم يا خورشيد، إنها صناعة آمال خائبة وأحلام لا تتحقق».

يبدو أن أيامي ستذهب عبثًا هنا بين هذه الصخور، سأعود إلى مهاباد. البندقية من دون إطلاق رصاص والقلب من دون حب، كلاهما يتعرضان للصدأ.

* * *

٢٠ حزيران ١٩٤٦

وقع ما كنا نخشاه. أمس اجتمع القنصل الروسي هاشموف مع القاضي محمد والملا مصطفى وميرحاج وعمر خان شكاكي ومصطفى خوشناو. جرى الاجتماع في القنصلية الروسية في تبريز واستمع الوفد الكردي إلى مواعظ هاشموف. وحسب ما جرى في ذلك الاجتماع توجه القنصل إلى القاضي محمد وخاطبه بقسوة قائلاً: «حماسكم بلاء رأسكم، إنكم تضعون خططًا من تلقاء أنفسكم وتريدون مهاجمة الجنوب. ما الذي ستفعلونه في كرمانشاه وسقز؟». يقال إن القاضي محمد رد عليه أيضًا بعنف وقال:« لقد ضحيتم بمئات الألوف حتى لا تسقط ستالينغراد في يد الألمان فصفق لكم العالم أجمع، أما نحن فنسعى لتحرير جزء من ترابنا المحتل، وأنتم تعرقلون سعينا» فرد هاشموف بكلام أقسى:«لو تقدمت قواتكم خطوة واحدة فسنسحب دعمنا عنكم. لقد جننتم وتريدون الارتماء بين براثن القوات الإنكليزية» عندها نهض البارزاني وقال:« نحن نستطيع حماية أنفسنا ومواجهة إيران، فقط لا تعرقلونا» ثار هاشموف في وجهه أيضًا وقال محتدًا:« أنتم الكرد تحلون المشكلات برؤوسكم الحامية، تحتاجون إلى ألف سنة لكي تفهموا السياسة الدولية» هنا قال القاضي محمد بلغة روسية نقية:« يا سعادة القنصل، لقد تعلمت الروسية من جنودكم الأسرى في الحرب الأولى، فانظر ماذا ستعلمك حرية الكرد؟»

ردَّ هاشموف وكأنه لم يسمع سؤال القاضي محمد:« أكرر، لو خطوتم خطوة واحدة إلى الأمام فلا تلوموا إلا أنفسكم». تبادل القاضي محمد والبارزاني النظرات بوجوه مكفهرة وخرج الجميع من اجتماع القنصل الروسي مغضبين. تمتم عمر خان شكاكي:« أي أصدقاء من جليد

هؤلاء! أية سياسة هذه!».

يقولون إن القاضي محمد وبعد مناقشات ومداولات كثيرة هدأ غضبه ولان قليلاً وهو يقول: « لا نستطيع مخاصمة الروس فهم أصدقاؤنا على أية حال».

شعرت بخيبة أمل حين سمعت بهذه الأمور، أعتقد أن كثيرين من البيشمركة مثلي.

جليدٌ هم أصدقاؤك
يأتي الصيف
وتزداد الحرارة
فيذوبون ويسيلون كالماء
يتبخرون
فما الذي ستفعله أيها المحترق
حين يكون أصدقاؤك جليدًا
وقلبك حفيد البراكين؟

غيومٌ هم أصدقاؤك
يتبعثرون على وقع هبوب ريح واحدة
بمجرد مزحة من ريحٍ شمالية
يتفرقون
وتغدو سماؤك بلا غيوم.

سجائرٌ هم أصدقاؤك
تبغٌ هم
يحرقون أصابعك
حالما تأخذ نَفَسين عميقين

شموعٌ هم أصدقاؤك
شرارة تشعلهم
ونفخة تطفئهم

أحلامٌ هم أصدقاؤك
أحلام من ماء
من ضباب ودخان
من سراب
روسٌ هم أصدقاؤك.

يتثاءب الصيف على الطرق المؤدية إلى مهاباد، تَحمى الصخور وتكاد الأدمغة تنفجر مثل حبات البلوط. تُرى أي حل لهذا القلب المرهق في هذا الجبل وعند هذه الصخور الحامية؟ يستبد بي الشوق إلى مُجْدَه ولا أصبر حتى يصدر أمر الانسحاب لأعود إلى مهاباد. لم تسنح لي الفرصة كي أخطبها، وربما تظن أنني كنت أضحك عليها. كريم أيضًا لم يعد يسأل عني في الآونة الأخيرة واكتشفت أن له تأثيرًا قويًا على قرارات مُجْدَه. إنها

لا تراه أبًا فقط، بل هي متعلقة به من كل النواحي.

القرويون بدأوا ينفرون منا، فأكلنا وشربنا وعلف بغالنا على حسابهم. اليوم شكا إلي قروي من عشيرة ديبوكرى وقال: « ما لنا وللجمهورية؟ ها! لقد باع المهاباديون تلك الكميات من التبغ، باعوا السكر، فأين ذهبت الأموال؟ ها! نكاد نجن من أجل سيجارة، لكنكم ملأتم غليون ستالين تبغًا! نحن نشرب الشاي مرًا لكنكم بعتم كل قند وسكر مياندوآب للآذريين! هل سلام جاويد وجعفر بيشوري أفضل منا؟ يابن أخي اتقوا الله. ألم يكفنا ظلم آغواتنا وجورهم حتى أكملتم عليه. بالله عليك ماذا تبغون؟»

حاولت عبثًا أن أقنعه بأن الجمهورية هي لجميع الكرد لكنني لم أستطع. كان يكرر:« لقد انتهت الحرب فماذا تريدون منا؟ ها! انزلوا من الجبال واتركوننا وشأننا، لقد نهبتمونا».

هذا رأي كثير من القرويين، رؤساء العشار يحرضونهم، أولئك الرؤساء الذين يتعاملون سرًا مع الحكومة المركزية.

قبل عدة أيام حين جاء مناف كريمي وزار جبهة سقز، أخذ البيشمركة جديًا صغيرًا أبيض من القرويين وقاموا بشوائه. في حلكة الليل وعلى ضوء النار تحلقنا حول مناف كريمي واستمعنا له. قال بتحسر:« يا إخوتي، كنت في طريقي إليكم لآتيكم بخطة القتال الجديدة وأوزعها على وحداتكم، لكن للأسف انتهى كل شيء. أصدقاؤنا الروس لا يسمحون لنا بمقاتلة الدولة. يقول هاشموف: إن أطلقتم طلقة واحدة فإننا سنسحب الدعم عنكم. إن القاضي محمد وأعيان مهاباد أيضًا يرون هذا الرأي. هذا يعني أن الهجوم على العدو سيتوقف».

لمعت دمعتان في عيني مناف على ضوء النار في ذلك الليل الأخرس الأصم، وأضاف متأوهًا: «لا بأس. فلا بد لنا من حل».

بعد أن عرَّينا عظام ذلك الجدي عن اللحم، همس مناف في أذني: « لو تفضلت يا بادين، سأسر لك بكلمتين». ذهبنا وجلسنا في أحد الخنادق واستندنا إلى البنادق المركونة إلى جدار الخندق. لاح من بعيد بعض البيشمركة متمركزين خلف الصخور. همس مناف بصوت لم أكد أسمعه: « يا بادين لقد حاربتَ في صفوف البيشمركة بما فيه الكفاية، أنت رجل شجاع، لكن لا تنس أنك مثقف أيضًا. الجمهورية الآن بحاجة إلى عقل أكثر من حاجتها إلى البندقية. ونحن مقبلون على طبع كتب الدراسة الابتدائية بالكردية. أنت لك تجربة في هذا المجال لذلك نحتاج إلى مساعدتك. كذلك يمكن أن يتم بث راديو مهاباد على الموجة القصيرة. وقد صار لنا مئة مرة ونحن نطلب من الروس جهازًا قويًا للبث الإذاعي لكنهم جعلوا أذنًا من طين وآخر من عجين. يوجد مهندس أرمني في مهاباد وربما كان لديه حل. حينذاك تستطيع العمل في الإذاعة وبث نشرة أخبار بالبهدينية أيضًا. فليصل صوت الجمهورية إلى كافة أرجاء كردستان. ماذا قلت؟».

- وما الذي كان يمكنني قوله؟ لقد مللت حياة البيشمركة دون قتال. إننا على هذه الجبال مثل صقور مقيدة، الفرائس في مرمى أبصارنا لكن الصقّار لا يطلقنا! وهذه البندقية في يدي أصبحت مثل عصا الرعيان. سأطلب الإذن وأعود معك.

قلت لمناف.

* * *

الأول من تموز ١٩٤٦- مهاباد

عدت إلى مهاباد قبل عدة أيام. وما إن لمحني جدي حتى ضحك وقال: «ها يا خروفي. ماذا أحضرت من كرمانشاه؟ آمل أن تكون قد أحضرت معك تنكة نفط؟» عرفت قصده فرددت عايه بحزن:« لولا الروس لأتيتك بكرمانشاه كلها تحت إبطي». فرد وهو يضحك:« لكي تعلم أنك حتى حينما تذهب إلى المرحاض يجب أن تستأذن الروس. بدون إذنهم لا يمكنك حتى أن تضرط يا حمار! هل تعتقد أن هاشموف هنا عبثًا؟ إنه يرعى مصالح دولته، إسألني أنا ما الذي سببه لنا هؤلاء الناكثون بالعهد». ثم غير جدي فجأة وجهة الحديث فقال على عجل: «أتعرف من كانت إلزا تلك؟»

- كانت جاله.
- وهل تعرف أنها كانت جاسوسة إنكليزية؟.
- يمكن لناس من طينتها فعل كل شيء.

زارني قبل مدة حميد مازوجي رئيس الشرطة العسكرية، وحسب معلوماته فقد أرسلتها القنصلية البريطانية إلى مهاباد وكانت ترسل إليهم عبر إشارات المورس مستغلة جسدها كل المعلومات. وكان الإنكليز يبعثون معلوماتها إلى همايوني ورزم آرا أولاً بأول. لكن لا تخف يا جَزْوي فأنا لم أتحدث له عنك. أما إلزا، أعني جاله، فقد هربت قبل أن يلقوا القبض عليها.

* * *

أنا الآن في غرفتي. وضعت عناقيد عنب من جبل داشا مجيد في النافذة وأنتظر أن تبرد قليلاً.

العنب فاكهة سحرية، فهي تصبح خمرًا، تصبح زبيبًا، تصبح دبسًا، تصبح حلوى نسميها الباستيق، وتتحول إلى كل شيء. أنا أرى أن بيني وبين العنب وجه شبه، بيننا صلات روحانية، الفرق الوحيد بيني وبين هذه الفاكهة الصيفية هو أنني بحاجة إلى سنوات كثيرة لأنضج بينما العنب لا يحتاج سوى إلى شهر.

لقد ذكرني هذا العنب بكرمنا حيث كانت جدتي تصطحبني معها إليه أسفل جبل متين. كانت تضع سلة صغيرة في يدي وكنا نتجول في الكرم. وكانت تنصحني في الطريق دائمًا بالقول:« انتبه يا بادين من العقارب. الدنيا حارة والعقارب تصبح شرسة وهي تختفي بين العناقيد. قبل أن تقطف أي عنقود تمعن فيه جيدًا». أطعت جدتي في الكرم. لكن العقارب هاجمتني في كروم الحياة ولدغتني دون أن أظفر بحبة عنب واحدة.

كنت أحب العنب الأبيض ذا الحبات الطويلة أكثر من غيره، كانت حباته تبدو مثل أنامل الفتيات لطيفة وصافية. أما حلاوة تلك الحبات فإنها كانت تفوق الوصف. كان في كرمنا عنب أسود أيضًا وكان اليهود والكلدان المسيحيون يشترونه منا بالأحمال لكنه لم يكن يعجبني على الإطلاق. كانت قشرته ثخينة وطعمه غير مستساغ، أما الآن فإنني صرت أدرك أن أفضل الخمور تُصنع من ذلك العنب.

كانت ابنة عمتي كثيرًا ما ترافقنا إلى الكرم، كنت أقطف لها العناقيد الأكثر نضوجًا وأعطيها بخجل. وكانت هي تنفخ قليلاً على الحبات المغبرة ثم تقضم الحبات بأسنانها البيضاء.

أي إنسان كان ذاك الذي كشف أسرار العنب وعرف أنها تهب الخمرة؟ مستحيل. إما أن الله أوحى للإنسان أو أن الشيطان هو الذي وسوس له بذلك العلم.

يومًا بعد يوم تخمد نار مشاعر الناس، لقد ألغيت خطط تحرير الجنوب، فبماذا سينشغل الناس إذًا! ألاحظ أن غالبية الناس يستمعون إلى إذاعة طهران والبي بي سي، أما إذاعة مهاباد فهي بمثابة مزمار يعزفونه على مسامع ثور، حتى أن بعض الناس لا يصدقون أن اللغة الكردية يمكنها أن تبث من الراديو! ليس فقط كذلك بل هناك من لا يستسيغ الأمر. إنهم يعتقدون أن اللغة الكردية فقط للمحادثة والبيع والشراء.

مهاباد من دون مُجْدَه مثل تلك الكرمة العارية المتيبسة التي جلبتها من العمادية، إنها مدينة كئيبة ولم أعد أطيق العيش فيها. ليتني لم أطع مناف ولم أنزل من الجبل. لا أدري كيف سيمضي هذان الشهران دون مُجْده!

* * *

المصباح الثالث

أكثر نورًا، يشبه نجمة في الفجر،

٤ تموز ١٩٦٤ مهاباد

اليوم جاءتني رسالة من كريم كتب فيها:

«بادين،

أنا في شنو. أنصب الفخاخ للرياح المجنونة. أنا صائد الريح كما تعلم. لكن ريح الشمال تعاند إلى الآن، إنها ريح مسعورة لا يمكن اصطيادها بسهولة. لكن سيأتي يوم تقع فيه مثل أرنب جبلي في الفخ.

نحن والآذريين لسنا على وئام. وأنت تعلم أن بيننا أحقادًا وخصومات قديمة. إنهم أيضًا كالريح لكن قريبًا ستسمع أنهم وقعوا في فخاخ الشكاك والهركيين. نحن نُملي لهم ونكيد. إنهم غصبوا غالبية قرانا حوالي خوي وأورمية من الآغوات ووزعوها على الآذريين. لو كانوا وزعوها على القرويين الكرد لما كان الأمر يهمني فأنا لست منحازًا جدًا للآغوات والبيكوات.

إنهم يحسبون أورمية وخوي جزءًا من أرضهم. هل تعلم أن هاتين المدينتين قد عمّقتا الصراع بيننا وبينهم؟ وللأسف فالروس يؤيدونهم في هذه القضية وقد أصموا آذانهم عن مطالبنا.

كيف هي مهاباد؟ كيف تسير الأمور؟ لقد سمعت أنكم صرفتم النظر عن خطة تحرير الجنوب؟ لماذا؟ إن كانت أرضنا فعندنا دمٌ لنريقه من أجلها. دمنا من شراييننا ولن يكلف الروسَ شيئًا».

كريم مرتبط بعشيرته كثيرًا. لا يظهر هذا الأمر في رسالته، لكنه كان يقول دائمًا في جلساتنا الخاصة: «لو أنشأ الشكاك في شنو وأورمية جمهوريةً لتركت مهاباد». إنه لا يتحدث في رسالته عن مُجْدَه. ما السبب يا ترى؟ مُجْدَه أيضًا لا تسأل عني. لا يبدو الأمر طبيعيًا.

إن زعيم الشكاك عمر خان ليس مرتاحًا من الجمهورية، صحيح أنه كردي متحمس لكنه مرتبط بعشيرته جدًا ولا يبادلها بالجمهورية كلها. أخاف أن يلحق كريم به.

اشتقت إلى الخمر، جدي أيضًا لا يسأل عني هذه الأيام ولا أدري ما قصته؟ سأذهب إليه بعد قليل.

* * *

لا يخلو عرين الأسد من العظام. لقد كنت عند جدي هذا المساء فأخرج من كوةٍ زجاجةَ عرق وفتحها. كان قد أحضر بعض الجليد أيضًا، قال لي بحزن: «اذهب وليحضُر ذاك الحمار آكوب أيضًا، فأنا لا يمكنني الشرب بدون وجوده». ودندن بلحن أغنية أرمنية.

بدأنا نحتسي الخمر، نحن الثلاثة، تحت أضواء شاحبة. وبدأ جدي يتكلم كالعادة ويشتم وكأن لسانه جوادٌ خرج من مربطه:

«أولاد الكلب الروس، جعلو الفودكا كالأفيون. لو كنت محل القاضي محمد لاستوردت الفودكا بثمن التبغ الذي باعوه. هم لم يدعموه بالدبابات والمدافع، فلتصبح المطبعة ومحطة الإذاعة في أم ستالين. أما هاشموف، الحمار ابن الحمار، فقد احتكر تجارة الفودكا لنفسه. سابقًا كنا نشتري بتومان واحد عشرين زجاجة، أما الآن فلا نستطيع تأمين حتى زجاجة واحدة بذلك الثمن».

قلت مبتسمًا: «يا جدي هل كل هذا من خطايا هاشموف فقط!» رمقني بنظرة حادة وقال: «يا ذبابة الحمير أفهم ما تقصده. لم يشب شعري هذا في ضوء الشمس. لا يهمني كيف يمارس هاشموف السياسة. تهمني الفودكا وليست سقز أو خوي. لتكن كل مدن العالم لكم، فقط لا تحرموني وهذا

الحمار من الفودكا. فلتكن حتى موسكو قرية في جمهوريتك أيها المسكين» وسكب كأسه بجرعة واحدة في جوفه كدأبه كل مرة حين يحتد.

كان آكوب المسكين يهز برأسه مع كل كلمة يتفوه بها جدي، احمرَّ وجهه شيئًا فشيئًا وكادت عيناه تخرجان من محجريهما، وحين رأى جدي أن آكوب يشرب ويهز برأسه فقط، خطف منه كأسه بخشونة وقال: « هل أقرأ مواعظ الإنجيل حتى تهز برأسك يا زوج الأتان! التبن ليس لك فهل المخزن ليس لك أيضًا؟ لم تبقِ لنا شيئًا».

لم تهدأ سورة الغضب لدى جدي عند هذا الحد بل توجه إلى آكوب المسكين فأمسك بياقته وقال له: « يا آكوب معك مهلة ثلاثة أيام. إن أنت أمنت لنا الفودكا فأنت أبي، وإن لم تؤمنها فسأفجر خصيتيك. أصلاً كان علي أن أفجرهما منذ زمن بعيد. أهما زينة ما بين فخذيك؟ هما لا تنفعانك ولا تحتاجهما يا زوجي». نهض آكوب المدور والذي أحمر من الشرب على قدميه ورفع إحدى يديه كأنه ملك وقال بفارسية خالصة: «گر صبر كنى ز غوره حلوا سازم» أي إذا صبرت فسأعمل الحلوى من الحصرم. لكن جدي وثب وأمسك مرة أخرى ب ياقته ورد عليه بالفارسية: «أز غوره حلوا نميخوام، أز أنگور شراب بساز گر ميتواني» أي لا أريد حلوى من الحصرم بل اصنع الخمر من العنب إن استطعت.

كنت أتفرج على ذينك العجوزين الأرمنيين وهما يتشاجران وأضحك، لفتت نظر جدي فقال:«وأنت يا حفيد الدب! دستى دور أز آتش دارى!» أي يداك بعيدتان عن النار. كنت ما أزال أضحك، لكنني قطعت ضحكي وسألته: « بالله عليك يا جدي قل لي لماذا يتحدث الأرمن بالفارسية حين يسكرون؟»

احتدَّ مرة أخرى وقال: «وهل تريدني أن أتكلم التركية يا ابن الحمير؟»

قال آكوب بروية الفلاسفة: «إن أول من اخترع الخمر كان فارسيًا. وفي تواريخنا أن الأرمن تعلموا من الفرس صناعة الخمر، وأن ملك الأرمن الشهير ديكران الأول كان يغير كل صيف على بلاد فارس وينهب حمل ألف جمل من العنب. ومنذ ذلك اليوم كلما سكر الأرمني تحدث بالفارسية، هل فهمت». وحين رأى أننا نصغي إليه نفخ نفسه أكثر واستمر يقول:« ألم تنتبه يا بادين إلى جدك يتحدث في كل حالة من حالاته بلغة معينة؟ فلتعلم أنه حينما يتحدث بالروسية يكون مسرورًا، وحين يتكلم الأرمنية يكون حزينًا وعندما يتكلم الكردية فهذا يعني أنه غاضب وعليك أن تتهيبه». سألت وأنا أضحك:«وإذا تحدث بالتركية؟» احتدَّ آكوب وقال:«حينها عليك أن تصدق أنه أصبح ذئبًا ولم يعد أرمنيًّا». ضحك جدي ضحكة جنونية وقال:« لقد درس آكوب هذا العلم في كتاب فرج أمه. لكن يا آكوب كل هذا لا ينجيك، المهلة ثلاثة أيام ولست قادرًا على التحمل كما ترغب. أصلاً لو كان الصبر يُباع لاشتريته من الكرد».

«ولماذا من الكرد؟» سألت جدي، فرد علي وهو يملأ كأسه: «لأن الكرد يتلقون مئة ضربة من العصا ثم يتذكرون أن عليهم أن يقولوا آه».

يحلل جدي في سكره الوقائع بعمق أكثر حتى تخاله سياسيًا أمضى سنوات عمره في الحياة الحزبية. وفي جلسة هذه الليلة تحدث عن عمر خان الشكاكي قائلاً: «هل تعلم أن لهذا الرجل علاقات بالأمريكيين؟ هل تعلم أنه لن يمضي شهر حتى يدير ظهره للجمهورية؟ إن إلزا، قصدي جاله، قالت أن هناك مراسلات بين عمر خان والسفير الأمريكي. إنه يبحث عن مصالح عشيرته فقط وليس مصالح الجمهورية. إنه رجل محنك ويشم رائحة الخراب على بعد شهر من وقوعه، وليس مثلك! أنت

لا ترى أبعد من أنفك».

صمت قليلاً، ثم قال كمن تذكر شيئًا: «ها، أنا لم أحدثك عن حَمه رَشيد البانه يى».

سألته:« وما قصته؟»

- قصته قصة كل رؤساء العشائر، لا يعترف بسلطة فوق سلطته، يحكه جسمه تحت عباءة الجمهورية. إنه حَمه رَشيد البانه يى يا يقطينتي. كانت له حكومة أنتيكة في بانه وسقز لكن محمود آغا المريواني لاحقَهُ حتى العراق. هذا له علاقات مكشوفة مع الإنكليز، صدقني هو يرى نفسه في أحلامه ملكَ بريطانيا، هل تعلم يا ولدي أن هذه الجمهورية بنيت على عجل؟

- كيف؟

- يعني أن أحجار ولبنات بنائه بدون طين وستتفكك سريعًا مثلما بنيت سريعًا.

ثم أدنى فمه من أذني وقال: «كانت إلزا تسأل عنه وإن لم يخب ظني فقد كانا يلتقيان سرًا! نعم، هذا ما تقوله سلطانة ولست أنا. كانت إلزا قد سافرت إلى سقز والتقت بحمه رشيد هناك».

بدأت رأسي تثقل رويدًا رويدًا وصارت غرفة جدي تدور حولي. شقّت أصواتُ الجنادب ظلام مهاباد ثم غلبت عليها أصوات الديوك. كانت السماء الصافية المزينة بالنجوم تحتضن مثل أم حنون هذه المدينة وقراها. عدت إلى غرفتي الصامتة ثملاً سكران وتركت جدي وآكوب في مجلس سكرهما يتحدثان بالفارسية.

* * *

٥ تموز ١٩٤٦

كان يومًا من أيام تشرين الأول من العام الفائت وكانت السماء تمطر، وكنا مجتمعين في جبل كيله شين نودع موطننا، حين شكل الأطفال والنساء والمسنون طابورًا يشبه قافلة النمل في دروب الجبال المحيطة. كانوا يلتفتون إلى الغرب وهم يمشون، ينظرون في اتجاه تلك القرى المدمرة التي لن يروها بعد ذلك. امتطى البارزاني فرسه البيضاء ونظر إلى الناس ثم قال بصوت يخالطه النشيج: «سنجتاز الحدود هذه الليلة». استعدت دمعتان لتنحدرا من عينيه، لكنهما لم تنحدرا وكأنه أمرهما بالسكون. واصل القول بمرارة لا حدود لها:« لم يهزمنا الإنكليز ولا هزمنا الجيش العراقي لكن هؤلاء الجحوش الكرد الذين كان ينبغي أن يؤازرونا هم الذين هزمونا». وهمز خاصرة فرسه بشدة. كانت الطائرات الإنكليزية والعراقية تحوم في السماء الملبدة بالغيوم وتلاحقنا كمن يطرد دجاجًا. جائعين وعراة، متعبين ومنهكين دخلنا الأراضي التي مدوا فوقها نولاً لنسج جمهورية.

حقًا لم تهزمنا القوات العراقية ولا الإنكليزية، ليس فقط أنهم لم يهزمونا بل كدنا نقوم بأسر الجنرال رنتون الأقطع بذاته لكنه تمكن من الهرب مثيرًا خلفه غبار قطيع من الخيول. غنمنا كثيرًا من الذخائر والقنابل والرصاص والمدافع والبنادق الثقيلة والخفيفة. وفي سفح جبال بيرس حاصرنا اللواء العراقي الرابع لمدة ثلاثة أيام بلياليها. لم يبق إلا القليل ليعلن اللواء استسلامه. كان البارزاني فرحًا ويقول:« قوات محمد أمين ميرخان وعزيز آغا في غربي جبهة عقرة، سيدفعون اللواء صوبنا وسنحاصره مثل فكي كماشة، هناك قوة أخرى في قرية كَربيش. لا يمكن أن ينجو هذا اللواء من الكمين. اطمئنوا فلن تبقى لجيش الحكومة طاقة

على القتال لو استسلم هذا اللواء». في اليوم الرابع قام أفراد قبيلتي السورجي والزيباري بإيصال المعونات والتموين إلى جنود اللواء تحت جنح الظلام، ما كنا نعرف أنهم سيبيعون أنفسهم مقابل دنانير قليلة. انسحبنا مضطرين إلى مرتفعات بيرس. لكننا لم نكد نستقر ونحفر الخنادق والمتاريس حتى فوجئنا بالهجوم علينا. كان ضمن المهاجمين كثيرون من السورجيين والزيباريين والشرفانيين والدوسكيين وعشائر برواری بالا أيضًا. كانت تساعد المهاجمين خمسة وعشرون طائرة من القوى الملكية البريطانية R.A.F ويقصفنا خمسة عشر مدفعًا جبليًا. قطعنا نهر الزاب ليلاً بالأكلاك (الزوارق) ثم أمر البارزاني بحرقها فيما بعد وهو يقول: «حرِّقوها فلا مجال للعودة بعد الآن».

وقفنا عند جبل شيرين على الضفة الأخرى من الزاب واسترحنا قليلاً. إلى الأسفل منا كانت منطقة بارزان تلوح كحلم بهي. كانت قطعان الأيائل ترعى بهدوء في فجر تلك المرتفعات الشاهقة. نظر البارزاني إلى تلك الأيائل وقال:« لو كانت بينها جحوش لما بقي منها أيل واحد على ظهر الأرض». في كاني رَشْ انتظر البارزاني شقيقه الشيخ أحمد والقرويين. كنا مئتي مقاتل وكان البارزاني ينتظر كأنه على جمر النار ويحدق بنظراته الحادة إلى قافلة المهاجرين حتى عبر آخر نفر الحدود، عندها تنفس البارزاني الصعداء وقال:« الآن حان دورنا».

وعبرنا إلى الجهة الأخرى.

بعد وصولنا تم فرز المقاتلين إلى أماكن متفرقة. استقر البارزاني مع بضعة آلاف مقاتل في قرية ميراوا من منطقة سردشت. ولمدة شهر كنا ضيوفًا على القرية. كان البارزاني يزور مهاباد مرة في الأسبوع. وذات مرة حين عاد من زيارته المعتادة دعاني إليه وقال:«عليك أن تذهب إلى مهاباد».

أعدت بندقية صديق دشتازي إليه قائلاً: «سيأتي يوم أستعيدها منك مرة أخرى. أما الآن فسأتوجه إلى مهاباد. هناك حاجة لمعلم في إحدى مدارس المدينة».

وهكذا أصبحت معلمًا في مدرسة كلاويز.

* * *

١٤ تموز ١٩٤٦ مهاباد

منذ عشرة أيام توقفت عن كتابة يومياتي، حتى الشعر لم يعد يطرق باب خيالي. كنت أظن لو أن مُجْدَه ابتعدت عني فسأكتب بضعة قصائد في اليوم، لكن يبدو أن قربها يفجر فيَّ ينابيع الشعر أكثر من بعدها.

كتب المدارس الابتدائية جاهزة للطبع. جاءتنا بعض الكتب من السليمانية أيضًا ونستفيد منها. وحسب الخطة التي وضعها وزير التعليم فيجب أن تجهز الكتب نهاية هذا الشهر. أما مسألة الإذاعة فلم تحل بعد. الروس لم يمنحوا الجمهورية أجهزة البث الإذاعي القوية، أما ذاك المهندس الأرمني فلم يعد له أثر. يبدو أنه كان يطمع في المال وحينما قيل له إن الأموال التي تأملها غير متوفرة ذاب كفص من الملح. حينما سمع جدي هذا الخبر، ضحك وصار يسخر كعادته كل مرة: «يا حمار! لن تقوى الجمهورية بالإذاعة. هذه أفكار الروس. إن الجمهورية ستقوى بطاعة رؤساء عشائركم وخضوعهم لرايتكم. إذهب وقل لهم: لم يكن ثمة أكثر من إذاعات هتلر وقد رأيتم كيف كانت نهايته».

عدت الليلة من سهرتي في بيت هژار بالقرب من مسجد رستم بيك. هذه هي المرة الأولى التي لا أعود فيها سكران من إحدى السهرات. إنه يشرب الخمرة، مثله مثل هيمن، لكنهما خوفًا من المجتمع والزيارات

المفاجئة للناس لا يشربان.

قام هژار بواجب الضيافة على أكمل وجه. فبعد أن شربنا الشاي في كؤوس رقيقة الخصر شفافة، حضر العشاء وكان عبارة عن طبخة يسمونها مزراويلكه وهي تصنع من البصل والبيض بعد أن يضيفوا قليلاً من السمن ويحمرون الخليط فيه. بعد ذلك يرشون عليه قليلاً من السماق الحامض. لقد كان ذلك طعامًا لذيذًا. ضحك هژار وقال: « لو كانت الدنيا ربيعًا لطبخنا لكم كيلاخه». شمَّ هيمن طعام المزراويلكه ورد ضاحكًا: « الحمد لله أن الوقت ليس ربيعًا».

بعد ذلك جاء وقت الفواكه. وفي الصيف تنضج الفواكه كما نهود الفتيات وتمتلئ عصيرًا. أحضر هژار البطيخ الأحمر، والتين، والبطيخ الأصفر والمشمش ومدها أمامنا. كانت سهرتنا ممتعة جدًا، خضنا في أحاديث عن السياسة، الأدب، حياة البيشمركة، مستقبل الجمهورية، خلافات العشائر وحتى حرارة شهر آب. حدثنا هيمن عن نتف من حياته في قرية شيلان آباد، واشتغاله في الزراعة. حكى لنا مثل فلاح ماهر عن أساليب زراعة البطيخ الأحمر والعنب وأصناف الفواكه. انتهزت الفرصة لأطرح عليه السؤال الذي يؤرقني:

- هيمن العزيز، يبدو أنك تفهم في النباتات؟
- نعم يا عزيزي. ما الأمر؟

أحضرت معي فرعًا من كرمنا من العمادية وزرعته في منتصف الدار. مضت تسعة شهور دون أن يخضر هذا الفرع و..

- هل قمت بتقليمه؟
- لا والله.

- هذا هو السبب. إن تراب العمادية لا يشبه تراب مهاباد.

ضحك هژار وقال: « لماذا لا يتشابهان؟ المدينتان من كردستان وقد سالت دماء الأبطال على ثرى كلتا المدينتين».

ضحك هيمن والوزير مناف، لكنني غرقت في لجة التفكير وقلت لنفسي:« ليس ببعيد ألا يلائمني أنا أيضًا تراب مهاباد فتتحطم آمالي ويفشل حبي».

كان مناف في تلك السهرة رجلاً متواضعًا جدًا وصار يتحدث بأريحية وكأنه ليس وزيرًا في حكومة الجمهورية. حتى أنه اشتكى أمامنا قائلاً: «إن مصيبتنا كبيرة. رؤساء العشائر لا يمكن الوثوق بهم. لا يهمهم سوى مصلحتهم. إنهم لا يأبهون بالنضال القومي. ليت القاضي محمد لم يعطهم أي مجال! إن مسؤولي الحزب الديمقراطي في آذربيجان أكثر خبرة منا حين طردوا الإقطاعيين وأبعدوهم». لم يوافقه هيمن واعترض قائلاً: « لا يمكن الاستغناء عنهم. إنهم أساس المجتمع الكردي. إنهم يملكون القوة والسلطة. فإذا أغضبناهم فلن يبقى فرد من عشائرهم في الجمهورية. هذا هو المجتمع الكردي. هكذا قدَّر الله لنا. وعلينا أن نأخذ ونعطي معهم بحكمة». أجابه هژار مع ضحكة خفيفة: «أتريد الحقيقة يا هيمن؟ علينا أن نأخذ أرواحهم». وانخرطنا جميعًا في الضحك.

ورد خلال أحاديثنا اسم غفور محموديان. لاحظت أنهم لم يكونوا ضد قتله. إنهم يصدقون أنه كان جاسوسًا إنكليزيًا وعميلاً لحكومة الشاه. انفعلت قليلاً وقلت: «طيب فلنفترض أنه كان جاسوسًا، لماذا لم تتم محاكمته؟ لماذا تمت تصفيته بذلك الشكل الوحشي؟ لو كان مجرمًا لكان من الأولى أن يقتنع الناس بذلك أيضًا، لا أن يغدروا به ويقتلوه من الخلف. هذه الفعلة لا تليق بجمهورية ديمقراطية يقودها قاضٍ يعرف الحقوق».

هز هيمن رأسه وقال:«بادين على حق. أسلوب قتله لم يكن سليمًا. كان لا بد من محاكمته». ثم ظهر لي أن ذلك الحديث لا يروق لمناف، فغيرنا وجهة الحديث حتى طغى عليه مديح الروس. لم أظهر قناعاتي لخوفي من أن أعكر عليهم صفو جلستهم، لكنني قلت مازحًا: « فضائل الروس ظاهرة في الفودكا».

علا صوت أذان الفجر من مسجد رستم بيك. كنا قد تحدثنا بما فيه الكفاية ولم تعد في جعبتنا كلمات أخرى نتحدث بها.

* * *

حديقة قاضي جنَّةٌ تضم كل أنواع الأشجار الضخمة العالية، إنها مثل خيمة للرُّحَّل نصبوها بجانب نهر سابلاخ. في هذه الأيام التي تشبه الجحيم يتوجه الناس شبابًا وفتيات ومسنين إلى هذه الحديقة ويعقدون مجالسهم في ظلال أشجارها، حتى أن الكثيرين يأتون إلى هناك ليتناولوا طعام الغداء أيضًا فيشوون اللحم ويختلط دخان سجائرهم بدخان الفحم المشتعل. يعقد بعض المتنزهين حلقات رقص صغيرة أيضًا في بعض الأحيان حتى يعلو صوت الدف والتار والطنبور وتتدفق الألحان مثل أمواج النهر.

بعض الناس يأتون ليأخذوا قيلولتهم في ظلال الأشجار وعلى أنغام حفيف أوراقها وخرير النهر الرقيق. أنا أيضًا أخذت قيلولتي هناك عدة مرات إلا أن البعوض لم يسمح لي بأن أهنأ في نومي. في تلك الحديقة تنزهت بصحبة مُژده كثيرًا من المرات وتخاطفنا هذا الربيع القبلات في الأماكن الخالية وخلف جذوع الأشجار، ليتها كانت الآن في مهاباد. إنني لا أتحمل فراقها.

أمس حينما ذهبت لزيارة الحديقة، لمحتُ أميرال آغا، كان يجول بين المجموعات ويشحد الماء، رأف الناس بحا له وصاروا يسكبون في سطله ما معهم من ماء للشرب. وكان كلما امتلأ سطله بالماء يذهب إلى ضفة النهر ويريقه هناك. وحينما رآني أمشي وحيدًا، جاء ووقف أمامي وهو يقول: «أيها الأستاذ العزيز هات الضريبة».

- أية ضريبة يا أميرال آغا؟
- ضريبة الماء. هل نسيت أنني سأحول سابلاخ إلى بحر زاخر؟
- ألا ترى أنه ليس معي ماء؟
- إذًا اسكب دموعك. لقد تأخر الوقت. علينا أن نصغي لهدير الأمواج قبل حلول الشتاء. فمفاتيح الزمن بيد رجل لا يعرف الله.

إنني أقع في حيرة كلما أرى أميرال آغا، أحتار وأتعجب من جديته! فهو يتأرجح بين الجنون والعقل الراجح. لم تكن مسألة الماء والبحر لتخطر على بالي لكن بتعرفي على هذا المجنون قلبت المسألة أفكاري. صرت أسأل دائمًا أصدقائي: «ترى لو كانت بلاد الكرد على شاطئ بحر، فما الذي كان يصير؟ كيف تتصورون تاريخ الكرد؟» أمس سمعت الجواب الحقيقي. فبعد أن أفرغ أميرال آغا السطل بضع مرات في النهر، اتجه إلي وقال: «يا أستاذ! لا أحد يصغي إليّ سواك. لقد انضم إلي بعض الأصدقاء لكنهم سرعان ما تفرقوا عني، بعضهم ذهب إلى الحصاد وبعضهم ذهبوا لحفر القبور وبعضهم بقوا في مهاباد ينتظرون نكساتٍ وإحباطات كبرى لكي ينعبوا مثل البوم على الأطلال. تعال، تعال لكي أفشي لك الليلة بأسرار قلبي وأفردها أمامك مثل مسبحة درويش مجنون، تمعن فيها حبة حبة، تمعن فيها لكي تعرف أية درر وجواهر وياقوت ومرجان هي

هذه الأسرار!» أنا أيضًا كنت أريد التعرف إليه عن كثب وأصغي إليه. يقولون إن المجانين يملكون نصف الحقيقة! لذلك تبعته ومشينا.

بدأ الظلام يتثاءب ومهاباد تتمطى في حُلكة ليل صامت. لم أشأ أن يراني أحد وأنا أمشي مع أميرال آغا، فالناس لا يستسيغون أن يمشي عاقل مع مجنون. كان بيته في نهاية شارع بهلوي. كانت جدران منزله كلها رطبة مبللة وكأن ذاك المنزل سفينة في عرض البحر. دفعَ الباب الموارب ودخل فتبعته. كانت رائحة الأمواج وعبق ساحل بحر كبير يفوح من باحة داره الكبيرة. دخلنا غرفة صغيرة وشعرت أنني أدخل عالمًا من الأحلام. كانت جدران بيته مزينة بالحيوانات البحرية، وصور السفن وشطآن البحر والأمواج العالية. جميع الوسائد واللحف والفرش والبسط في تلك الغرفة كانت ملونة باللون الأزرق، حتى نار سراجه الخافتة لاحت زرقاء.

حين جلست أخيرًا على بساط من اللباد رحَّب بي ومد إلي علبة التبغ: « تفضل أستاذ، تفضل لُفَّ لنفسك سيجارة، فأنا أعرف أنهم سرقوا تبغك» هززت رأسي وكأنني أنتظر هذا الكلام، لكن ياللدهشة! كانت العلبة التي قدمها مليئة ماءً، ماءً أزرق اللون لم يكن يسمح لي برؤية قاع العلبة. نظرت إلى أميرال آغا بفم فاغر من الدهشة، فهم ما يجول في خاطري وقال ضاحكًا:«من ذا الذي يستطيع أن يلف السجائر من الماء؟ ومن ذا الذي يستطيع تحويل الموج إلى تبغ؟». فغرت فمي أكثر. تقدم إلي أميرال آغا وخطف العلبة مني وهو يقول بصوت يشبه البكاء:« لا التبغ يصبح ماءً ولا الماء تبغًا يا بادين». امتدت بيننا برهة طويلة من الصمت، صرت أحدق خلالها في الحيوانات البحرية التي تزين جدران الغرفة الرطبة بينما كان أميرال آغا يحدق في الماء الذي يسيل من بين أصابعي.

«اسمي بارين. يشبه اسمك ويختلف عنه بحرف واحد. أنا بارين هَوْران آغا المهابادي. قبل ستة وأربعين عامًا ولدت على الضفة الشرقية لنهر سابلاخ. يقولون إنني حين ولدت كنت أشبه الأسماك ولم تكن لي قدرة على الحياة بدون ماء. عشت في طست كبير. انظر» ورفع أميرال آغا ثوبه وأراني ما يشبه حراشف السمك على خاصرتيه.

«يوم ولدت قالت بصَّارة آذرية لأمي: سيموت هذا الولد في الماء! ومنذ تلك اللحظة أبعدتني أمي عن الماء. صتارت تمنعني من الاقتراب من الأنهار، ملؤوا البئر في وسط الدار بالتراب وردموها، وصار أهل البيت يتوضأون تيممًا بتراب سفح جبل خَزابي إلى أن صار عمري عشر سنوات. لكنني كدت أموت، وصرت أضعف يومًا بعد يوم، إلى أن قال الطبيب الإفرنجي فاسوم الذي مارس الطب في مهاباد لبضع سنوات، لأبي: سيموت هذا الولد بدون ماء. إنه مثل نبتة الريحان وسيذبل إن لم تسقوه. فاضطر أبي ليعمل حوضًا وسط الدار وصرت أنزل فيه»

كانت نبرة حديثه تشبه موجًا يهدر حين تهب ريح هوجاءعلى البحر. سألته: « ألهذا السبب تجمع الماء؟». فأجاب: « حياتي هي الماء، وموتي سيكون بالماء. هكذا هم الكرد أيضًا. لا يستوي الأمر بدون ماء يا بادين! أحلامي ماء، يقظتي أيضًا. أتعرف لماذا انهزم الألمان يا بادين؟» وبدون أن ينتظر جوابي قال: «لأن هتلر كان يعطش كثيرًا!» ثم أخذته نوبة ضحك جنوني وحدق في قعر سطله وقال: « شهر الصوم قادم، رمضان على الأبواب، سيصوم الناس ولن يشربوا الماء في النهار، إن لم يكن الماء مهمًا لهذه الدرجة هل كان الله سيحرم شربه في أيام رمضان؟» لم أجبه لكنني غرقت في لجة التفكير وقلت في نفسي يا ترى أهذا مجنون أم نحن المجانين؟ قال وكأنه سمع صوتي الداخلي:« الجنون حكمة وتعقل كبير.

ليت كل المهاباديين كانوا مجانين لكي يصدقوني».

فجأة غزت الرطوبةُ الغرفةَ وتبللت كل ثيابي، فنهضت بينما بقي أميرال آغا في مكانه، نظر إلي وقال ضاحكًا: «الكرد يخافون الماء. إذهب الى بيتك. الماء لا يلائمك». لا أعرف كيف ودعته وخرجت! كان الليل متأخرًا وثيابي تقطر ماءً. تركتُ أميرال آغا في غرفته وحينما خرجتُ أراق خلفي أغنية لطيفة مثل نهر.

***

٢٥ تموز ١٩٤٦

مهاباد

في الجنوب، عاد غالبية البيشمركة الذين كادت دماءهم تغلي وكأنها قدر ماء على النار، لقد فرغت جبهة سقز تمامًا. عسكر معظم المنسحبين في بوكان، لقد تم غض النظر عن الهجوم على الجيش الإيراني ولم يبق سوى بعض البرزانيين ورجال القبائل الأخرى في بعض الخنادق. البقية عادوا إلى أعمالهم وأخفوا أسلحتهم في فراشهم. أنا واحد من هؤلاء. وبندقيتي التي حفرت عليها اسم مُجْدَه أصبحت مثل عصا الرعيان فعلقتها على أحد جدران غرفتي الحارة.

في الشمال، أثرت حرارة شمس تموز في الهركيين والشكاك وحركتهم. أمس جاء فارس شكاكي من أورمية لزيارة القاضي محمد ثم قفل راجعًا بسرعة. عقب ذلك دعا القاضي محمد أعضاء الحكومة والوزراء وقادة البيشمركة إلى اجتماع موسع. حضر نوري أمين أيضًا الاجتماع ونقل لنا مادار فيه من نقاش.

- انظر يا بادين ما الذي فعله صديقك كريم الشكاكي؟ قال نوري أمين

- هل خطف فتاة من الهركية؟

ليت الأمر كان كذلك.

إذًا لقد ألقى بنفسه في بحيرة أورمية.

لا. لكنه هاجم هو وأبناء عشيرته ومسلحو زيرو بيك الهركي الآذريين ودخلوا خوي وماكو. إن لم يخب ظني فإن مشاكل أثيرت هناك والقاضي محمد ممتعض كثيرًا. إنه يقول ليس الآن وقت فتح جبهة قتال في الشمال وإن اتفاقية مشتركة تجمعنا بالآذريين وإذا دخلنا الحرب ضدهم فإن الشاه سيفرح كثيرًا. لا يجوز لنا أن نشتت قواتنا.

أليست المدينتان كرديتين؟ لماذا تبقيان في يد الآذريين؟

صحيح. لكن لا ينبغي أن يحررهما رؤساء العشائر، إنهم يستغلون ذلك لمصالحهم الخاصة ولا يمتازون بعمق التفكير، إنهم لا يرون أبعد من ظلال خيام عشائرهم. يقول القاضي محمد:« لن يقبل الروس هذا الإجراء. إنهم سيتخذونه ذريعة لقطع المساعدات عنا».

الروس الروس الروس! أكل شيء ينبغي أن يكون بإذنهم؟ لماذا لم يترك ستالين موسكو وستالينغراد للقوات الألمانية؟ لماذا ضحى بمئات الألوف من الناس و...

احتد نوري قليلاً فقطع حديثي غاضبًا: «بادين ليس الأمر في يدي ويدك. السياسة التي تجري أكبر مني ومنك وحتى من القاضي محمد وملا مصطفى. سنبتلع غصاتنا ونميل مع الريح حيث مالت. ألا ترى أننا هاجرنا قرانا وبلداتنا التي حررناها؟»

لم أقتنع بما قاله نوري أمين. انسحابنا كان شيئًا مختلفًا عن هذا الأمر. هنا حررنا مدينتين وكلنا يعرف أنهما أرضنا، أي أنهما من ضمن أراضي

الجمهورية، فلماذا وبأية حجة ستبقيان في يد الآذريين؟ علي أن ألتقي بكريم بأي شكل من الأشكال أو سأتقصى حقيقة ما جرى عبر رسالة.

يتهيأ المهاباديون لاستقبال شهر رمضان. بدون شك سيغلق آكوب باب خمارته شهرًا كاملاً. سأشتري بضع زجاجات خمر أو علي الذهاب كل ليلة إلى بيت خانم وسلطانة في حارة اليهود. بلا شك ستصبح أسعار الخمر غالية في هذا الشهر، كما أنه علي أن أتظاهر بالصوم. وكأن هذا الصيف لا يكفي حتى جاء رمضان الطويل أيضًا.

يتم الآن طبع كتب المدرسة. يضع ميرزا أحمد إسماعيل زاده- الخطاط المشهور- عناوين الكتب بخط فائق الجمال. كم هي جميلة هذه الخطوط العربية! وهي تصبح أبهى وأجمل بقلم هذا الخطاط ذي الستين عامًا.

القاضي محمد سيسافر هذا الأسبوع إلى طهران. أي دمار تتجه إليه الجمهورية يا ترى؟

سوف أكتب رسالة إلى مُجْدَه. ربما تستطيع القدوم بشكل أسرع. لم أعد أتحمل فراقها.

«حبيبتي مُجْدَه،

مهاباد بدونك مدينة كالأطلال. ألم تشبعي من الإقامة في شنو؟ تعالي سريعًا، تعالي لأجعل من قلبي «شنو»، هذا القلب الذي أشعر أنه لم يعد فيه إلا القليل من النبضات.

تعالي يا مُجْدَه، بدونك هذه المدينة خرابٌ، بدونك ليست مهاباد سوى قفار مجدبة. أنت تعلمين أن أيامي بدونك مثل ليالٍ مظلمة، فكيف ستكون لياليَّ إذًا يا حبيبتي؟ أشعر وكأن دود الخشب بدأ ينخر قلبي ويقطع جذوره، سيتيبس هذا القلب بدونك يا مُجْدَه».

يجب أن أرسل لها غدًا هذه الرسالة القصيرة، ثم سأذهب إلى جدي في الاستوديو.

* * *

١ آب ١٩٤٦ مهاباد

مضت عدة أيام لم ألمس فيها القلم. أعلم أنني حين أترك الكتابة، يبدأ القلم بالشكوى ويكاد يبكي، لا لأنه يشتاق لأصابعي بل لأنه يشتاق إلى حرائقي وانكساراتي وبؤسي! أحيانًا أحقد على قلمي وأرغب في تحطيمه. فهو الوحيد المطلع على أسرار هذا القلب الواله وهو الوحيد الذي يفشيها.

اليوم هو الأول من شهر آب. هذا الشهر الحار الذي انتهت فيه الحرب في السنة الماضية وانتصرت فيها أمريكا وروسيا فقسمتا العالم فيما بينهما. في مثل هذا الشهر ألقيت قنبلتان ذريتان على مدينتين يابانيتين، ويقال إن مئات الألوف من الناس قتلوا فيهما فورًا. كانت تلك القنابل سلاحًا فتاكًا وجديدًا. في السنة الماضية انفجرت في قلبي أيضًا قنبلة حب ذري وما زال قلبي يحترق.

اليوم وأثناء عودتي من المطبعة عرجت على جدي، وما إن رآني حتى قال بروسية لطيفة: «باجالوستا باجالوستا!» ضحكت ودخلت إلى الاستوديو وسألت على الفور:« قل لي بحق الصليب يا جدي لماذا أنت سعيد هكذا؟». حدق جدي في وقال:«كيف تعرف أنني سعيد يا ابن يونس؟» أجبته:« أعرف حالتك من اللغة التي تتكلمها! فحين تتكلم الروسية أنت سعيد، وعندما تتحدث بالفارسية أعرف أنك سكران، وعندما تتكلم الأرمنية أعلم أنك حزين. أما حينما تتكلم الكردية فأعرف

أنك غاضب حانق».

- والتركية! لماذا لم تذكرها يابن الجاموس؟

- لم أجدك تتكلم التركية.

- لم أتكلم التركية منذ هروبي من ساري قاميش.

وغرق جدي في صمت لانهائي.

كنت نسيت - ونسي جدي أيضًا- أن آكوب تحدث عن موضوع جدي واللغات التي يتكلمها في سهرة من سهرات شرابنا. لكن آكوب وقتها لم يكن قد تحدث عن اللغة الروسية.

كان الناس يغدون ويروحون في ظلال الحوانيت، ولأول مرة بدون أن تكون السجائر في أفواههم، فأمس بدأ شهر الصوم وصار الكل يتهيأ لرمضان.

غربت الشمس ولم يعد هناك أثر لأحد في الشوارع، فقط كان بعض البيشمركة يقفون باعتزاز في رأس أحد الأزقة وقد وصل دخان تبغهم إلى ميدان جوارجرا، كانوا يدخنون بشراهة وكأنهم يتقمون من تلك اللفافات الرفيعة التي بين أصابعهم. يبدو أنهم ما كانوا يصدقون أن الشمس غربت وراء الجبال فأشعلوا سجائرهم على الفور. أعرف بعض الناس كانوا يلعبون ويتسلون بعلبة تبغهم قبل الإفطار بساعة كاملة ويلفون السجائر ويشمون تبغها وما إن يسمعوا صوت أذان المغرب حتى يبدأون التدخين. أما أنا، فمنذ سرقت جاله علبة تبغي، صرت أدخن نادرًا، لم أجد إلى الآن تبغًا يشبه تبغ تلك العلبة في سلاسته وطيبه.

مدَّ إلي جدي لفافة تبغ وكأنه قرأ أفكاري، ثم قال:« جرب هذا التبغ يا ولدي..ستنسى أمواتك». وصار يدندن بصوت خفيض:

- هذا التبغ الفاخر كالمسك
يدخنه الأمراء والملالي
والذي يقول إن التبغ بلاء
لا يعرف معنى اللذة

ضحكت وسألت: «من قال هذا الكلام؟ لا شك أنه مدمن تبغ!». تنهد جدي وقال: «لا أعرف، لكن والدك المرحوم كان يردد هذا الكلام كلما كان يدخن سيجارة».

كانت تلك ليلة الجمعة وقد ضجت المساجد بالأذان، خرج الناس ببطون شبعانة وسجائر في الأفواه من البيوت واتجهوا صوب صلاة التراويح. قال جدي ضاحكًا: « قم يا بادو لنصلي التراويح في بيت سلطانة».

- أخاف أن تكون جاله هناك!

- لا تخف. أعتقد أنها الآن في لندن.

- وعَمَّ تبحث في لندن؟

- تبحث عن شيء يطفئ شهواتها. إنس يا ولدي. عما قليل سينضبط رأسك بعد شرب كأسين. خانم اليهودية ستناولك الدواء. قُم هيا.

أغلق جدي الباب وخرجنا متجهين إلى حارة اليهود. في الطريق توقف جدي فجأة وقال:« أتعرف أن الأرمن هم من يسوقون الجمهورية؟».

- كيف؟ وهل الجمهورية عربة أم سيارة؟

- أقصد أن جميع السائقين فيها أرمن.

- الذي أعرفه أن سائق رئيس الجمهورية القاضي محمد كرديٌّ اسمه أحمد. أيوجد أرمن باسم أحمد؟

ضحك جدي وسبقني في المشي صامتًا.

كان المهاباديون يصلون التراويح أما نحن فكنا نحتسي الفودكا. كان هناك أسدوف الروسي، يعبُّ الأقداح قدحاً إثر قدح بينما يهتز بطنه مثل جرة من السمن. ما كان المرء يعرف هل هو يضحك أم يهز نفسه. قرقعت اللغات الروسية والآذرية والكردية كالأواني في فمه. كان من حين لآخر يطيب خاطر خانم وسلطانة بكلمة (شالوم) العبرانية: «شالوم خانم..شالوم سلطانة، شالوم أنترانيك...» إلى أن توقف وسأل: «أنا لم أعرف هذا الشاب. الإسم الكريم؟» حين قال له جدي: هذا هو بادين أحد البارزانيين، اكفهر وجهه وأخذ جرعة كبيرة من كأسه. همهم جدي وهمس لي قائلاً:« هذا هو أسدوف، يعني بإمكانك القول إنه قنصل السوفييت في مهاباد. هو الوحيد الذي بقي في المدينة، لا أدري لماذا؟ لقد أخذوا التبغ كله فما الذي بقي لم يأخذوه؟». تضايقت من وجود أسدوف، لا أعرف كيف احتسيت الفودكا. فهمت خانم أنني مضطرب فغمزتني وذهبت إلى إحدى الغرف فتبعتها. لا أعرف كيف خلعت هي ملابسها بتلك السرعة. كانت عارية مثل الحقيقة، متمددة على السرير المعدني وقد فرجت ساقيها وصارت تتأوه وتناديني:« بيا بچه بَيا» (تعال يا صغيري). ذهبت إليها كالمجنون، وبدأت أخلع ملابسي. لكنها مدت يدها إلى حزام بنطلوني وسحبته، عرَّتني هي، هاجمت ما بين فخذيَّ مثل لبوة، أظهرت ظمًا لا يوصف، جننتني، جعلتني تحتها وصارت تلحس جسمي بقعة بقعة، صارت تشمني وتعضني وتمصني. لا أدري كم من الوقت دامت حرب الأجساد الظامئة المحترقة،

لكنني أتذكر أن جدي وقف فجأة فوق رأسي وقال:« ها يا ابن يونس! يبدو أن خانم قد ناولتك الدواء! كيف كانت تراويحك يا خروفي؟ متى ستخطب مُجْدَه، يا؟». فتحت عيني بخجل ومددت يدي لأخفي عضوي، ضحك جدي وقال: «لا تخف فلن يصيبه أي سوء، و ما دامت خانم لم تلتهمه فإنه سيبقى في مكانه».

ارتديت ثيابي وخرجنا. في الصالون شاهدت صديق حيدري مسؤول الدعاية والإعلام في الجمهورية، كانت أمامه كأس من الفودكا مع عصير البرتقال. تظاهرت بأني لا أعرفه وخرجت دون أن ألقي عليه التحية. سأل جدي:« هل عرفته؟» قلت:«نعم»، فهز رأسه وقال:«إنه مثلك لا يطيق العيش دون فودكا».

فكرت في مُجْدَه. فجر جدي اسمها مثل قنبلة فسرى الندم كالحُمَّى في جسدي. ترى ماذا تفعل هي الآن؟ عاد إلي وعيي رويدًا رويدًا مع النسمات الباردة القادمة من داشا مجيد! لمذا انزلقت هكذا بسرعة إلى فخ تلك اللبوة؟ هل كان سكري هو السبب؟ أم كنت أنتقم من جاله؟ أم أنني كنت شديد الظمأ إلى جسد ناعم طري؟ أم بسبب اعتقادي الذي يلازمني كالظل بأنني سأموت خلال مدة قريبة؟ لم أصل إلى جواب شافٍ فواصلت المشي إلى البيت صامتًا. كان جدي يصفر في الطريق ويغني:

كُوچه ى جُوله كان تَنگ وتاريكه

يه كيكى تي دا كَمْبَر باريكه

(حارة اليهود ضيقة ومظلمة

فيها فتاة رشيقة القد)

بدأت أنوار المنازل تضيء منزلاً منزلاً. استيقظ المهاباديون لتناول السحور. كانت بعض الجنادب تخضُّ بِرْكة الليل الراكدة. أما أنا فكدت أقع على الأرض بسبب شدة نعاسي. لكنني ما إن دخلت غرفتي ولمحت الأوراق البيضاء على طاولتي حتى طارت عصافير النوم وبدأت أكتب ما سبق الآن من صفحات.

* * *

٤ آب ١٩٤٦، شنو

«بادين،

منذ مدة وأنا أرغب في كتابة رسالة إليك، لكنني تأخرت لأسباب عديدة منها أنني لم أعثر على شخص يكون محل ثقتي وأسلمه رسالتي إليك. كذلك فإنني كنت في الفترة الماضية مضطربًا متوترًا لأن هاشموف الشبيه بناقة والعدو المتستر وراء قناع الصديق عكر علينا صفو هنائنا. لقد حررنا بدمائنا وبعرق جبين أفراد عشيرتي الهركي والشكاك مدننا وأخذناها من يد الآذريين فجاء هاشموف وأعاد الوضع إلى ما كان عليه بالتهديد والوعيد. لا تنس يا بادين أننا نحارب الريح.

صحيح أنني ابتعدت عن مهاباد، لكنني صرت أرى الوضع بشكل أكثر دقة وصفاء، فأنت حينما تكون داخل حلقة الرقص لا ترى حركة الراقصين وإيقاع أرجلهم، كما أنك لا ترى نفسك أيضًا. لقد خرجت من حلقة رقص الجمهورية وأكتشف الآن ما يقع من أخطاء، أعرف من أي النوافذ تدخل الريح إلى غرفنا وتسقط أزاهيرنا. الشمال. إنها ريح الشمال يا بادين، هذه الريح جعلت الجمهورية لعبة تلهو بها الأيدي. أشم رائحة الخراب يا بادين. لكنني لا أعرف ما هو الحل.

لقد انضممت إلى قوات الهركيين والشكاك دون أن أعرف لماذا!
أنا رجل متعلق بعشيرتي.
وإن جدَّ الجدُّ فلن أبادل عشيرتي بالجمهورية كلها، الجمهورية التي يتم تهيأتها مثل أضحية.

ربما تكون قد سمعت أنت أيضًا، لقد هرب حمه رشيد خان البانه يى إلى العراق. يبدو أنهم اكتشفوا علاقاته بالإنكليزا كان هذا عدوًا من أعداء عشيرتنا وكانت لنا معه خصومة ونزاع على قرية تَمُّوته. إن أردت أن تعرفه جيدًا فاسأل بكر عبد الكريم أحد قادة البارزانيين، فقد كانا على خصومة عميقة فترة من الزمن. هل تعرف أيضًا أن ثلاثة من أعضاء حزب توده الشيوعي دخلوا مجلس الشورى الإيراني! لقد أصبح مظفر فيروز نائبًا لقوام السلطنة ووزيرًا للعمل والكل يعرف أن مظفر رجلُ روسيا. هل تعرف ماذا يعني هذا؟ إن طهران بدأت تمسح على خصيتي موسكو يا بادين. سوف ترفع موسكو يدها الحصينة عن مهاباد وتبريز.

ثمة أمور كثيرة أريد قولها لكن لساني لا يطاوعني. بإمكانكم في كل الأحوال أن تنجوا من الكارثة، فالمسلحون البارزانيون خرجوا من كثير من المآزق وسيخرجون من هذه أيضًا، لكن كما كتبت يا بادين لا أريد أن أفشي كل شيء. أما قضية مُجْدَه فاتركها للقدر، إنها تشبه قضية الجمهورية. إن استطعت فسأكتب لك قريبًا رسالة مطولة.

كيف تفعل في رمضان يا بادين؟ أعرف أنك شارب خمر لا تصبر دون الفودكا! هناك إشاعة تقول إن الفودكا أصبحت غالية كثيرًا في مهاباد هل هذا صحيح؟ هنا الفودكا رخيصة. كلما اقترب المرء من حدود روسيا أصبحت الفودكا كما الإنسان أكثر رخصًا. لو استطعت لأرسلت لك بضع زجاجات.

وداعًا.

لقد نسيت شيئًا: الذي سيسلمك الرسالة رجلٌ من عشيرتنا وهو من أقاربي ومحل ثقتي. أرسل الجواب معه. إنه سيبقى عدة أيام في مهاباد وليس من المستبعد أن يعود معه ما تبقى من أفراد عشيرة الشكاك.

سلم على أصدقائي جميعًا.

كريم الشكاكي- صياد الرياح العنيدة».

ما كان ينقصني في كآبتي هذه إلا كريم وتشاؤمه! تمنيت على الله أن يبعث لي أحدًا يخفف عني، فجاء كريم وبال على كل شيء. جدي من طرف وكريم من طرف آخر ولا أدري مَنْ من طرف ثالث! أصبح كل شيء الآن مكشوفًا واضحًا وصريحًا مثل فرج العنزة، لكنني لا أريد أن أسمع الحقيقة، أعرف أنهم ينسجون كفنًا للجمهورية في مكان ما وأنهم يحضرون المشانق، أعرف أيضًا أنني أسير صوب حقيقتي مسرعًا وأكتب مضطرًا، أكتب ما لا يقرأه أحد ولن يفهمه أحد. إن موتي يتراءى لي، وما يسعدني في الأمر أن قذارة هذا العالم كلها ستُدفن في ثلج الموت. بلا شك لن ينفعني شيء سوى الموت الذي سيدفن كل آلامي.

هذه هي الرسالة الثانية التي يرسلها كريم دون أن يتحدث فيها عن مُجْدَه! هذا ما يؤرقني. ثمة أمر ليس على ما يرام لكن لا أعلم ما هو.

* * *

مهاباد ١٠ آب ١٩٤٦

عاد القاضي محمد من طهران. أمس التقيت بخادمه أحمد كول الذي حكى لي عن القاضي محمد وكيف أنه كان سيء المزاج:

«هذه هي المرة الأولى التي لا يشرب فيها القاضي شايًا أصنعه! سابقًا كان يقول مبتسمًا كلما وضعت أمامه كوب شاي: الشاي الذي يصنعه أحمد، لا يوجد مثله حتى في الصين. لكنه بعد أن عاد من طهران تغير كثيراُ، لقد سمعته بأذني يقول: الروس لم يهتموا بي، أما قوام السلطنة فهو ثعلب، والآذريون من جهتهم وبدعم من الروس وتحريض من قوام السلطنة يريدون قضم حدود جمهوريتنا، عمر خان الشكاكي ذهب إلى موطنه بينما هرب رشيد خان! لا نستطيع فعل شيء. ولمعت عيناه بالدمع. هذه هي المرة الأولى التي رأيت فيها القاضي ضعيفًا مرهقًا. كان يتنهد طوال الليل ولم يستطع النوم».

اليوم لم أذهب إلى المقهى، ما أردت الالتقاء بأحد، بل توجهت من شدة ضجري إلى سفح جبل خَزايى فالتقيت لقمان ابن ملا مصطفى البارزاني وابن القاضي محمد علي الملقب كُرى رَشْ. كانا عائدين من صيد القطا. رأيت في يد كل منهما بعض القطا وقد احمر وجهاهما الغضان من شدة الحر. أوقفتهما وسألتهما: «كيف اصطدتما كل هذا القطا؟» أجابني لقمان وقال: «إنها تهجع في حقول القمح وحين تسمع دبيب أقدامنا تبقى في مكانها لتحمي بيضها الذي ترقد عليه، نأتي نحن ونمسكها بكل سهولة». اتجه إليَّ كُرى رَشْ أيضًا وقال بفرح: «القطا طائر أحمق، يظن أن سيقان القمح تحجبه عن أنظارنا، فينكمش على نفسه حتى نأتي ونلقي عليه شباكنا. أتريد قطاةً؟» أجبته متنهدًا:« لا، شكرًا. خذا طيوركما إلى البيت».

توجه الإثنان بسعادة غامرة إلى المدينة بينما صرت أفكر في جمهورية تشبه بيض القطاة.



***

يوم الجمعة، ١٦ آب الموافق ١٨ رمضان.

مهاباد.

اليوم ولد لملا مصطفى البارزاني ولد ذكرٌ، ولأنه ولد يوم الجمعة المقدس وفي شهر رمضان فقد سموه مسعود. يقال أن القابلة قطعت سرَّته بخنجر أبيه، فمن عادة البهدينيين والكرمانج الآخرين أنه إذا ولد لهم ولد يقطعون سرَّته بآلة من الآلات الحادة، فإذا قطعوها بالسيف أو الخنجر قالوا إن ذلك الولد سيصير في المستقبل مقاتلاً صنديدًا، أما إذا قطعوها بالقلم فإنهم يعتقدون أنه سيصبح مثقفًا أديبًا وهكذا مع كل آلة.

لا أدري بم قطعوا سرَّتي، لكنني أتخيل أن جدتي قامت بقطعها بواسطة خيط من كفن أمي هاميست.

يجب أن أذهب إلى المطبعة وأطمئن على الكتب المدرسية، أعتقد أن الطباعة انتهت ويجب أن يتم البدء بتوزيعها على المدارس التي ستفتح أبوابها بعد شهر. لكنني لن أستمر في التدريس بعد الآن، يجوز أن أذهب للقتال أو أتفرغ لنفسي. لكنني الآن سأخرج متوجهًا إلى المقهى.

* * *

مضى من الليل نصفه، الصمت الذي يلف المدينة يصيبني بالحزن، سابقًا لم أكن أشعر بثقل الليل ووطأته، لكن الآن! كل لحظة تبدو أثقل على قلبي من جبال مهاباد، لا أدري ما الذي أصابني! حتى السجائر ما عادت تستطيع تبديد أحزاني، أما الشراب فيدفعني للبكاء، لا أريد رؤية الأصدقاء ولا أرغب في البقاء في البيت، حتى جدي الذي يشكو هذه الأيام من ألم مجهول في صدره، لا أريد اللقاء به. ترى لو عادت مُجْدَه هل ستذهب كآبتي قليلاً؟ بلا شك نعم. لكن لم أعد أسمع عنها شيئًا!

من المطبعة، توجهنا أنا وهيمن إلى بيت هژار، كان قد دعاني إلى مائدة الإفطار، مع أنه يعلم أنني لا أصوم، كان هيمن يمازحني في الطريق ويقول: «لا عتب عليك فأنت تشبه أخوالك في عدم الصوم. أنت نصفك مسلم ونصفك الآخر مسيحي»، أجبته:« وماذا بقي لكرديتي؟» فضحك هيمن وقال:« اطرح سؤالك هذا على هژار».

في بيت هژار الواقع في حارة رزگايي، كانت المائدة عامرة بشتى أنواع الطعام. ماء البئر البارد، اللبن المخيض، الفواكه التي تم تبريدها في النوافذ بالنسمات الباردة، وأصناف من الطعام كانت على المائدة. لم تكن الشمس قد غابت بعد. نظر الجميع إلى الطعام باشتهاء ثم إلى ساعاتهم التي في معاصمهم والتي بدت دقاتها بطيئة من شدة الجوع. تظاهرت بالصوم، لكنني كنت قد جعت فعلاً. يقولون إن الذي لا يصوم يجوع أكثر. وبمجرد أن تدحرجت الشمس الحمراء وراء الجبال حتى ضجت المآذن بصوت أذان المغرب، كان أعلاها صوتًا صوت أذان مسجد رستم بيك القريب من بيت هژار. وبدأت قرقعة الملاعق. المساكين الذين ظلوا في هذا اليوم الجهنمي الطويل أكثر من خمسة عشر ساعة بدون ماء كادوا ينفجرون من كثرة ما شربوا. لم يسأل أحد عن التمرات، فتناهى إلى مسامعنا صوت عجوز يقول: «أيها الشباب تناولوا التمر فذلك من سنة نبي الأمة». ضحكت في سري وقلت :« ترى لو كان الكرز ينبت في الحجاز، أما كان تناوله سيصبح سنة أيضًا؟»

بسرعة رفعوا السماط، كان الجميع قد ملؤوا بطونهم فبدؤوا يتناولون الفواكه الصيفية، ثم قاموا إلى الصلاة، أما أنا فقد التصقت بالأرض وتظاهرت بالانشغال بكتاب ما، لا أدري من أين سمعت صوتًا يقول:«أيها الشاب ألا تصلي؟» كاد هژار يجيب عني لكنني قات

بسرعة: «يا عم أنتم صلوا، أنا لست متوضئًا، سأصلي فيما بعد».

بعد ذلك انصرف المدعوون وبقينا أنا وهيمن ومضيفنا هژار لوحدنا.

وضع هژار كؤوس الشاي الرفيعة الخصر أمامنا ثم تناول بضعة أوراق وقرأ علينا قصيدة قديمة عن رمضان، بدا من ملامح هيمن أن القصيدة لم تعجبه كما أنها لم تعجبني أيضًا: «لا ينقصنا سوى مديح رمضان» قلت في سري. حينما انتهى هژار من تلاوة قصيدته، قال هيمن مترددًا: « أخي هژار أكتب قصائد وطنية وغزلية واترك الصوم وما شابهه للفقهاء والملالي».

- سمعت منهما أن عشيرتي المامش والمنگور تتواصلان مع الحكومة المركزية ضد الجمهورية، ولأجل ذلك فقد تقرر أن الكثير من المامشيين والمنگوريين سيتم إبعادهم خارج حدود الجمهورية.

- مثل هؤلاء الناس دود ينخر في أصل الشجرة، فإن لم يتم طردهم سيُسقطون الشجرة. ما رأيك يا بادين؟

سألني هژار فلم أعرف كيف أجيبه، لكنني قلت له كلامًا ملفعًا بالضباب: «فليسترنا الله مما هو أعظم».

- آمين يا رب العالمين.

ردد الإثنان بصوت واحد.

سار الليل الأخرس بطيئًا مثل سلحفاة برية. كان حديثنا غير المترابط يشبه حبات مسبحة انقطع خيطها. خضنا في كل حديث: سياسة موسكو، الآذريين، مستقبل الجمهورية، الشعر والكتب، الصوم، حتى أننا تحدثنا عن ابن البارزاني مسعود الذي أقبل على الدنيا حديثًا. ثم درنا في حلقة مفرغة وبلغ بنا التعب كل مبلغ، وكان لا بد لي من العودة إلى البيت.

وقبل أن نغادر سألني هژار: «صحيح كم يومًا بقي لرمضان؟» ضحكت وقلت له بالفارسية: «ماهى كه سود نداشته شمردنى روزهاش براى چه؟» يعني الشهر الذي لا فائدة منه، لمذا نعد أيامه؟

وخرجنا أنا وهيمن ضاحكين.

* * *

٢٥ آب ١٩٤٦ مهاباد

منذ عشرة أيام لم أمد يدي إلى القلم. ماذا سأكتب؟ أنا الآن أشعر أن يومياتي صارت تتشابه، مثل بيض دجاجة واحدة. مُجْدَه في شنو وكريم صار بين عشيرته وأدار ظهره للجمهورية. وشهر رمضان ينتصب مثل خيمة ثقيلة، وأنا أتنقل بين زيارة جدي المريض، وارتياد المقهى وأحيانًا أذوب في عرقي. لا أستطيع القراءة ولا الكتابة ولا حتى الشرب. أصبحت أشم رائحة الخراب الذي يتحدث عنه كريم في رسائله. ما الحل؟ ستفتح المدارس أبوابها بعد عيد الفطر لكنني لا أعرف هل سأستمر في التعليم أم لا.

اليوم ذهبت إلى حديقة شيخي في جنوب مهاباد، كان الناس مجتمعين هناك. توافد الناس من حارة الأرمن و سَرْپلوسك وپشْقَلا وحارة حاجى حسن و ڤلَتان وحارة اليهود وغيرها من الحارات، كان الحر والصوم والعطش يدفعهم إلى الخروج من منازلهم أما أنا فقد هربت من قلبي الذي يعتصر يوميًا ألف مرة ويعطش دون أن يرتوي، شعرت بأن جبلي قول قولاغ وخَزايي جثما معًا على صدري.

ضجرت من ضجيج الناس وضوضائهم هناك فاتجهت إلى حديقة ميكائيل، هناك بقيت لبرهة من الزمن ثم عدت بقلب كسير إلى البيت.

لم أعد قادرًا على نظم حتى ولو بيت واحد من الشعر. ولو لا كتابة هذه اليوميات لتركت الكتابة كلها وراء ظهري وكسرت قلمي إلى نصفين. لكنني أدون يومياتي مثل فرض الصلاة، أنا أعرف أن لا فائدة منها لكنني سأجن إن لم أكتب وسيرمونني إلى تكية نهري والقيود في يدي.

منذ مدة طويلة لم أعد أستلم رسائل من صديقي وابن مدينتي صادق بهاء الدين، لا أدري أين هو الآن؟ أما مُجْدَه ! فكأنها لا تعرف ما هي الرسائل! أرى أحلامًا مزعجة تكون فيها مُجْدَه أحيانًا بين يدي عفريت وهي تضحك وأحيانًا أخرى أراها تهوي من الأعلى وأنا أنظر إليها دون أن أقدر على فعل شيء.

علاقاتي مع البيشمركة أصبحت محدودة. فقط ألتقي في بعض المرات مع مصطفى خوشناو لبرهة قصيرة، هو دائمًا في سيارته وحين يراني يشير لي بمنبه السيارة، يحييني ثم يسأل قليلاً عن حالي ثم نفترق!

اليوم، ومن شدة قهري وحنقي ضربت دالية العنب بعصا غليظة، إنها لا تثمر ولا تخضر، فلماذا تبقى؟ لكنني تألمت كثيرًا وأحسست بأن شرايين قلبي تكاد تتقطع وأنا أضربها، أصابت كبدي حرقة عجيبة وشعرت كأنني أنتزع من قلبي حبًا عظيمًا.

الحب!

مرة أخرى كتبت هذه الكلمة! مرة أخرى نكأت جراحي بأظافر لا تعرف الرحمة!

هاهو مؤذن مسجد عباس آغا يرفع بصوته العذب أذان المغرب. المهاباديون الآن في بيوتهم يجتمعون حول موائد الإفطار أما أنا فأنحني على مائدة من جراحي.

اليوم، وفي صبارة حر الظهيرة ذهبت إلى القيصرية في المدينة، مشيت بجانب خان سيد علي، لم تكن بي رغبة للقاء أصدقائي الذين كانوا هناك، قطعت الشارع محاذيًا في سيري فتذكرت مُجْدَه حين التقت أعيننا في اليوم الأول. أشعر أنها لم تعد تتذكرني وإلا لماذا لم تصلني منها رسائل حتى الآن! صحيح أنها كانت تقول أنها لا تعرف كتابة الرسائل، لكن حين يحب المرء يصبح شاعرًا وتجتمع الكلمات الجميلة عند قلمه مثل الخراف. ليس من الصعب أن تكتب المرأة المعشوقة لعاشقها: كيف حالك، اشتقت إليك.

لن أوجع رأسي أكثر. لا شك أن هناك سببًا ما فأنا واثق من حبها لي لأنها ليست أبدًا مثل جاله الظالمة.

في القيصرية كان الناس يروحون ويأتون، ولأن الجو حار جدًا والقيصرية مسقوفة فقد كان بعضهم جالسين وبعضهم نائمين عطشى وجائعين ينتظرون أذان المغرب. قادتني خطواتي دون إرادة مني إلى ستوديو جدي فوجدته مغلقًا. لم يكن لا هو ولا آكوب هناك. بقيت وفكرت قليلاً. تناهى إلى مسامعي صوت بائع الحبال من عمق حانوته فأفزعني: «هيه أيها الشاب المغرور. أتريد أن تحتسي الفودكا في رمضان؟». كانت ملامحه قاسية وشعرت بصوته مثل حبل التف على عنقي وكاد يخنقني. تقدمت صوبه وسألته: «أين غاب هذان العجوزان؟» ضحك ضحكة مجنونة ورمى بالحبل الذي كان في يده وراء ظهره وقال: «أيها الأستاذ الجاهل، منذ متى يعمل الأرمن في أيام الآحاد؟»

لم أكن أعرف إلى تلك اللحظة أن اليوم يوم أحد، خجلت فأطرقت برأسي وتهيأت لأدير له ظهري لكنه هتف ورائي بصوت رقيق كأنه يعتذر: «تعال واجلس قليلاً».

وبدأ يحكي:

«أترى هذه الحبال؟ منذ عشرين عامًا وأنا أبيعها في هذه القيصرية، أي منذ أن أغار سمكو آغا الشكاكي على مهاباد، حينها كنت في الخمسين من عمري. حطم أحد مقاتلي الشكاك باب بيتنا وأجبرني بالقوة على التوجه معه إلى سوق المدينة، لم أكن أعلم لماذا اختارني من بين كل الناس، كنت أخشى أن يقتلني إن أنا سألته «ماذا تريد مني» لكنه قال بنفسه: «لقد نهبنا مالاً كثيرًا ونحتاج إلى حبال لنشد تلك المنهوبات على ظهور البغال». فتحت بيد مرتجفة باب الحانوت فأخذ ذلك الشكاكي كل ما عندي من حبال ثم سألني: «كم ثمنها؟» كنت قد نسيت حالي ونسيت أن مهاباد كلها تنهب فقلت: «يكفيني ثلاث تومانات يا آغا». ويا ويلي! ضربني ذلك الرجل على وجهي ثلاث لكمات بكل ما عنده من قوة وقال: «خذ هذه ثلاث تومانات» ثم ضربني على ظهري بأخمص بندقيته وقال ضاحكًا: «وهذه عشر شاهيات بخشيش».

- كانوا يشدون ما نهبوه على ظهور بغالهم، وحتى على ظهور أصحاب المنهوبات أيضًا ويتوجهون بهم إلى سفح جبل خَزابى.

- وسمكو آغا؟ هل كان راضيًا بما يحدث؟

سألت الرجل العجوز.

لم يجبني، واستمر يتكلم كأنه لم يسمعني: «لو كنت بدل القاضي محمد لتوجهت إلى بلاد الشكاك وانتقمت لذلك اليوم الأسود. هل تعلم أنني كنت سأجمعهم في أحد الميادين ثم أضع أعناقهم واحدًا واحدًا في الحبال وقبل الجميع عمر خان وصديقك كريم الشكاكي».

كان ذلك عهدًا مضى.

الأزمان والعهود لا تمضي. وكما أن الجراح العميقة تترك وراءها ندوبًا، فكذلك الزمن.

لا أدري ماذا كانت مناسبة روايته لتلك القصة ولماذ حكاها لي في ذلك القيظ؟ ما ارتحت لعباراته فهممت بالخروج من عنده لكنه أمسك بيدي وقال: « قل للبارزانيين فليأتوا وليشتروا الحبال، لن تمضي سوى أشهر قليلة حتى يرحلوا وسيحتاجون إليها، على الأقل سيشدون بها أحمالهم». خرجت من عنده دون أن أودعه وأخذت نفسًا عميقًا كأنني نجوت من الموت.

مالت الشمس إلى الغروب وراء لَنْدى شيخان وعاد الناس إلى بيوتهم. أنا أيضًا توجهت صوب حارة شوانان حيث بيتي، وقريبًا من مسجد عباس آغا التقيت بأحد تلاميذي وما إن رآني حتى أطرق برأسه وحاد عن طريقي، لكنني أردت أن أزيل خجله فقلت له: «هل أنت صائم؟» أجاب التلميذ بنعم ومد لسانه الذي ابيضَّ من شدة العطش ثم أسرع صوب البيت. ارتفع صوت الأذان من المساجد ولم يبق أحد في الخارج. في البيت وجدت كتابة على ورقة كان يبدو أنها دُوِّنت على عجل: «جدك مريض جدًا. سنأخذه إلى المستشفى الروسي في تبريز. التوقيع آكوب».

* * *

المصباح الرابع

يتراقص على وقع ريح الشمال بجنون
لا هو ينطفئ ولا هو يزداد اشتعالاً
مثل دمعة سجين لا يريد لأحد أن
يراه وهو يبكي

١ أيلول ١٩٤٦

تبريز

مضى من الليل نصفه، أنا وحدي أجلس بجانب جدي النائم في المستشفى. قبل قليل ذهب آكوب إلى بيت صديق له. يتأوه جدي، ينطق أحيانًا كلاما غير مفهوم، إته يتكلم الأرمنية ولا أفهم من كلامه سوى جملته: «هاميست إيگور هاميست إيگوور». إنه ينادي ابنته، أمي، ويطلب منها أن تأتي.

عند الظهر قال لي الدكتور صمدوف: «للأسف لم يعد في يدنا أي مجال لعلاجه. لقد أفسد جدك كبده. كما أن قلبه يعاني من تضخم ولا أعتقد أنه سينجو». قلت له: « ألا يمكننا أن نأخذه إلى باكو؟» هز برأسه نفيًا وقال: «فات الأوان. وسواء أكان ذلك في باكو، في موسكو وحتى في أمريكا فالدواء هو هو والإبر هي هي».

لم أكن أتصور أنني سأكون في أيام عيد الفطر في مستشفى! الناس يسيرون في الشوارع مسرورين وقد بدا الشارع الذي يقع فيه المستشفى مليئًا بأطفال يلعبون وعليهم أثواب جميلة. ترى كيف سيمضي العيد في مهاباد؟.

أنظر من خلال النافذة إلى حديقة گُلستان، فأراها مظلمة ساكنة. نسمات رخية تهز أغصان الأشجار. يمتزج صوت هذه النسمات مع أنين جدي فيطير النوم عن عيني.

أردت أن أطلع على وضع جمهوريتنا من خلال إقامتي في تبريز لكن للأسف لا أستطيع الابتعاد عن جدي، عدة مرات قال آگوپ: «اذهب يا بادين وأرح نفسك قليلاً وسأبقى بجانب أنترانيك»، لكنني أخشى أن يموت جدي دون أن أكون عنده. إن تحسن قليلاً فسأذهب للتجول في مدينة تبريز.

* * *

قبل ساعة فتح جدي عينيه. وحين رآني عند رأسه انتزع ابتسامة وزرعها على وجهه وقال: «هل ما زلت مستيقظًا يا بادو؟».

- نعم يا جدي. كيف تجد نفسك؟
- أنا بخير. أفضل من ذي قبل.
- وبعد أن أخذ نفسًا عميقًا أغمض عينيه وقال:
- هذه هي الحياة يا ولدي. أرأيت أية نهاية من خراء هي! أفهمت الآن لماذا لم أكن أضيع دقيقة واحدة من عمري؟ يعيش المرء مرة واحدة.، مرة واحدة فقط. وعليه أن يعيشها بحق وإلا فإن وجوده في هذه الحياة مثل عدمه. لقد حدثتك عن كثير من الأشياء فاحفظ كلامي جيدًا. إياك أن تهتم بما يقوله هؤلاء الأطباء. أنا أسمعهم وهم يقولون إن السبب في مرضي هو الفودكا وشربها. والله هذا كلام غير صحيح. السبب هو الزمن وسواء شربت أم لم أشرب فإن في انتظاري هذه النهاية الخرائية. فلماذا أحرم نفسي؟

ثم ضحك وقال: هل رأيت زوجة الدكتور صمدوف؟ اسمها ناديا، وهي طبيبة عيون من موسكو، صدقني هي طبيبة قلوب أيضًا ولو كانت هي التي تعالجني بيديها اللطيفتين لشفيت. ضحكت بدوري وقلت: «يا

جدي وضعك لا يسمح لك بالحديث فهو مرهق، النوم أنسب لك».

- النوم! ستبقى حمارًا يا ولدي. لم يبقَ في حياتي شيء فكيف أقضي ما تبقى منه بالنوم؟ أنا أعرف أكثر منك أن عمري الباقي ليس سوى بضع ساعات. ها أنذا على حافة القبر حقيقة. لكن الأمر سيان لقد عايشت همومًا كثيرة وكذلك مسرات كثيرة. لم أحرم نفسي من شيء. هل سبق لك أن نمت مع فتاة زنجية؟ أنصحك أن تجرب ذلك. مابين أفخاذهن أشد حرارة من تنور مسجور. لكنني سأموت وفي قلبي حسرة وحيدة. ليتني عشت أشهرًا أخرى لأقول لك: «انظر يا بادين ماذا فعل بكم الروس!.. لا أقول ذلك نكاية وتشفيًا لكن فقط لكي تتعقل».

توقف جدي قليلاً وسرعان ما قال في انزعاج: «بادين، قل لهم فليكفوا عن زرقي بالإبر، لقد جعلوا أردافي كالغربال. ليس هناك من فائدة. فليتركوني أمت بسلام. ولو أطعتني فإنك ستخرجني غدًا من هذا الخان العفن وتأخذني إلى مهاباد».

ثم بدأ جدي يتكلم بتثاقل حتى غلبه النوم.

إنني أفكر في موتي كل لحظة، لكنني أشعر لأول مرة بدبيب الموت وهو يقترب. لقد شاهدت كيف يسقط الرجال صرعى أمام عيني في المعارك، لكن هذا الموت البطيء! ليس من السهل على المرء أن يشعر أنه يموت ويغادر هذه الدنيا الجميلة وسيتم دفنه تحت التراب عما قليل لتقوم الديدان الشرهة بفرط نسيج جسده. آه ما أبعد الموت، آه ما أقرب الموت.

* * *

٢ أيلول ١٩٤٦

المستشفى الروسي- تبريز

اليوم جاء آكوب وأحضر معه سرًا زجاجة من الفودكا لأجل جدي. كنت على البلكون أدخن وأنا أنظر في الأسفل إلى الأشجار التي تزين حديقة المستشفى. سمعت رنين الأقداح فعدت إلى الغرفة مسرعًا ويا لغرابة ما رأيت! كان في يد كل من آكوب وجدي كأس فودكا يحتسيانها ويضحكان. خطفت قدح جدي من يده بخشونة وتوجهت إلى آكوب وصرخت في وجهه بكل عنف:

أتريد أن تقتل جدي؟

بادين! يا حمارًا من نسل الحمير! هل جننت! الذنب ليس ذنبه، أنا اشتهيت قدحًا من هذا السم. أنا أمرته أن يحضره لنا. الفودكا رخيصة جدًا في تبريز يا حمار.

وضعك لا يسمح لك بالشرب يا جدي، وسواء كانت رخيصة أم غالية فهذا لا يهم. المهم صحتك.

لم يبقَ يا بادين أي خراء في أيامي. دعني أمت ريَّان من الشرب.

خجل آكوب كثيرًا، وضع زجاجة الفودكا في كيس وهم بالخروج لكنني أسرعت وأمسكت بيده وقبلت وجهه عدة مرات معتذرًا، ضحك جدي وقال:

فلتكن قربانًا لآكوب. هيا قبل خصيتيه وليس وجهه.

ثم تكلم بالأرمنية مع آكوب وقال: «اعذره واعتبره جحشًا يرفس».

يا جدي ليس لي سواك أنت وجدتي. لا أريد أن أخسرك هكذا.

ضحك آكوب وقال: «الذي يسمعك سيعتقد أن جدك عنده مال

قارون وأنت تنتظر أن ترثه، يا بني ليس له من أملاك سوى زجاجات فارغة. حتى الاستوديو ليس له بل ليهودي وقد استأجره جدك».

أخذت كيس الفودكا من يد آكوب، أخفيته وقلت لجدي وأنا أضحك: « إن شاء الله سنخرج قريبًا من هذا المشفى ونعود إلى مهاباد ونعقد سهرة ممتعة وسنشرب الفودكا كثيرًا».

- سترى مؤخرتك ولن ترى هذا اليوم. هل تظن أنني لا أعرف كم هو غادِر مرضي هذا؟ أنا أسمع طنين ملك الموت فوق رأسي، أراه وهو يشحذ أنيابه ليمزق روحي. لكن يمكنك إن متُّ أن تسكب هذه الفودكا على شاهدة قبري.

مرة أخرى نام جدي، أمسكت بيد آكوب وخرجنا إلى البلكون لندخن.

* * *

خرجت مساء من المستشفى لأتجول قليلاً في مركز المدينة. يظن المرء أنها مدينة روسية فالناس في غالبيتهم يتحدثون اللغة الروسية، ولا أدري هل هم روس أم لا! صور ستالين تملأ كل الزوايا والحارات والأزقة. كتابات روسية تملأ الجدران، الأعلام الحمراء ترفرف في كل مكان وصور المطرقة والمنجل أيضًا كذلك. لحسن الحظ أن مهاباد ليست كذلك وإلا لما تحملتها أبدًا.

ومع ذلك فإن تبريز مدينة جميلة، إنها عاصمة الشاه إسماعيل الصفوي الذي انهزم في معركة جالديران، مدينة معمل السجاد الكبير الذي بناه الألمان وكان يستورد معظم الصوف من شنو، ذلك المعمل الذي كان كريم الشكاكي يعمل فيه حين كان طفلاً قبل أن يجعله الروس ثكنة عسكرية لهم.

إنها مدينة القاطرات أيضًا، فلقد زرت المحطة التي تنطلق منها القطارات إلى باكو، وحبذا لو كان في مهاباد محطة مثلها لكان الناس ارتاحوا كثيرًا.

إن تبريز مدينة كل المسرات، وقد زرت فيها أيضًا مكتبة سرشت، تلك المكتبة التي كلما زار القاضي محمد هذه المدينة اشترى منها كتبًا. إنها أيضًا تبريز المدينة التي يئن جدي في أحد مستشفياتها من آلام الكبد.

ما لفت نظري أكثر خلال هذه الأيام هي ملامح الناس. فهناك خوف عظيم مرسوم على كل الوجوه، وكل الناس يلتفتون إلى الوراء خلال مشيهم وكأن أحدًا ما يلاحقهم. ليست هناك مظاهر للعيد في هذه المدينة. فقط الأولاد يحتفلون، بعكس مهاباد. يقولون أن هنا سجونًا كثيرة يقبع فيها كثير من سجناء الرأي بجانب اللصوص والصعاليك.

آهات جدي تزداد. تتصاعد خرخرة من صدره. المستشفى صامت. آكوب غارق في النوم عند رأس صديقه. بعد قليل ستأتي الممرضة الآذرية اللطيفة نوراي لتناول جدي إبرة المساء.

* * *

٦أيلول ١٩٤٦

مهاباد

رحل.

لقد رحل جدي.

مات!

لا أدري ماذا أكتب عن موته، ولا ماذا أقول؟

حين صعدت روحه، كنا أنا وآكوب ونوراي الممرضة الآذرية عند رأسه. كانت عيناه مفتوحتين يحدق بهما إلى نوراي. أما آكوب فقد كان وجهه مصفرًا ويصلي بالأرمنية، يرسم صليبًا بيده اليمنى وينظر بعيون مليئة بالدمع إلى جدي. لم أكن أعرف ماذا أفعل ولا ماذا أقول! كانت هناك في الخارج نسمة ريح رخية تهز أغصان أشجار الدلب والصفصاف في حديقة گلستان فتتساقط الأوراق.

قال جدي بصوت ضعيف مليء بالتضرع: «أنا ظمآن». حملت كأس الماء وقربتها من شفاهه المتيبسة، لكنه أزاح الكأس بيده ونظر إلى آكوب. فهم آكوب مقصده وأتى بقدح الفودكا، قالت الممرضة نوراي غاضبة: «لا يجوز، من غير المسموح أن تسقوا هذا المريض فودكا وهو في هذه الحالة. خافوا الله». أمسك جدي بيدها وقال لها بتذلل: «نوراي! في سبيل الله». نظرنا إلى بعض بصمت، لم تجد نوراي بُدًّا من أن تسقي جدي بيدها جرعة من الفودكا. أغمض جدي عينيه برضى وقال: «فلأمت الآن».

ومال برأسه.

مات.

انحنيت عليه وصرت أبكي، انهار آكوب على أحد الكراسي وصار هو الآخر يجهش بالبكاء.أمسكت نوراي بيدي، رفعتني عن صدر جدي، ثم ألقت عليه منديلاً أبيض وقالت: «لقد مات. البقية في حياتكم».

قاربت الشمس على الشروق، خرجت نوراي لتشتغل في شهادة الوفاة، بقينا أنا وآكوب وحيدين مع ذلك الجسد المسجى بلا روح. كنا مرهقين جدًا ونبكي في صمت. حمل آكوب زجاجة الفودكا وشرب ما تبقى منها وصار يقول: « لقد بقيت وحيدًا..لقد أصبحت يتيمًا».

صباحًا جاء كريم الشكاكي، عانقني حين رآني وواساني:

اعذرني يا بادين، أمس فقط سمعت أنك في تبريز. هذه هي الحياة، نهايتها الموت. البقية في حياتك. لقد عاش جدك كفايته من العمر.

لم أكن أعرف بماذا أردّ، كنت أضع رأسي بين يدي دون أن أصدِّق أو أرغب بتصديق موت جدي.

قبل الظهر، جاءت سيارة جيب روسية، كان فيها ميرحاج، ضابط الارتباط بين مهاباد وأذربيجان وهو يقيم في تبريز. قام بمواساتي قائلاً: «إنك من من أبطال البيشمركة ولا يليق بك أن تضعف أمام حدث كهذا». ثم وضعوا تابوت جدي في مؤخرة السيارة وتوجهنا إلى مهاباد. لم يرافقنا كريم وقال: «علي أن أعود إلى زندشت، لقد عاد عمرخان وعاد جميع الشكاك الذين كانوا في مهاباد. علينا أن نكون بجانبه».

لم تكن عندي رغبة في مناقشته في تلك اللحظات الحزينة. ودعته ثم شكرت ميرحاج وجلست بجانب السائق بينما جلس آكوب بجانب التابوت وغادرنا منطلقين إلى مهاباد.

ها قد مضت ثلاثة أيام على دفن جدي في مقبرة الأرمن عند محلة س آشان. كلما أذهب إلى زيارته أرى آكوب هناك وفي يده زجاجة فودكا، يحتسي جرعة ويريق أخرى على شاهدة القبر.

اليوم جاء مالك الاستوديو ليعزينا أنا وآكوب، قال بلطف: «الموت حق وسنشرب كلنا من هذه الكأس. ومن عادات الدنيا أن..» وقبل أن ينهي حديثه أخرجت مفاتيح الاستوديو من جيبي وسلمتها إياه قائلاً: « شكرًا جزيلاً. الحق حقٌ، ولا يجب أن يتهرب أحد منه. هذه هي مفاتيحك. لكنك تعلم أن آلة التصوير وأشياء أخرى تخص جدي ما

تزال موجودة هناك و..» قطع آكوب كلامي وقال بحزن: «بادين لقد رحل هو فلا حاجة بنا لآلة التصوير». أكمل مالك الاستوديو ما كان يود قوله فقال: «إن قبلتم فسأشتري كل موجودات الاستوديو».

اتفقنا. وبعد أن ذهب الرجل، سلمت كل النقود إلى آكوب وأنا أقول له: «لو كان هناك من يستحق أن يرث جدي فهو أنت».

* * *

١٠ أيلول مهاباد ١٩٤٦

فتحت المدارس أبوابها من جديد لكن مُجْدَه لم تعد بعد. قبل يومين أرسلت لها رسالة أخبرتها فيها بموت جدي، أعتقد أن كريم أخبرها بموت جدي لكن عجبًا لماذا لا تسأل عني! هل أذهب إلى شنو؟ لا، فلأنتظر قليلاً ربما يأتيني جواب منها فأفهم سبب الجفاء.

لا أشتهي الخروج من البيت. دعاني هژار عدة مرات إلى سهرات في بيته لكنني كنت أعتذر. لم أكن أتصور أنني سأتأثر بموت جدي إلى هذه الدرجة. أما آكوب فقد جزع أكثر مني. اليوم زارني، كان قد شرب حتى الثمالة، عرفت أنه قادم من المقبرة، كانت عيناه حمراوين. بقينا صامتين لبرهة وحدقنا سوية في صورة جدي المعلقة على الحائط. بعد ذلك الصمت الثقيل، قال آكوب دون أن ينظر إلي: « أتعرف بماذا أفكر؟»

- بماذا تفكر يا عم آكوب؟
- أفكر بالرحيل عن مهاباد.
- إلى أين ستتجه؟.
- سأذهب إلى يريفان. سأذهب إلى أرمينيا. لم أعد أتحمل.

لو أمكنني لأخذت معي عظام جدك أيضًا. أتعرف أنه كان كل شيء بالنسبة لي يا بادين؟

كانت دموع شفافة تسيل من عينيه الحمراوين دون أن تترك شفتاه السيجارة.

لم أستطع أن أواسيه، لأنني أنا بنفسي كنت بحاجة إلى من يواسيني.

بعد فترة صمت أثقل من الأولى، انفرجت أساريره قليلاً وقال: «هل تصحبني إلى بيت خانم! لديها أمانة من عند جدك وتريد أن تعطيك إياها».

في المساء كنا هناك. وبعد الطعام والشراب، قامت خانم وجاءت بصرة صغيرة ثم سلمتني إياها وقالت: «لقد أوصى جدك أن أسلمك هذه الصرة، لا أدري ما فيها، لقد حلفني بالتوراة ألا افتحها. أنظر، ما زالت مربوطة كما تركها جدك». صرت أفك عقدها عقدة وراء أخرى. كان جدي قد أحكم ربطها لدرجة أن خانم وآكوب ضحكا وقالا: « المرحوم لم يحسب حساب فك العقد».

في النهاية فككت جميع العقد. كان في الصرة مئة تومان ملفوفة على بعضها وبداخلها ورقة صغيرة. تبادلنا أنا وآكوب النظرات، ثم فتحت الورقة بيد مرتعشة وقرأتها. كان جدي قد كتب فيها بالفارسية ما يلي:

«هذه وصيتي:

يا ولدي. بالقدر الذي أنت عليه من الحماس والاستعداد للعمل من أجل الجمهورية والتضحية بالنفس من أجل بلادك، كنت أنا أيضًا كذلك. لكنني الآن رجل عجوز ولم تعد أرمنستان بحاجة إلي. لقد خدمتها بقدر ما أستطيع لكنني وجدت أن كل شيء باطل لأنه النتائج

تأتي لا كما يشتهي المرء ونتقى الأوضاع كما هي. دائمًا الذين في السلطة ليسوا كما نرغب. لا تفكر أنني عدو لهذه الجمهورية، لا والله، وربما أحب رئيس الجمهورية القاضي محمد أكثر منك وأعرف قدره وقيمته. أنت تعرفه منذ أقل من سنة أما أنا فأعرفه منذ مدة طويلة. إنه رجل صافٍ طيب السريرة جدًا، لكنه وقع في الفخ ولا أعتقد أنه سيتمكن من النجاة منه.

هؤلاء روس! إسأل عن أعمالهم من آكوب ومني. لن أوجع رأسك أكثر. هذه مئة تومان، كل الثروة التي استطعت ادخارها ولا مال تركته ورائي سوى هذه النقود. الاستوديو والبيت قمت باستئجارهما، لم أكن مجنونًا فأشتري بيتًا أعرف أنني لست سوى ضيف فيه لعدة سنوات. إصرف هذه المئة تومان كما تشتهي لكن لا تحرم نفسك من الشراب وآت النساء حقوقهن. لا تضعف أمام الحب.

لم أترك لآكوب شيئًا. هو أصلاً لا يحتاج إلى شيء. ووصيتي له أن يزور قبري كلما اشتهى شرب الخمر ويريق كأسًا على شاهدة قبري. لقد تحدثت إليك كثيرًا، ولو قلت ذلك الكلام لبغل لما بقي بغلاً. سلام».

كنت أقرأ وصية جدي بصوت عالٍ وحين وصلت إلى الفقرة التي تتحدث عن آكوب، صار يجهش بالبكاء وخرج من البيت مسرعًا.

وضعت خانم قدح الفودكا مع الجليد والبرتقال أمامي ثم جلست بجانبي ووضعت يدها على كتفي وقالت: أيها الشاب يجب أن تكون مثل جدك. لم يكن يهمه شيء في الدنيا. هل تعلم أن عائلتنا كانت تستشيره في كل شيء؟ قبل مدة سمعنا أن اليهود يهاجرون إلى فلسطين، يقال أنهم يوزعون هناك عليهم الأراضي والأملاك وتتحسن أحوالهم كثيرًا والإنكليز يساعدون كل من يرغب في الهجرة مساعدة كبيرة.

رغبنا نحن أيضًا في الهجرة، لكن جدك قال لنا: «هل ستذهبون للبحث عن سكاكين تشق بطونكم؟ ماذا لكم هناك؟ دعوا الأكاذيب واتركوا تجار البشر هؤلاء فإنهم سيجمعون المال من ورائكم ثم سيرمونكم في العراء لتضيعوا كما تاه موسى في صحراء سيناء أربعين عامًا. إن شئتم فبإمكانكم البكاء عند كل جدار!»

صدقني يا بادين فما قاله جدك كان صحيحًا، هذا هو وطننا، هذه بلادنا التي ولدنا فيها وفتحنا أعيننا على شمسها الذهبية. كان جدك يقول أيضًا: « أرمينياي هي هذا الاستوديو، والفودكا وطني».

بقيت خانم صامتة لبرهة، نظرت إلى كأس الفودكا التي فرغت أمامي، ملأت كأسًا أخرى ثم شدتني وراءها إلى حجرتها.

***

١٣ ايلول ١٩٤٦

مهاباد

منذ البارحة وأنا منخرط في عمل جديد. هذا العمل ليس بعيدًا عن التعليم، بل هو أمتع منه بكثير. الفضل في ذلك يعود إلى مناف كريمي الذي جاءني وقال: «سوف نقوم بتعليم الأميين من الكبار. فإن وجدت في نفسك الرغبة في المساهمة فتعال إلى مقر الحزب لتقوم بتعليم هؤلاء المساكين الكتابة».

تحمست لهذا العمل، وأنا أذهب الآن لأعلم أولئك المسنين المهاباديين مبادئ الكتابة.

لقد ترك جدي فراغًا في حياتي أكبر من الفراغ الذي تركته مُجْدَه، وعلي

الانخراط في العمل لكي لا أفكر كثيرًا، علي أن أخرج من جديد لأخالط الناس.

آكوب لم يعد يفتح متجره، دأبه هو أن يسكر ويهيم على وجهه في شوارع مهاباد وينام في ظلال أشجار الدلب وشاهدة قبر جدي. وضعه البائس يعصر قلبي، لكنني لا أقدر على مساعدته. أحيانًا كثيرة أراه عند قبر جدي نائمًا فأوقظه وأعيده إلى البيت.

مرت مدة طويلة دون أسمع صوت جارتي أخت حَمَه رسول، لكن اليوم رأيتها صامتة تطل من النافذة وتنظر إلى طول حارة شوانان، فجأة لاح أميرال آغا قادمًا من حارة خارى، توقف أمام النافذة وصار يشحذ الماء مثل كل مرة. أصغيت إليهما دون أن ينتبها لي. سمعت صوت أخت حَمَه رسول وهي تقول لأميرال آغا: «لا ماء في بيتنا، أتريد دموعًا؟» فأجاب بضحكة: «الدموع أسخن من الماء وأكثر ملوحة، وهي تناسب البحر أكثر». ثم رفع سطله إلى أعلى وقربها إلى وجهها، ثم شكرها ومضى لحال سبيله.

الآن تهب نسمات رخية من ناحية شنو، لا، هذه النسمات المنعشة قادمة من جهة العمادية، أنا أعرف نسمات العمادية، تشبه آهات العشاق وأنفاسهم، نسمات سكرى وحزينة وحرَّى وحتى كريم نفسه لا يستطيع اقتناص هذه النسمات العليلة ووضعها في فخاخه اللامرئية. لقد قال ذات مرة: «هناك نوع من الريح لا يقع في الفخاخ، وهو تلك الريح التي تمتزج مع آهات الجرحى وتهب بطيئة، تلك الريح تبصر الفخاخ بينما لا تتمكن الفخاخ من رؤيتها».

* * *

قبل أيام حين خرجت من بيت الفتاة اليهودية، عرَّجت على القيصرية وقفت قليلاً عند استوديو جدي المغلق فانحدرت دموعي، ناداني العجوز بائع الحبال والذي كان يجدل حبلاً، بصوت حنون - كانت تلك المرة الأولى التي أجده فيها يخاطبني بحنان- فقال:

- تعال اجلس.

حين دخلت المحل، رأيت ثلاثة علب مليئة بالزيت وفي كل منها حبل. دهشت وسألته بخوف:

- ما هذا.

قبل أيام، أيام عيد الفطر، كان الناس قد خرجوا مبتهجين بثيابهم الجميلة إلى منتزهات سيسه وكانى مام قَنْبَران ولاله باس، أما أنا فقد بقيت في البيت، سمعت طرقًا على الباب وحين فتحته شاهدت ضابطًا إيرانيًا، لم أصدق ما تراه عيناي، فركتهما عدة مرات حتى تحول عدم تصديقي إلى يقين كامل إثر كلمتين فارسيتين: زود بكُن (أسرع). كان ذاك الضابط موفدًا من الجنرال رزم آرا إلى مهاباد لكي يعقد اتفاقًا مع القاضي محمد، واسمه العقيد علي أصغر فيوضي. فتحت المحل بطلب منه، اختار على الفور ثلاثة حبال ووضع تسع تومانات في جيبي قائلاً: «ضع الحبال الثلاثة في الزيت. خليها أمانة عندك إلى أن أعود مرة أخرى». سألته: «أتريدها لأجل المراجيح؟» فقال: «نعم، لكن ليست لمراجيح الأطفال. إنها لمراجيح الموت». ترى ماذا كان يقصد بذلك؟

لم أجبه وخرجت من عنده ممتعضًا دون أن أودعه. كان صوت ضحكته يأتيني مثل الرعد، وحين وصلت إلى رأس الشارع خرج من دكانه وناداني: «لا تخف، هذه الحبال ليست لرقبتك على أية حال».

* * *

١٦ أيلول ١٩٤٦

خرجت هذا الصباح دون أن أشرب قهوتي واتجهت إلى المطبعة. منذ شهر ونصف تعودت على شرب القهوة. هذه أصلاً من عادات المترفين، فالفقير لا يستطيع أن يستيقظ صباحًا ويعد لنفسه القهوة ثم يجلس مستمتعًا بالتدخين!

كان هناك ناس كثيرون في المطبعة. هژار وهيمن، صديق حيدري، قادر مدرسي، حسين ميكائيلي وبضعة أشخاص آخرون لم أكن أعرفهم. وقد لفت انتباهي أن صورة ستالين المعلقة على أحد الجدران -والتي كانت أول ما يبدو من الأشياء حين يدخل المرء إلى المطبعة- كانت قد أزيلت. لكن أثر المسمار الذي علقت به الصورة كان ما يزال موجودًا فسألت هژارضاحكًا (كانت المرة الأولى التي أضحك فيها بعد موت جدي): « أين ذهب ستالين آغا؟» فقال وكأنه لم يفهم قصدي: «من؟» فاومأت برأسي إلى الجدار الذي كانت صورة ستالين معلقة عليه. رتب هژار ربطة عنقه وقال هامسًا في أذني: «سيزورنا اليوم ضيف أمريكي. الآن كان حميد مازوجي هنا وهو الذي أزال صورة ستالين بسرعة ثم ذهب. ليس فقط هنا بل في كل مكان أزالوا صور ستالين. هذه أوامر القاضي محمد. لكن لا بد أن يكون الضيف قد شاهد صورًا كثيرة لستالين في مهاباد»

لم تمض ساعة حتى سمعنا هدير سيارة جيب. خرجنا لاستقبال ضيف مهاباد الأمريكي آرشيبالد روزفلت الموظف في السفارة الأمريكية في طهران، كان رجلاً طلق المحيا مشرق الوجه، وحين دخل سلم علينا فردًا فردًا وصافحنا بحرارة. رحب به مدير المطبعة ثم أهداه نسخًا من جريدة كردستان وبضع مجلات ودواوين شعر.

كانت عبارات «ثانك يو» تأتي كزخ المطر من فم آرشيبالد روزفلت.

أظهر سروره كثيرًا وصار كلما تلقى جريدة يقول مع ابتسامة مصطنعة: «Very good nice oh my god». ثم بقي هو ومدير المطبعة لوحدهما وخرجنا. في الخارج كان سائقه الارمني (اسمه كَرَبيت) نائمًا خلف المقود. تذكرت جدي فقلت في سري: « الأرمن ليس فقط يقودون الجمهورية، بل يبدو أنهم يقودون السفارات الموجودة في طهران أيضًا. لقد خلقوا من الحديد وليس من التراب».

كان الخريف قد أنهى معركته مع الصيف الجهنمي الحار وانتصر فيها فبدأت البرودة وقصُرَ النهار، زينت غيوم رقيقة بيضاء وعالية سماء مهاباد الزرقاء. عند الظهيرة عاد التلاميذ مسرورين إلى بيوتهم. بعضهم كانَ يهرول صوب بيته، بينما كان بعضهم يقف في زوايا الأزقة يلعب. تجولنا أنا وهيمن وهژار قليلاً في القيصرية، لم أكن أريد أن أقترب من ستوديو جدي فقلت لهما: «فلنذهب لنتناول طعامًا». وذهبنا إلى مطعم (حَمَه شَله) الكبابجي بالقرب من ميدان آسنگران. وحَمَه شَلَه هذا أشهر كبابجي في مهاباد وكان جدي يرسلني دائمًا إليه لإحضار الكباب من عنده.

مالت الشمس إلى الغروب واقتربت الساعة من الرابعة، نظر هژار إلى ساعته وبدون أن يكمل شرب الشاي قام مسرعًا وقال: «علي أن أذهب للإذاعة». قمنا أنا وهيمن أيضًا ومررنا من ميدان جوارجرا إلى الجسر الأبيض لنجلس هناك. النسمات التي كانت تهب من جبل داشا مجيد كانت ترسم موجات صغيرة على نهر سابلاخ، وبعد فترة طويلة من الصمت قال هيمن: «بادين ماذا فعلت لأجل زواجك؟ متى عرسك؟» أجبته بحزن: «الأمر بيد عمر خان الشكاكي».

- ما علاقته بموضوع زواجك؟

- أنت تعرف أن خطيبتي من الشكاك وقد أداروا جميعًا ظهورهم للجمهورية، كريم ومُجْدَه إنهما يأتمران بأمر عمرخان كما ورق الخريف أمام الريح. من كان يصدق أن كريم سيذهب في هذه الأزمة إلى شنو؟ حسنًا هو انقاد وراء عشائريته وترك مهاباد، فلماذا تركتني مُجْدَه؟ علي أن ألحق بهما وأفهم الموضوع.

- سيعود كل شيء كما كان. صدقني. بعد أيام سيعود كريم ومُجْدَه، ولا أقول عمر خان، إلى مهاباد. ليس سهلاً أن يقطعوا صلاتهم بنا. أنا أعرف كريم جيدًا.

كنت راغبًا بتصديقه، لكنني أنا أيضًا أعرف كريم وأعرف جيدًا عشائريته التي بلغت عظامه. لقد أصبحت أحاديث كريم عن الرياح التي يريد اصطيادها تثير الريبة والشك عندي. ترى لماذا كانت كل عباراته ملفوفة بالضباب؟ ماذا تعني الريح في كلامه؟ وكيف تقع الرياح في الفخاخ؟ الآن صرت أنتبه إلى هذا الأمر.

لكي أغير مجرى الحديث قلت لهيمن: «إنه خريف الجمهورية». لم يفهم قصدي، هز برأسه قائلاً: «الخريف في كل مكان». ثم افترقنا وذهبت إلى عملي.

إن تعليم الكبار أمر صعب جدًا، لكنني أجد نفسي مرتاحًا أكثر عندهم. لو كانت مُجْدَه هنا لعدت إلى سلك التعليم ربما. إن المدرسة التي كنا ندرس فيها سوية تثير رماد ذكرياتي وتشعل من جديد تلك الجمرات الموشكة على الانطفاء. مُجْدَه لم تعد تسأل عني، ربما لأن رسائلي لا تصلها! أو أنها ليست في شنو أصلاً!

يجب أن آخذ الإذن بالسفر إلى شنو. يجب أن أجدها وألتقي بها وإلا فلا يمكن حل الأمور بالرسائل. إن لم تكن عيناي في عينيها فلن أستطيع

فهم أي شيء، ففي العيون ونظراتها تنعكس حقيقة المرء. نعم، بعد بضعة أيام سأسافر إلى شنو. ربما أخطبها أيضًا.

* * *

١٨ أيلول ١٩٤٦

مهاباد

إنه الخريف. خريف في القلب، في الطبيعة وحتى في وجوه أهل مهاباد. لقد غاب ذلك البشر والسرور الذي كان يعلو وجوههم في شهري شباط وآذار حين تم الإعلان عن الجمهورية. ما أسرع ما ينسى الناس أيام الفرح!

قطرات ناعمة من المطر تسقط هذه الليلة مثل نجوى عاشقين، مصابيح الشوارع تسكب ضوءها الحزين إلى الأسفل كأنها أوعية مليئة حليبًا صافيًا في يد حلّابة رقيقة القلب حين تلحظ راعياَ تعشقه.

أصدقائي مشغولون بأعمالهم، لا أحد عنده وقت لأجلي، لم أعد ألتقي بنوري أمين، إنه لا يترك جبهة سقز، أما مصطفى خوشناو فهو في بوكان، أجد نفسي وحيدًا، أحيانًا ألتقي برفاقي البيشمركة في القيصرية، لكننا لا نتحادث سوى دقائق معدودات، نتبادل سلامًا مرتجلاً ثم نفترق مثل تحية النمل حين يلتقي أفراده في رتل. قبل عدة أشهر لم أكن أجد وقتًا لأحك رأسي، كنت أتنقل بين المدرسة وستوديو جدي، ومن عند جدي كنت أذهب إلى المقهى ثم إلى المطبعة. كل يوم كنت أرى مُجْدَه. كانت حياتي مليئة. أما الآن فهي مثل كيس تم نفضه ولا معنى لها. ولولا هذه الدروس المسائية لمحو الأمية لأصابني الجنون.

أميرال آغا لا يظهر هذه الأيام، هل ولى هو الآخر ظهره للجمهورية؟

يقال أنه يتجول على القرى ويشحذ المياه، ويقول بعضهم إنه يبحث عن طريقة لربط بحيرة أورمية ببحر قزوين ثم يسحب مهاباد إلى ضفافهما!

آآآه من يوصل تنهداتي وألم أشواقي إلى شنو؟

لقد تأخر الليل، يتناهى إلى مسامعي صوت محمد ماملى من خلال غراموفون بعيد. يهدر مثل نهر ربيعي ذلك الصوت. إن لم يخب ظني فهو قادم من بيت عمادي صاحب المقهى، هو يعشق صوت ماملى وليس في مقهاه لا يصدح سوى أنغام اسطوانات محمد ماملى وعلي أصغر.

ثمة طرق على الباب. طرق خفيف لطيف مؤدب. ترى من هو هذا الذي جاء يزورني في هذه الليلة الخريفية؟

* * *

كان هو هژار....

منذ مدة طويلة لم يطرق أحد بابي، حتى أميرال آغا لم يعد يأتي ليستجدي الماء مني. كنت أمني النفس بأن يكون الطارق على الباب إما كريم أو مُجْدَه وتتحقق بذلك نبوءة هيمن. لكنني حين فتحت الباب لمحت هژار واقفًا في عتمة الشارع، دهشت ونظرت إليه بفم مفتوح، فضحك وقال: «ألم تعرفني! أم أنك لا ترغب في استقبال الضيوف؟» انتبهت للأمر فاعتذرت منه وأدخلته البيت.

- ماذا تشرب؟

- شكرًا، الوقت متأخر ولن أشرب شيئًا. سمعت أنك ستذهب إلى شنو فقلت ربما أستطيع مساعدتك. أتعرف أحدًا هناك؟

تلعثمت وأوشكت أن أقول له إن مُجْدَه هناك، لكنني تذكرت كريم فقلت له:

- كريم الشكاكي. صديقي.

وأنا أعرف أنه صديقك، لكنه الآن مع عمرخان. وحده الله يعلم أي بساط ينسجونه في مخيلتهم! إنك لن تستطيع رؤيته في شنو.

عرف هژار أنني حائر بلا حول ولا قوة فقال بلطف: «مهما يكن يا بادين فإننا نعرف هذه المناطق وأهلها أكثر منك، ما صارت لك سنة هنا، كثيرون من العشائر ورؤسائها يعادون الجمهورية والبارزانيين، ويمكن أن تمر بالغلط في مناطقهم ولا أحد يعلم ما الذي يحدث للمرء». فقلت بنبرة مليئة بالحيرة: «وما الحل». فقال:

- لنا أصدقاء من ژ. ك J.K في كل مكان، وفي شنو لي رفيق اسمه كاوه، كاوه الخياط، هذا اسمه الحركي وهو يعرف شنو ركنًا ركنًا. هذا هو عنوانه وهذه الورقة عبارة عن رسالة صغيرة أوصيه فيها بك. فإذا وصلت إليه ستسهل أمورك التي تعرفها أكثر مني.

شكرت هژار ووضعت في جيبي الورقة المطوية المكتوب على ظهرها عبارة « عبادة الله عمل جميل»(*).

* * *

٢٣ أيلول ١٩٤٦

مهاباد

الريحُ لحنٌ يهدهد الجرحى، والفصول اليتيمة تعلن الوداع، أما الجمرات التي في حلقي فإنها تحرق الكلمات مثل ورق الخريف. ها أنذا أشم رائحة حريق الأفق من قلبي.

(*) عبارة كان يتعارف بها أعضاء المنظمة الكردية ژی کاف.

اليوم عدت من جرحي الأخير في شنو.

حين التقيت بكاوه، سألته أولاً عن كريم، لكنه لم يكن في شنو! قال كاوه إنه ذهب إلى زَنْدشت وأصبح مستشارًا لعمرخان الشكاكي.

- ومُجْدَه؟

سألته بصوت خافت.

- هي تذهب أحيانًا إلى زندشت. لو كان لك حظ فسنلتقي بها.

وتوجهنا سوية إلى حارة في شمال البلدة.

كانت الشمس موشكة على الغروب، لم أكن أدري أن حبي أيضًا يغرب، لم أكن أعرف أنني أسير إلى لقاء السراب وأن قلبي الظامئ سيعود أكثر ظمأً.

تركني كاوه لدى الباب وودعني بلطف قائلاً: «إن أردت العودة فأنت ضيفي يا أخي» ثم ذهب.

طرقت الباب، فتحت امرأة في حوالي الخمسين من العمر الباب بوجه كالح:

- خيرًا يا بني؟ ماذا تريد؟

- أنا بادين الآميدي، قادم من سابلاخ. هل مُجْدَه هنا؟

ودون أن تزيح المرأة ذات الوجه الكالح جسدها عن الباب، التفتت وراءها ونادت: « مُجْدَه، مُجْدَه، أحدهم يسأل عنك».

وكم آلمتني كلمة «أحدهم!» إذًا أنا أحد الناس ولست بادين، لست حبيب مُجْدَه التي لم تعد تتذكرني أو تتحدث عني لأحد. لكنني تماسكت وبقيت لدى الباب. لم تمض دقائق حتى ظهرت مُجْدَه. طُحِن قلبي مثل حبة حنطة وقعت بين حجري رحى شرس.

- من هذا؟

سألت مُجْدَه بصوت مزعج.

- لا أدري. أحدهم يسأل عنك ويقول إنه بادين.

وكما لو أن اسم بادين فاجأ مُجْدَه، بقيت جامدة في مكانها، فلا هي تقدمت خطوة ولا هي عادت إلى الوراء. لكنني تشجعت وصحت: «مُجْدَه هذا أنا». اضطرتْ أن تأتي إلى الباب فتراجعت المرأة وذهبت حتى اختفت في عتمة إحدى الغرف. استقبلتني مُجْدَه ببرودة لم أكن أتخيلها. رأيت في عينيها آلافًا من الفخاخ وفي كل فخ رأيت مِزقةً من قلبي وقطعة من روحي. رأيت أيضًا كل الرياح التي كان كريم يتحدث عنها. قالت بصوت خال من الحب، خال من الشوق: «أهلاً بك».

- ألا تخطر العودة على بالك؟

- العودة إلى أين؟

- عودي إلى حبك، إلى المدرسة، إلى مهاباد.

- مهاباد؟

قالت مُجْدَه مندهشة وكأنها تسمع الاسم لأول مرة. كنت أخشى أنها سمعت بقصتي مع جاله في بيت اليهودبات، أو أنها سمعت عن علاقتي بهن فقلت متخوفًا:

- مُجْدَه ما الذي حصل، قولي؟

ولمعت الدموع في عيني. لم أعد أعرف ماذا أفعل، بركان الشوق الذي كان يضطرم في قلبي، انطفأ بوقفة مُجْدَه مثل تمثال من الثلج، لم تقل لي: «تفضل أدخل»، لم تسأل عن أوضاعي، ولم تتفوه بكلمة حلوة، فقط قالت: «ومن لي في مهاباد؟»

أدرت لها ظهري دون كلمة وداع وسرت بخطى سكرى وقلب كسير إلى بيت كاوه.

بعد أن تناولنا العشاء، أفصحت لكاوه عن نيتي بالسفر في تلك الليلة ومغادرة شنو، لكنه ألح علي أن أبقى حتى صباح اليوم التالي وقال إنه سيرسلني إلى زندشت قرية عمرخان. لكنني رفضت فاضطر كاوه أن يجهز لي فرسًا وأرسلني في تلك الليلة مع أحد الفرسان إلى أورمية. في الصباح الباكر كنت في المدينة ومن هناك توجهت لوحدي إلى قرية زندشت.

كانت ريحٌ رخاء منعشة تهب من جهة بحيرة أورمية، أما في قلبي فكانت تهب عاصفة مجنونة. وقبل أن تغيب الشمس وصلت إلى القرية. لم ألاقِ صعوبة كبيرة في التعرف إلى قصر عمرخان الشكاكي.

في القصر، وحين عرفوا أنني قادم من مهاباد فرحوا كثيرًا، عرفني كريم إلى عمرخان وقال له: «هذا بادين الآميدي، قادم من مهاباد». سأل عمرخان أولاً عن القاضي محمد والبارزاني والشخصيات الأخرى. كنت أجيب بشكل متقطع إلى أن قال عمرخان فجأة ودون أن أطرح عليه أي سؤال: «أتعرف يا بني أنني لم أغادر مهاباد خوفًا من شيء؟ لا أبدًا. الشكاك لا يخافون إلا من ربهم. لكنني أعلم من أين تهب الريح. لقد أصبحت الجمهورية بالكامل في حضن الروس، والآذريون يستولون على أراضينا رويدًا رويدًا. إن الروس ينوون توزيع أراضينا على القرويين وهذا لن يحصل ما دمت على قيد الحياة. يا بني سأسرد عليك قصة من غدر الروس: هل تتذكر معركة مامه شاه؟ بعد تلك المعركة أسرع هاشموف وجاء إلى قرية «سَرى» في سقز. ودعانا أنا والقاضي محمد وملا مصطفى وميرحاج ومصطفى خوشناو إلى اجتماع،أتعرف ماذا قال لنا؟

لقد رفع أصبعه في وجوهنا كما يفعل آغا مع غلمانه وخدمه، وقال: «لو تقدمتم خطوة أخرى إلى الأمام فسنسحب دعمنا عنكم». هل تعلم لو أن الشاه بنفسه قال لنا ذلك الكلام لوجب علينا أن نفقأ عينيه! غضبت كثيرًا لكن القاضي محمد، سامحه الله، دعاني إلى الهدوء. صدقني لولاه لملأت وجه هاشموف بصاقًا. من هو حتى يصدر إلينا الأوامر؟ ليس فقط هكذا، بل كان يريد أن يضعنا تحت رحمة الآذريين.

بعد برهة صمت غير طويلة، واصل عمرخان كلامه: «كل واحد يجذب الصحن في اتجاهه، وأنا لا أريد أن تبقى عشيرتي محرومة من حصتها». قلت له: «إن الجمهورية الآن بحاجتك وحاجة مقاتليك. ليس من المعقول أن تدير في هذه الظروف ظهرك للجمهورية مع ألف من فرسان الشكاك ». هز رأسه، لعب بشواربه قليلاً ثم قال: « لقد فات الأوان». لم أرد أن أتكلم أكثر فالتزمت الصمت، عرف كريم أن لدي ما أقوله فاستأذن عمرخان وخرجنا إلى غرفة أخرى.

- مالذي تفعله هنا يا بادو؟

- اسأل قلبي يا كريم.

وسردت عليه ما جرى بيني وبين مژده، فلم يهتم بقصتي بل قال:

- أنا أستطيع التغلب على كل ريح..لكن رياح الحب...! الحب بذاته فخ.

- قل لي الحقيقة يا كريم..ما الذي جرى؟

- لا شيء..إنها مُجْدَه وتعرفها..ليست على مايرام.

- ألن تعودوا إلى مهاباد؟

- في الوقت الحاضر.لا.

لم أستطع إنجاز شيء، تلك الليلة تحدث لي كريم عن الروس وخياناتهم وقال: «علينا أن نتوجه صوب أمريكا، إنها قوة كبيرة ويبدو أنها تثبت أقدامها في العالم». لم يتفوه بكلمة عن القضية التي كنت قد ذهبت لأجلها، بقينا حتى الفجر ولم نتحدث إلا عن أنواع الرياح التي تهرب من الفخاخ.

حين هيأت نفسي صباحًا للعودة، قال لي عمرخان: «قل للقاضي محمد أنه إذا وصل الماء إلى بساط المرء فما عليه إلا أن يرفع ثيابه».

* * *

٢٦ أيلول ١٩٤٦

مهاباد

اليوم التقيت ببنات مصطفى خوشناو الثلاث پِرْشَنْگ، پَري، وشيرين بالقرب من خان سيد علي، وحين رأينني تقدمن إلي وقلن بصوت واحد: «لقد عاد البابا». سرت عدوى فرحتهما فيَّ أيضًا. فقد صارت لي مدة طويلة دون أن أراه وكنت في يأسي وضجري هذا بحاجة إلى صديق لأفتح له قلبي وأشرح له ماالذي أصابني.

كنت ما أزال أتحدث إلى تلك البنات الصغار حين ظهرت سيارة مصطفى خوشناو من جهة مكتب الحزب، قطعت ميدان جوارجرا وجاءت لتتوقف عندي. حين التقت عيناه بي أطفأ محرك الجيب وقفز منها بسرعة وجاء يعانقني. سألني عن أحوالي ثم حمل بناته واحدة واحدة وقبلهن. لمحت رجلاً جالسًا في السيارة يحدق في طول الشارع، كان يلبس لباسًا أوربيًا وتبدو على ملامحه أنه ليس من مهاباد. سألت مصطفى خوشناو عن الرجل فقال بفرح:

« إنه قدري بيك، ابن جميل باشا. اليوم جئنا أنا وهو من بوكان، إنه من كُرد سوريا وقد وصل إلى هنا بعد أن لاقى صعابًا كثيرة. هيا سلم عليه». حين سمعت أنه من كرد سوريا تذكرت فورًا نور الدين زازا الذي التقيته في السجن. تذكرت جلادت ومجلة هاوار أيضًا، فتوجهت إليه بفرح وسلمت عليه. بادلني التحية بوجه بشوش ولما رأى مصطفى خوشناو أن تحيتنا طالت قال ضاحكًا: « يا بادين أعتقد أن بيتك قريب من هذه الأنحاء لكن يبدو أنك لا تحب الضيوف!». انتبهت للأمر فدعوتهم إلى بيتي.

انشرح صدري بلقائها قليلاً، إذًا لقد وصل صدى هذه الجمهورية إلى كرد سوريا أيضًا وعبرت الحدود! آآآه يا جدي ليتك كنت على قيد الحياة وأخبرتك عن هذا الأمر. ترى بماذا كنت ستجيبني؟

* * *

١٠ تشرين الأول ١٩٤٦

مهاباد

بعيد عن العين بعيد عن القلب. لا أدري ممن سمعت هذا المثل ذات مرة. لكن الذي أعرفه جيدًا أن هذا المثل خاطئ مئة في المئة. فهاهي مُجْدَه بعيدة عني وقد أبعدتني عن قلبها أيضًا. لكن بقدر ما هي بعيدة فهي أقرب إلى القلب.

أنا أكتب هذه السطور وكأني أمر بشفرة حادة على شرايين قلبي. اليوم وصلتني رسالة من مُجْدَه، لا! لم تكن رسالة بل قرار إعدام حبي.

حين لمحت عيناي الأوراق المطوية، انتفض قلبي. قلت في نفسي:«هاهي تذكرتني!» لكنني حين فتحت تلك الأوراق ورأيت

الخاتم الذي اشتريته لها، جننت. حقًا لا أدري ماذا أكتب؟ أية كلمات أجعلها خيوطًا لأنسج بساطًا من جراحي؟ إنه أمر لا يصدق. لا يصدق على الإطلاق هذا الأمر. كل هذا الحب، كل هذا الانتظار وكل شموع الأمل وقناديلها التي أوقدتها بشعلة روحي شمعة وراء شمعة وقنديلاً وراء قنديل انطفأت بنفخة واحدة! ما الذي يجري؟ أيمكن أن تكون مُجْدَه مثل جاله!

وحده جدي عرف النساء لكنني لم أطعه. لم تشأ مُجْدَه أن تكتب اعتذارًا أو تشرح الموقف. فقط كتبت كلمتين، كلمتين مثل رصاصتين طائشتين خرجتا من بندقية فأصابتا قلب غزالة ونفذتا منه: «عفواً بادين!»

ما الذي سأعفو عنه بعد؟ كلما جاءت إحداهن طحنت قلبي وعصرته مثل عنقود عنب لتشرب كفايتها من الخمر ثم تقول في النهاية: عفوًا! ما هذا النوع من الحب الذي ينتهي بكلمتين قاتلتين للقلب؟ ما هذه الأحلام التي تتبدد مع صياح أول ديك؟ لم تعد لقلبي رغبة في شيء. وهل بقي لي قلب أصلاً؟ من أين سآتي بقلب بسيط جديد؟ ليتني كنت شجاعًا فآتي بحبل ألفه على عنقي وأستعجل موتي الذي أنتظره. سأذهب ثانية إلى شنو. سأذهب مهما كان ولن أعود إلا بعد أن أفهم كل شيء. منذ أكثر من سنة عبرنا الحدود إلى هذه الأرض بقلوب مفعمة بأمل كبير، كنت أقول: «سأداوي جراح قلبي هنا» ولم أكن أعرف أن القدر هيأ لي جراحًا جديدة. في أية أرض سأداوي هذه الجراح إذًا!

من جديد أسمع صوت جارتي، تغني بحزن وحرقة على أخيها: كثيرًا ما شرحت همي للأطباء

لكنهم لم يداووا المساكين الغرباء



١٥ تشرين الأول ١٩٤٦

مهاباد

مات أميرال آغا!

اليوم، وقبل أن تغفو الشمس في حضن لَندى شيخان، خرجت بسبب الضجر وانقباض القلب وتوجهت إلى ضفة سابلاخ عند حديقة قاضي. كان الخريف يفسح الطريق أمام الشتاء. هبت ريح باردة وهطل مطر خفيف. لمحت عددًا من المهاباديين مجتمعين فاستغربت! ترى هل يتنزه المهاباديون تحت هذا المطر وفي هذا الجو العاصف؟ من همهمات الناس وملامحهم الحزينة عرفت أن حادثًا غير عادي قد وقع. فجأة لمحت آكوب، كان هو أيضًا يحدق مثل غيره في أمواج النهر. حين التفت آكوب ورآني، قال دون أن يلقي التحية عليَّ:

لقد ألقى رفيقك بنفسه في النهر يا بادين!

رفيقي؟

أميرال آغا.

وبسط أمامي الحكاية مثل جريدة:

«كنت عائدًا لتوي من المقبرة حين لمحت عيناي أميرال آغا. كان عاريًا تنساب على جسده قطرات من المطر كالدمع. ثم رأيته يضع سطله النحاسي في ماء النهر ويسكبه على جسده مما جعل الناس يضحكون عليه ويسألونه: ماذا تفعل؟ ضحك هو بدوره وقال: «أنا أغسل جسدي من المطر». سكب على جسده ما يقرب من مئة سطل وهو يردد: «لقد لوثني هذا المطر، لقد لوثني». وفجأة رمى سطله في الماء ثم توجه إلينا وصرخ: «لا يستقيم الأمر بدون بحر. منذ تسعة أشهر وأنا أقول ذلك لكنكم

صممتم آذانكم». ثم رمى بنفسه إلى الماء. لكنه قبل أن يرمي بنفسه، رأيته بأم عيني قد تحول إلى ماء، صدقني يا بادين، ليس لأني سكران وتراءى لي ذلك مثل خيال، لا! لقد تحول فعلاً إلى ماء وانحدر إلى النهر. ألا تصدق؟

بلى أصدق. كان ماءً وصار ماءً. لقد عاد إلى أصله.

وأنا سأموت بهذا.

قال آكوب وأخرج من تحت إبطه زجاجة وعبَّ منها جرعات وحشية.

بحث الناس عن جثته. كان كثيرون يقولون: «حين نعثر عليه فعلينا أن نأخذه سريعًا إلى المسجد الأحمر لنصلي عليه صلاة الجنازة». قلت بصوت لم يسمعه أحد: «صلُّوا على النهر، فلقد اتحد هو وأميرال آغا». وتوجهت صوب مكتب الحزب.

* * *

٢٠ تشرين الأول ١٩٤٦

مهاباد

كل خمسة أيام أكتب مرة واحدة، لقد ضعفت طاقتي في الكتابة، في السابق كنت أكتب عشر صفحات في اليوم، لكن الآن! أكتب صفحة واحدة ثم ينتابني الضجر مع أن قلبي مليء بالهموم و الغصص وهو محطم كسير. والشعر! آه منه. كأنني طلقته ثلاثًا فلا هو يسأل عني ولا أنا ألتفت إليه. اليوم حين نظرت إلى وجهي في المرآة شاهدت شعرات بيضاء كثيرة في رأسي. ترى هل هرمت أم أن كل غصة في قلبي تتحول إلى شعرة بيضاء؟ كان يقولون إن الشعر الأبيض رسول الموت أو أنه دليل عقل

ووقار وحكمة لأن الثلوج تهطل على الجبال العالية.

ليست هناك أحداث جديرة بالتسجيل في الجمهورية، ربما أنا لا أراها جديرة بذلك. في الشهر الماضي كان قدري بيك قد زار مهاباد والتقى بالبارزاني والقاضي محمد ووزراء الحكومة. زار البيشمركة أيضًا في جبهات القتال، وقد جاء لزيارتي في بيتي دون أن نتحدث كثيرًا، كما ذكرت ذلك سابقًا. كنت أود أن أسأله عن أحوال كرد سوريا ومجلة هاوار وجلادت ونور الدين زازا وأعضاء حزب خويبون والحركة السياسية التي لم نكن على اطلاع عليها. لكن للأسف كان هو يبحث عن الوجهاء والأعيان ولم أشأ أن أخرب زيارته بأسئلتي المجنونة.

أنا الآن لوحدي، قلبي أيضًا لوحده، الحب الذي كان يلمع فيه كالبرق كل لحظة لم يعد له أثر. أشعر كأن قلبي لم يعد ينبض، كأنه لا يخفق. أحيانًا أرى مناف كريمي يذهب ويجيء على عجل كمن يبحث عن شيء أضاعه. وحين نلتقي لا نتبادل سوى عبارات« كيف حالك؟ أنا بخير، إلى اللقاء!» لا أدري ما الذي يحدث تمامًا لكن قلبي يحدثني قائلاً: « ليس الحب فقط هو الذي انهار. الجمهورية أيضًا تنهار». لا أريد أن أصدق، لكن كل المعطيات تظهر هذه الحقيقة.

المطر يهطل بغزارة، الشوارع مظلمة مقفرة، لا أسمع سوى صرير قلمي على هذه الصفحات الصامتة.

* * *

٢٠ تشرين الأول ١٩٤٦

مهاباد

إنه الليل، المطر مرة أخرى، الوحدة مرة أخرى وهذه الصفحات

الممتدة أمامي كالعراء الأبيض. مرة أخرى تلعب الخمر برأسي وتخلط ما في قِدْر الخيال والذكريات مثل مغرفة. لم أعد أرى آكوب في المتجر أبدًا. إنه يقضي كل وقته عند شاهدة قبر رفيقه يبكي ويدندن بأغان أرمنية حزينة جدًا ويذرف دموعًا كهذا المطر الذي يهطل الآن. لقد نبت على قبر جدي عشب أخضر، أهو من دموع آكوب أم من الفودكا التي يسقي بها آكوب القبر أم من هذا المطر الخريفي!

أصبح آكوب كالمجانين. لا، لماذا أقول كالمجانين! إنه أصبح مجنونًا فعلاً. فكلما ذهبت إلى المقبرة رأيته على تلك الحال. إنه يثير بكائي أيضًا فأبكي، ليس على جدي الذي مات، بل على حبي الذي انهار ولا أقدر على سرد ألم انهياره لأحد.

ذات يوم رويت قصتي لمناف كريمي فضحك، نعم ضحك وقال:«عليك يا بادين أن تخاف من انهيار أكبر. انظر لقد وصلت المياه إلى تحت أقدامنا جميعًا وليس فقط أميرال آغا تحول إلى ماء، كلنا سنصبح ماءً».

نعم كلنا سنتحول إلى ماء. ثلوج الحب تذوب وتصبح ماء ينحدر كالدموع. جمهورية مثل مهاباد ستتحول إلى ماء. أما العنب فيتحول إلى ماء رباني بعد عصره ويسكر المرء. كل شيء ماء ويعود ماء فلماذا لا أصبح أنا ماء.

إنها السيجارة العاشرة التي أطفئها في المنفضة دون أن يهدأ بالي أو يخف توتري.

أسمع نبض قلبي كأنه نعيب بوم.

* * *

٢٥ تشرين الأول ١٩٤٦

مهاباد

سيفي قاضي ابن عم رئيس الجمهورية مريض، معدته تؤلمه.

قال مناف كريمي لي اليوم حين التقيته. رددت عليه: «الله يديم صحته وصحة هذه الجمهورية». قال وكأن جملتي كانت شديدة الوقع عليه: «الجمهورية مثل الفولاذ يا بادين، لا تصغ إلى أخبار الأعداء».

التقيته في المقهى. كان لوحده يحمل رزمة من الأوراق تحت إبطه، ودون أن أسأله ما هذه الأوراق قال حين رآني: «أهذه أوراق تخص الرئيس القاضي محمد. يجب أن أوصلها له قبل حلول المساء».

لا أدري لماذا حين يُذْكَر القاضي محمد أتذكر الحبال؟ أشم رائحة الحبال والحريق كلما لفظت اسمه ولقبه. أيعقل أن يقوم الغادرون العجم في يوم من الأيام بوضع رقبة القاضي محمد الرقيقة في حبل خشن؟

نعم إنه ممكن مادامت مُجْدَه، تلك المرأة رقيقة القلب لطيفة الوجه جعلت قلبي نهبًا للسكاكين وقطعته إلى ألف قطعة. هكذا أيضًا يستطيع الفرس أن يجعلوا القاضي محمد نهبًا لمطر الحبال. أصلاً لا فرق بين أن تنتهي قصة حب أو تنهار جمهورية!

كانت ألف قطاة تطير في عيني مُجْدَه. كلما كنا نلتقي، كنت أقول لنفسي: «أنا صياد بلا فخاخ» وكنت أحدق في أعماق عينيها. لكنني لم أكن أدري أنني سأصبح يومًا ما فريسة أسنان فخ وعودها المعسولة، لم أكن أعرف أن وعودها وادٍ ليس أقل عمقًا وخطرًا من دَربَندى بازيان حيث سقط والدي قتيلاً، لقد وقعت فيه وتناثر قلبي إلى ألف مزقة.

كان حبها جمهوريتي. والآن أصبح حبها هلاكي. كيف سأقنع قلبي

أنه خُدِع للمرة الثانية! كيف سيتطهر القلب من صدأ الحب؟ ألف مطر، ألف سيل يحتاجه قلبي المتيبس ليخضرَّ من جديد.

ماذا سأقول للبارزاني؟ ماذا سأكتب لصادق بهاء الدين؟ ماذا سأقول لحارة خاري ومدرسة السعادة والأماكن التي كانت شاهدًا على هذا الحب الذبيح! أرغب في التوجه إلى شنو لأصرخ بكل ما في حنجرتي من قوة: «لماذا يا مُجْدَه، لماذاااااااااا؟».

الأفضل أن أهرب من جراحي هذه إلى سقز وأنضم من جديد لصفوف البيشمركة، أنا خلقت للحرب لا للحب، وعلي أن أقتل هذا الحب بيدي قبل أن أموت.

أحيانًا يكون الحب كالخمر يترك المرء ثملاً، وأحيانًا يكون خنجرًا يحمل الموت في نصله. أما حب مُجْدَه فكان خمرًا وخنجرًا بنفس الوقت. أسكرني بما فيه الكفاية وها هو الآن يلف الكفن على روحي. ماهذا الانكسار أيها القلب؟ ما هذه الفخاخ التي تتعثر بها كالعميان؟ ما هذه النيران التي تشب فيك؟

ذات مرة قالت لي مُجْدَه: «العاشق مثل مقاتل في حرب ضروس، وأمامه احتمالان إما القتل أو النصر» وها أنذا أُقتل دون أن يوقف أحد نزيف كبدي. آه ليتني عرفت من خطف قلب مُجْدَه مني.

* * *

١ تشرين الثاني ١٩٤٦

مهاباد

مات آكوب. لم يمت بل انتحر. قتل نفسه بالفودكا.

يوم رمى أميرال آغا نفسه في نهر سابلاخ وروى لي آكوب قصته، ضحك ثم أخرج من جيب سترته زجاجة الفودكا وأخذ منها جرعة كبيرة حتى كادت عينان تخرجان من محجريهما. مسح ما سال من الفودكا على أطراف فمه بردن ثوبه ثم قال: «يا بادين إن كان لا بد من الموت فليكن بسبب هذه الفودكا، لا بين أمواج سابلاخ».

أمس تحققت أمنيته تلك. قبل أن تغيب الشمس كنت أتهيأ للذهاب إلى دروس محو الأمية المسائية في المركز الثقافي، وقبل أن أخرج خطر على بالي أن أعرج على المقبرة لزيارة قبر جدي.

حين اقتربت من القبر، لمحت طيف آكوب، فقلت في نفسي: «إنه نائم مثل كل مرة يسكر فيها». اقتربت أكثر فلاحظت زجاجة فودكا مكسورة وبقع دماء، كان ذاك دم الخال آكوب- في الفترة الأخيرة كنت أناديه خال آكوب- كان واضحًا أنه وبعد أن شرب كفايته من الفودكا، قام بتحطيم الزجاجة وقطع شرايين معصم يده اليسرى حتى أنه قطع حزام الساعة أيضًا. كانت هناك ثلاث زجاجات فارغة، ولم أعرف هل احتساها كلها أم سكب بعضًا منها على قبر جدي!

عدت كالمجانين وأخبرت أحد المسؤولين العسكريين والذي قام بدوره بإخبار النقيب حميد مازوجي. استقل النقيب سيارة جيب واتجه إلى مكان الحادث، طرح علي عدة أسئلة وحقق معي ثم كتب في التقرير: «آكوب الأرمني صاحب متجر الخمر، انتحر بقطعة زجاج».

ودفنوه في قبر بجانب قبر جدي.

* * *

٨ تشرين الثاني ١٩٤٦

مهاباد

وصلتني رسالة من كريم الشكاكي عن طريق أحد الفرسان الشكاك. فرسان الشكاك نادرون هذه الأيام في مهاباد، بعضهم يريد البقاء مع البارزاني وآخرون اضطروا للبقاء هنا لأنهم تزوجوا من فتيات مهاباديات. أما الباقي فقد ذهبوا إلى مواطنهم وكأن مهاباد كانت مشتىً ارتادوه وما إن حل الشتاء حتى توجهوا إلى مصايفهم! يظهر أنه لا الجمهورية ولا كردستان، لم يكونا في حسابهم أبدًا، لقد أتوا فقط ليرعوا قطعانهم ثم رحلوا! ليسوا هم فقط بل كثير من القبائل الأخرى رحلت. لقد أيقنوا أن الضعف بدأ يدب في شرايين الجمهورية وأن الفرس جادون في وضع يدهم عليها. أخاف أن تتحقق نبوءة جدي وأن تذهب هذه الجمهورية أدراج الرياح جراء نفخة دولية.

ذلك الذي سلمني الرسالة وظهر فجأة، لم أتبين ملامح وجهه جيدًا، سأل فورًا:« هل أنت بادين؟» فأجبت: «نعم» فدفع تلك الورقات المطويات في يدي ثم قفز إلى صهوة فرسه.

لم أفتح الرسالة بعد. قبل أن أقرأها بعيني قرأتها بقلبي. أعرف أنها تحمل لي خبرًا سارًا لأن اسمي مكتوب بخط جميل يزين الظرف: إلى الصديق العزيز بادين الآميدي.

«تحياتي الحارة يا بادين،

سيكون عرسي في الأسبوع القادم، وسيكون سروري بالغًا بحضورك ومشاركتك. لقد تعبت من حياة الحل والترحال وعلي أن أستقر وأتزوج».

الحمد لله أنني خطرت على بال كر يم أخيرًا.

طبيعي أن يتذكر المرء أصدقاءه في الملمات والمصائب لكن الصداقة الحقيقية تظهر في المسرات. لأن المرء يكاد أن ينسى حتى نفسه في حالات السرور. لكن هل ستأتي مُجْدَه إلى حفلة عرس كريم؟ بدون شك ستأتي. لأن كريم بمثابة أبيها. سأذهب إلى العرس. إنها فرصة لي للقاء مُجْدَه وإنهاء علاقتنا الغامضة هذه، حبنا الذي يتم ذبحه كل مرة بسكين مختلفة.

إن وضع الجمهورية ضبابي ومعقد، وربما من غير المسموح لي أن أغادر إلى مناطق الشكاك. فالجميع صاروا يتحدثون عن عمرخان وعلاقاته بنظام الشاه محمد رضا حتى أن البعض يصفه بالخائن الذي أدار ظهره للجمهورية في حال الشدة. لا أعتقد أنه خائن لكنه يقرأ الأحداث بشكل مختلف عنا جميعًا. فبالنسبة لرجل في السبعين من العمر لا بد أن السنوات علمته وعرفته بالجهات التي تهب منها الرياح الشديدة والعواصف.

* * *

أنت

١٥ تشرين الثاني ١٩٤٦

مهاباد

ماذا ستكتب بعد على هذه الأوراق الباردة؟ كيف ستصدق الحادثة أيها القلب البدوي؟ لقد رأيت بعينيك وسمعت بأذنيك. كانت الآلات تدندن، والراقصون يهزجون ويخبطون بأقدامهم تلك الساحة التي أصبحت شاهدًا على قتل حبك الأخير.

كان مطر ناعم يهطل مثل هدهدات الأمهات، كان ذاك المطر ترتيلاً في كتاب مقدس على روح تحتضر، في تلك اللحظة كانوا يحفرون قبرك.

من قال لك: «اذهب وضع قلبك في مهب قساوة السكين؟» من قال لك :« قُد حبك إلى نهاية لم تخطر في بالك؟» من قال لك: «دُقَّ المسمار الأخير في نعش آمالك؟»

الشكاك ليس فقط أداروا ظهورهم للجمهورية لكنهم هدموا كوخ حبك ولم يبقوا فيه حجرًا على حجر، أما صديقك كريم، صياد الرياح الغريبة فقد دعاك إلى موتك، وذبح قلبك في حفلة عرسه.

كان هو العربس أما العروس فكانت مُجْدَه !

نعم مُجْده.

فماذا ستكتب الآن سوى قصيدة مخنوقة حروفها منسوجة من رماد هذا القلب المحترق!

أدار عمرخان ظهره للجمهورية فتبعه الشكاك، لا بأس، لكن أن

يتركوا قلبك خلفهم مثل صقر جريح! لماذا وألف لماذا لا تكفي لهذا السؤال الذي لا جواب عليه.

لقد جعلوا قلبك منفضة لسجائرهم، أشعلوا قلبك وتركوا روحك مثل رماد يخلفه الفرسان وراءهم، كلهم رموا حفنة من التراب على روحك المشتعلة.

لقد شاهدت بعينك كيف تمد مُجْدَه علبة تبغك- تلك التي سرقتها جاله منك- إلى عريسها كريم! كان كريم يشكرها وهو يضحك ويلف السيجارة إثر السيجارة. كانت روحك هي التي تحترق بين أصابعه وليست السجائر، كان حبك هو الذي ذبحوه في حفلة العرس تلك وليست خراف الشكاك.

هجمت على علبة تبغك وصرخت: "أوقفوا هذه المهزلة" وصرت تخور مثل ثور. جاء بضعة فرسان من الشكاك وأمسكوا بيديك وهم يتساءلون: "من هذا المجنون الذي يعكر صفو حفلتنا؟". نعم كانوا يتحدثون عن مجنون وكنت قد جننت بالفعل.

كان العريس رفيق دربك كريم، أما العروس فقد كانت حبيبتك، زميلتك وخطيبتك مُجْدَه. فماذا ستكتب سوى قصيدة خاملة

* * *

ماذا ستفعلُ إن كانت سماؤكَ مناجلَ
وعُمركَ زرعًا لا صاحب له؟
ماذا ستفعلُ حينَ تكون الرماحُ
قد صدِئتْ في حنجرتك

ولسانك مصلوبًا؟
أيُّها المهاجرُ
لقد جاء الليلُ حافيًا إلى عتبة داركَ
وسرقَ حذاءكَ
فلم تنتبهْ.
الثلجُ النّمامُ
نهبكَ آفاقكَ
ولم تنتبهْ.
الريحُ العاريةُ مثلَ حَبْلٍ
الريحُ المهاجرةُ مثلَ روحكَ
خَنَقتْ إشراقاتِ فجركَ الهانئ
ولم تنتبهْ.
الأنهارُ السفيهةُ الحمقى، سردتْ
أسراركَ أمام شجر الحور كبُسُط عجمية
ولم تنتبهْ.
في إثرِ مسيركَ، فوقَ الثلجِ العجوزِ
رعتْ الزرازيرُ
ولم تنتبهْ.
أجلْ أيُّها المهاجرُ
لم تنتبه.

أولمْ أنبِّهكَ
ألَّا ترسلَ الخِرافَ إلى البرّية الخَؤُون
لأنّ العَجاجَ سيخطِفُها؟
ألمْ أنصحكَ بأن تزرعَ النعناعَ البريَّ حول مصيفكَ
حتى لاتسرقَ الأفاعي بيوضَ الحجل؟
أَلَمْ أحذِّرْكَ من غاراتِ الصعاليك
فتنتبه لعواميد خيمتك؟
ألم أقل لك: «دارِ جراحَكَ وأخفِها عن العيون»؟
كنتَ تمعِنُ في الرحيل
بأذنيك المختومتين مثل قصبِ الجِنِّ
صوتي كان حزامًا
يلفُّ خاصرة جبالك المتباهية،
كنت تسير هائما
تقطع الفلاة
و تبحث عن جميلتك بين السرابِ.
من أخبركَ أنَّ في السراب جوابٌ للأسئلة البدوية؟!
أجلْ أيُّها المهاجرُ
النجومُ (النجومُ التي لاعهدَ لها)
كانت تسرد أحلامك للعفاريت،
أما كنتَ تسمعُها وهي تقهقهُ

ساخرةً من غليونكَ الخالي من التبغ؟!
كنت أديم النداء : «يااااااااااااا مهاجر
لاترحلْ بعيدًا، سيسرقون كوفيتك
ويخطفون قصعتك التي لاتمتلىء».
ومع ذلك كنتَ تهرعُ إلى لقاء جميلتكَ.
حبُّها المخادعُ كان يجذبك إليه
كانت أسرابُ الحجل تتطايرُ
من وقع خفيك.
والذئابُ تحوِّمُ في إثرِك.
أما كنت تدري أنَّ رائحتك
تفوحُ من الثلج المهرِّج؟
ألم أنصحك ألا تصدق قاطفات البطم!
ألم أنصحك ألا تثقْ بالثلج؟
لكنَّك لم تعرني انتباهك وصرت تمعنُ في الرحيل.
كان صوتي يفرقعُ في رماد صَمَمِكَ
مثل حباتِ البلوط.
اقتفى صوتي أثركَ مثل غبار صيفٍ في السهول
ومع هذا لم تلتفتْ إليَّ.
أتتذكرُ؟
أتتذكّرُ يا مهاجرُ لمّا كنّا نغلي القهوة

على نار ورق الخريف؟
أتتذكّرُ
حين أحرقنا ثلاث علبٍ من التبغ تحت وهج الكلام؟
حينها كانت أرواحُنا هي التي تحترقُ
وآآآآه من يشعر بحريق الأرواح؟
من غيري وغيرك
يعرفُ مذاقَ النار؟
أتتذكّرُ؟
أتتذكر يا مهاجر كيف كنّا نغسلُ وجه الصباح
بدموعنا
و نهدهدُه في أقداحنا الفارغة؟
وقتها قلتُ لك:
لاتنأَ كثيرًا أيُّها المهاجرُ
لأنهم سيبيعون زيّك الجميل
في الأسواق
سيغتصبون روحك البدوية.
لكنَّكَ نأيتَ
وحدكَ نأيتَ مثل شجر الأمنيات
وكآهةٍ أخيرة لمنْ عَشِق محبوبة مستبدة.
كنتَ تنأى بخطواتٍ متلجلجة

ونظراتٍ بلهاءَ.
مثلما نهرٌ ناعسٌ، كانت خطواتكَ تتدحرجُ
وآثار خطوك ترضع الموت من الضباب.
صارت خطواتك تذبلُ مثل عناقيد كرم مهجورٍ.
صوتي لم يكن يصلُ إليكَ
كأنّما حنجرتي، هي الأخرى كانت قد سُدَّت بالشمع.
أجلْ أيُّها المهاجرُ
لقد خلّفتَ المصيفَ وراءكَ
بما فيه من القِرَب التي تخشخشُ مثل قلبكَ،
بالنار التي غدتْ رمادًا في الأثافي،
وبالخيام المنتظِرة.
كانت المصايفُ
ترجفُ كالرقى والتعاويذ
على أكتاف الجبال.
من ذا الذي يجرؤ على تلاوة التعاويذ هذه الليلة؟!
ها قد اهترأ صوتي كمحراث صدئ في الثلج
ومع ذلك لم ترجعْ
أجلْ أيُّها المهاجرُ لم ترجعْ.

* * *

٢٠ تشرين الثاني ١٩٤٦

مهاباد

إنك لا تنس الحدث، منذ أيام وأنت قاعد في قعر البيت مثل خرقة فاضت عن حاجة خياط. لا أنت تذهب للقاء الأصدقاء (ترى هل تؤمن بالصداقة بعد ما حدث) ولا أنت تعود لصفوف البيشمركة! حتى أنك لا تذهب إلى دروس محو الأمية المسائية، فاشرب ما تستطيع أن تشربه من هذه الخمرة التي ستنهيك ولن تنهي آلامك.

ذات مرة قال لك كريم في إحدى الأمسيات: «يا بادين أتعرف ماذا تقول الغيوم حين تهب الرياح؟» ودون أن تسأل «ماذا تقول؟» أجابك: «تقول الغيوم: الأفضل لنا أن نبتعد عن طريق الرياح». وأنت لم تبتعد عن طريق رياح الحب، لم تختبئ خلف أي ستار، فانظر كيف تتمزق غيوم حبك؟.

أحيانًا يعن على بالك أن تذهب لتشكو إلى ملا مصطفى البارزاني، لكنك ما تزال تحتفظ بقليل من العقل فتقول لنفسك: «من ذا الذي سيسمع صوت قلب ذبيح في هذه الجمهورية؟ العدو يشحذ أسنانه لينهش لحم الجمهورية ولن يستمع أحد إلى شكواك يا بادين».

يقال أن قوام السلطنة يجهز قوات إيرانية لإرسالها إلى آذربيجان وكردستان وأن أمريكا تؤيد هذه المساعي. والروس! آآآآآآآآآه من الروس. أصلاً الروس هم الذين قصموا ظهر الجمهورية. هم الذي مرغوا حبك في التراب. لا أحد يسمع نبض قلبك كما لا يسمع أحد نداء القاضي محمد. كلاهما مثل آهات جريح منسي ملقى في أعماق واد سحيق.

إنهم يزجون في طهران بأنصار حزب توده في السجون. الروس طامعون في نفط الشمال فمن ذا الذي سيحمي حبك؟ لا هو أغلى من النفط ولا هو أكرم من أنصار توده الشيوعيين.

من كان يصدق أنك ستتعثر بحب غادر مرة أخرى؟ كنت تقول: «لقد أتقن القلب لعبة الحب» لكن يبدو أن قلبك مازال ذلك الجاهل السابق.

يوم أتيت إلى مهاباد، التفَّ الضباب على ذاتك وعلى روحك وعلى أيامك وعلى هذه المدينة أيضًا، لم تعد ترى أمامك، كان الضباب في كل مكان وأنت كنت في جمهورية الضباب. كنت في وطن من ضباب. وكنت تكتب على هذه الصفحات التي لن يقرأها أحد: «أنا أشم رائحة موتي مثلما يشم أحدهم رائحة حريق».

تلك كانت رائحة حبك هذا يا بادين.

والموت!

أحيانًا يكون انهيار حبٍّ أقسى بمئة مرة من الموت.

آخر مرة حين مددت يدك إلى جاله، شعرت بيدك وقد تبللت! كانت جاله قد تحولت إلى امرأة من ضباب ندي، ثم تحولت على وقع حرارة الحب في قلبك الأعمى إلى دخان ارتقى أمام عينيك في سماء ضائعة.

كنتَ ريحًا مجنونة يا بادين.

دالية العنب، التي لم تكن تخضرُّ أبدًا، ظهرت فيها فجأة في هذا الخريف عناقيد من الزبيب! متى أنبتت عنبًا! ومتى صار العنب زبيبًا؟ أنت لا تدري. كنت تسقي الدالية يوميًا لكنها ما كانت تمنحك عنبًا. هاهو قلبك أيضًا تحول إلى عنقود جراح حمراء.

* * *

لم يعد بادين ليقر له قرار. أصبح نصف مجنون، كان يبحث عن قلبه في أزقة المدينة. كان يذهب إلى المدارس، إلى مسجد شاه درويش، حارة شوانان، ساحة چوارچرا، حارة اليهود، حارة الأرمن، وكل ركن قصي في تلك المدينة المنسوجة من ضباب كثيف. كان يخفي نفسه عن البيشمركة، لم يكن يريد أن يترك مهاباد مع أنه كان يعرف أن القدر يدير ظهره لتلك المدينة.

لم تكن عنده لا القدرة على الانتحار ولا الجرأة الكافية لفعله، كان على إيمان راسخ بأن ساعة موته تقترب وأن قدرًا ما ساقه إلى تلك المدينة.

صار كلما نظر في اتجاه شنو يجيش صدره فيبدأ يعوي كالذئاب. بدأت الحلقة تضيق أكثر على رقبة مهاباد. البارزانيون أصبحوا ينسحبون منها مثل مسامير تُسحب من الخشب. لم يعد لخانم وسلطانة أثر هناك وإلا لذهب وبرَّد حر قلبه عندهما وبكى على صدر واحدة منهما، كان البعض يقول إنهما هاجرا إلى فلسطين، البعض قال إنهما في طهران بينما قال آخرون إنهما بعد أن قدما كثيرًا من الخدمات للروس صارتا في موسكو.

لم يعد يحصل على الفودكا أيضًا. تلك الفودكا كانت تداوي كل جراح القلب. تلك الفودكا كانت تذيب الحب مثل ثلج في وهج الشمس وتبدد الهموم مثل غيوم هبت عليها رياح الشمال.

متأخرًا عرف بادين أن جاله كانت تترجم أشعار گوران إلى الإنكليزية وتدعي أنها أشعارها هي! متأخرًا اكتشف أن جاله كانت تنصب له فخًا أنى ذهب. وحين جلس في منتصف الليل، في ذلك الخريف، تحت دالية العنب وتوجه بأنظاره إلى سماء مختبئة وراء أغصانها ورأى عناقيد الزبيب متدلية، قال: «هذه هي حياتي وليست دالية عنب». لم يكن يعرف في أي زمن مجنون أثمرت تلك الدالية.

عاد بذاكرته إلى عام ١٩٤١ حينما كانت جاله تدرس في بغداد، كان صيفًا حارًا كعادة كل صيف في تلك المدينة الخرافية. كان بادين قد لحقها إلى هناك، وينتظرها في مقهى شاول اليهودي في شارع الملك غازي على ضفة دجلة. دخن بضع لفافات تبغ وهو يحدق في أمواج نهر دجلة المتعب. كان الملك فيصل في شقلاوة حين بدأت مقتلة ضد اليهود. لم تأت جاله إلى موعدها، وهل كان أحد يستطيع الخروج من بيته ذلك الوقت!

ساق الحب بادين إلى بغداد مثلما كان نهر دجلة يمضي متدفقًا من دياربكر إلى بغداد. كانت جاله تبحث عن حجة لئلا تلتقي به في ذلك الموعد. في تلك الأيام كانت السلطات تعتقل اليهود، أصبح قلب بادين أمام سكاكين أكاذيب جاله يهوديًا شريدًا. صار يتسكع في شوارع بغداد مثل المجانين، كاد يُقتل في إحدى المرات لكنه عرّف بنفسه فورًا وقدم بطاقته الشخصية للذين اعتقلوه. كانت جاله قد تملصت من لقائه لكنه لم يكن يصدق، عاد نادماً خالي الوفاض إلى السليمانية. بعد هذه الأعوام عرف أن جاله كانت تكذب عليه. لكن مالفائدة؟

أصبحت مهاباد بالنسبة له حلقة في حبل مشنقة صارت تضيق على رقبته يومًا بعد يوم، لم يعد يلتقي بأحد من رفاقه القدامى، كان كلما اتجه إلى مكان بدا له غريبًا كأنه يراه لأول مرة. كان الزمن يسيل مثل حاشية ثوب عروس هبت عليها ريح عاصفة في المساء. لم يعد يتذكر لماذا جاء إلى هذه المدينة ومتى جاء؟ لم يعد يعرف ما هي مهمته هناك؟ نسي كل العناوين، فقط كان يذهب كلما ضاق صدره إلى القيصرية خلف ميدان آسنكران ويبقى قليلاً أمام دكان ذلك العجوز بائع الحبال. كان العجوز يحدق فيه بعينيه الصغيرتين ويقول مع ضحكة لا معنى لها: «هيه أيها الشاب! هل عرفت الآن من أين تهب الرياح؟» كان بادين ينظر إليه صامتًا، ثم يحدق

في تلك الحبال التي كان العجوز يجدلها بمهارة، ثم يغادر المكان.

لم يعد بادين ينحني على تلك الأوراق البيضاء. لم يعد يعرف ماذا سيكتب. كان الزمن يسيل كالماء بجانبه، توحد عنده المساء والصباح. لم تعد مهاباد أيضًا تظهر له، لقد ضاعت. أنى ذهب بادين كان يتعثر بالمشانق ويرى حبالاً متدلية. كل مكان تحول إلى جوارجرا وكل الأشجار كانت تبدو كالمشانق. وحين أراد أن يصرخ ذات ليلة، اكتشف أنه بلا صوت!

وقعت تبريز في يد الجيش الإيراني لكنه لم يسمع بذلك، اجتمع القاضي محمد ووجهاء البلد في مسجد عباس آغا لكنه لم يعر ذلك الأمر أي اهتمام، أخذ الضابط الروسي أسدوف معه كمية من الوثائق والصور التي التقطها مع القاضي محمد واتجه إلى أورمية لكن ذلك لم يلفت نظر بادين، وحين نقلوا له الخبر اكتفى بأن هز منكبيه واتجه إلى مكان مجهول. فرغت مهاباد من الروس كما يفرغ زق مثقوب من اللبن. كان البارزانيون يتبجحون ويدعون أنهم سيحمون المدينة ولن يسمحوا لجزمة جندي من جنود الشاه أن تطأ أرض مهاباد، لكنه كان يتصرف كأنه لا يسمع هذه الأمور.

اقترب الجيش الإيراني رويدًا رويدًا من المدينة وبات الجميع يعرف أن اللعبة قاربت على الانتهاء. أصبح بادين مثل ذبابة تقع على ظهرها في صحن وتدور على نفسها دون أن تقوى على الوقوف على أرجلها.

احترق حمام المدينة المسمى حمام شير وخورشيد (الأسد والشمس)، كانوا قد عقدوا العزم على تغيير هذا الاسم البهلوي لكن الحمام كله تغير فأحرقوا فيه كل الوثائق المتعلقة بالجمهورية. صار بادين يسعل من كثافة الدخان الأسود الذي كان يعلوا الحمام، ويقول: «إنه فصل من التاريخ يحترق» وصار يمشي دون أن ينظر خلفه. كانت الإشاعات التي يسمعها

تعصر قلبه: «سوف يذهب ملا مصطفى وميرحاج إلى طهران». لم يكن يصدقها. لكنه حين سمعها من البارزاني نفسه: «نعم سنذهب»، وضع أصابعه في أذنيه، أدار ظهره للبارزاني ومشى.

القادمون من تبريز كانوا يروون حكايات لا يصدقها العقل، كانوا يقولون إن المئات من حكومة جعفر بيشورى يتم ربطهم بالسيارات ويُسحلون وأن بعضهم تعرض للرجم بالحجارة بينما تمكن آخرون من الوصول إلى حدود ستالين ليختبئوا في ظلال غليونه.

صارت رائحة الموت تفوح من مهاباد.

قلب محطم، مدينة مهجورة وزمن غادر فإلى أين سيتوجه بادين الآميدي!

كانت الأحداث فوق مستوى تفكيره وفهمه: عناقيد الزبيب الغافية على الدالية في وسط الدار، جاله التي تحولت إلى تمثال من الضباب ولم تعد يداه تنشفان من رطوبتها، نهر سابلاخ الذي كان صوت أميرال آغا يُسمع من هدير أمواجه، والجبال التي كانت تحاصر المدينة، والريح المجنونة التي كانت تلف الجبال، كل ذلك أصبح قدرًا لا يستطيع بادين الفكاك من بين براثنه.

متأخرًا جدًا أدرك أن الروس وقَّعوا معاهدة النفط بدماء المهاباديين، متأخرًا جدًا عرف أن كل ذلك التبغ الذي حملوه من مهاباد إلى موسكو اشتعلت ونفثت دخانًا اسطوريًا وأحرقت معها حقيقة التاريخ. شعر بنفسه وحيدًا في المدينة، ولما وصلت إليه أخيرًا علبة تبغ والده وجدها ملطخة بالدم، ترى أكان ذاك دم قلبه أم دم بكارة مُجْدَه!

لم يعد يفهم شيئًا من مشاعره، الأصح أنه أصبح رجلاً بلا مشاعر في

ذلك الزمن النذل. كان يسأل نفسه كل ليلة: «أين كل أولئك البيشمركة الذي كانوا يزينون صباح مهاباد بأصواتهم! أين كل أولئك الروس الذين كانوا يشترون البغال من المكريين ويرسلونها صوب بلاد الصقيع الغادر!» لو كان جده على قيد الحياة لأجابه على كثير من أسئلته.

ذات ليلة، وحينما أصبح القمر بدرًا ينير كل الأرجاء، اتجه بادين إلى جبل خَزابى وصعد إلى الأعلى. كلما كان يرتقي أكثر تصغر مهاباد أمام عينيه أكثر، ولما وصل أخيرًا إلى قمة الجبل، اختفت مهاباد عن عينيه ولم يعد يراها، هو أيضًا غاب في تلك القمة ولم يعد يُرى.

بعد أسبوع من صعود بادين إلى قمة الجبل، انزلقت ورقة صفراء من على طاولته في بيته، انزلقت وخرجت مع نسمات لطيفة إلى شوارع مهاباد، التقطها أحد تلاميذه، لم يكن مكتوبًا على تلك الورقة سوى سطرين عرف التلميذ أنها بخط أستاذه بادين، وحين تمعن فيها أصبح يقرأ بصوت متقطع وخفيض:

«الحياة.... جرسٌ.. مرتفع..... الصوت.. لكن....
لا..... يُسمع..... صوته.....وحدهم.....الذين.......
انتهت....حياتهم.....يسمعون....أما...أنا.....فقد....
أصبحتُ...أصمَّ....ولم...أعد....أسمع....أي...رنين».

بادين الآميدي- مهاباد
في ١٧ كانون الأول ١٩٤٦